

الشّيباني
مكتبة نوميديا 164
Telegram@ Noumidia_Library
أحمد فال ولد الدين
روايــة
التنوير

أحمد فال ولد الدين

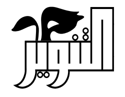
# الشّيباني

## أحمد فال ولد الدين




(رواية)





الكتاب: الشّيباني (رواية)
تأليف: أحمد فال ولد الدين
عدد الصفحات: 272 صفحة
الترقيم الدولي: 9-28-941-9983-978
رقم الناشر: 19/133-367
الطبعة الأولى: 2019

الناشر
دار التنوير للطباعة والنشر
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة - 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com



# إهداء

إلى إدوارد سعيد... وتقيِّ الدّين بن تيمية.

## 1

ولا تُظهـرنَّ الزهـدَ فيهـا فكلّنـا

شـهيدٌ بأنّ القلبَ يضمرُ عشـقَها!

المعرِّي

انحنى الشّيباني في ركن مكتبته الواقعة بسوق واقف - في مدينة الدوحة - لينفض الغبار عن الكتب المصفوفة بأناقة. تجاوز قسم الأدب حتى وصل إلى ركن التاريخ، فاضطرّ كالعادة إلى إدخال منكبه أولًا حتى يستطيع المرور لتقارب الرفوف في هذا الركن.

كان كعادته في دراعة واسعة بيضاء، مزركشة الصدّر باللون الأصفر، تحتها قميصٌ بنّيٌّ قصير الأكمام، يظهر واضحًا من الفتحة الواسعة للدراعة من أعلى الصدر. تسافر عيناه البنّيتان بين الرفوف الخمسة المستطيلة المكتظة، وتتشبّث يداه بأطراف دراعته حتى لا تعلق بكتاب ناتئٍ فتتهاوى الكتب على رأسه كما حصل معه قبل أسبوع.

انتابه ضيقٌ ظهر في انطفاء يُظلّل وجنتيْه الناتئتين قليلًا، وشفتيه الدقيقتين، وأنفه الكبير المائل يمينًا. كان يفكّر في خبر سمعه في الإذاعة عن لاعب برازيلي يكسب من قدمه ثلاثمائة ألف يورو كل أسبوع. ردد عينيه في رفوف الكتب المحيطة به، ولمس جبهته بأصابعه وقال بصوت مرتفع:

«والفقرُ تحتَ عمائمِ الأُدباءِ!».

تبدأ الرفوف الخمسة المستطيلة من الباب وتنتهي قبيْل النضد

الخشبي؛ حيث تنتصب طاولة دائرية حمراء، تشتهر عند زوار المكتبة باسم «المشرحة».

وقف الشيباني بجانب الطاولة ليرتِّب كميةً من الكتب التي جاءته حديثًا من مطابع بيروت النهمة. بدأ طقسه المعتاد عند استقبال صندوق جديد. يمسك كلَّ كتاب ويتلمّس أطرافه بحنان كما تتلمَّس الأمّ وجه وليدها. ثم يقلّب صفحاته بأطراف أصابعه الغليظة، مُدقِّقًا في العنوان واسم المؤلف وسنة الطباعة، ونوعية الورق. بعد ذلك يرفع الكتابَ إلى وجهه ويفتحه من الوسط ليقلّب صفحاته ويشمّه، مغمضًا عينيه كأنه يعبّ من مادة مخدّرة.

يتأمّل نوعية الورق مرة ثانية، ويقرأ لمحة سريعة عن الكتاب، وبعد ذلك يكون قد جاوز المشرحة بسلام؛ يعلن المكانَ الذي يجب وضعه فيه وعلى أيّ رفٍّ، فيتلقّفه مساعده محمود، الجالس قربه على كرسي بلاستيكي أبيض، متوثبًا لاستقبال العضو الجديد في المكتبة.

كان رذاذ المطر يسَّاقطُ في الخارج، لمح رجلًا منتفخَ البطن في ملابس رياضية صحبةَ فتاةٍ منقّبةٍ نحيفة، يركضان ليدخلا أحد المقاهي. ذكّره رذاذُ المطر ولطف الجو بكلام أحد الزبائن قبل أيام، وهو يصف الدوحة بأنها تتزيّنُ لزوارها نهاية العام وبدايته، كأنها بدوي يُكرّم ضيفه في قدومه وانصرافه.

وضع آخر كتابٍ من يده كما يضع تاجر التحف الفنية تحفَه، بينما كان مساعده محمود يخبره أن الأرفف تحتاج إلى إعادة ترتيب لإبراز الكتب الجديدة. كان محمود مميزًا ببشرته السوداء، وهامته الصغيرة، وشعره الأجعد الذي يشبه فرشاة رسام، وتنحفر تحت جبهته الناتئة عينان كعينيْ تيسٍ برِّي، يجثم بينهماأنف أفطس.

نظر إلى محمود وقال:

– الساعة الآن العاشرة، ولمّا يدخل علينا أيّ زبون. وقد رأيتُ أكثر من عشرة بغالٍ يقرعون البلاط بحوافرهم، ويحرّكون أذنابهم وهم يدخلون مطعم المعجّنات اللبناني ذاك!

فنظر إليه محمود باسمًا:

– ذاك عادي يَخَيْ!

نظر الشّيباني إلى ساعته، ثم رفع عينيه قائلًا بلهجةٍ مُحبطةٍ بعد التفكير في وقوع مكتبته بين مطعمين، مغربي ولبناني:

– تعالَ لنرتّب الرفوف قبل فهرسة الكتب التي في الكراتين؛ فالكتبيُّ في العالم العربي يحتاج إلى فتنة عائشة بنت طلحة، وبلاغة ابن المقفع، وطرافة الجاحظ – مع حلم الأحنف طبعًا – ليسلَمَ له رأسُ ماله!

ورفع محمود عينيه متبسّماً كعادته كلما سمع هذه الأسماء والأمثال، ثم راح يرتّب الكراتين المصفوفة التي عليه التعامل معها. وقال متنهدًا بلهجة الشرق الموريتاني:

– أهيهْ! أنتَ عايدْ جايتَكْ!

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة عندما دخل زبون قصير القامة، ضخم البطن، يلبس ثوبًا ناصع البياض، مكويًّا بأناقة، تعبث أصابعه بغترة حمراء تائهة على هامته. كان يخطو كإنسان آلي، واضعًا يديْه فوق حِقْوَيْه، رافعًا بصره إلى الكتب. تلقّاه الشيباني بابتسامته الطفولية المفترة عن أسنانه المفلجة:

– أهلًا وسهلًا!

لم يردّ الزبون التّحيّة، ولم ينظر ناحية الشيباني، بل واصل النظر إلى الكتب المصفوفة في الرفوف. أدار عينيه في جنبات المكتبة قائلًا

بلهجة استغراب:

– البرّي والبحري! تضعون كتب ابن القيم إلى جانب كتب ابن عربي!

اقترب الشيباني من الزبون قائلًا بلهجة دفاعية:

– تمامًا، ذاك مقصودي، وذاك الأجمل. فوضع البحري مع البحري أمر باهتٌ يفعله كل بقّال، وكل بائع خضار، أو بائع أحذية... أما وضع الضدين معًا فأمر فيه فضائل الندرة والإثارة والخروج على الدارج والممجوج. ثم إن الشاعر قال: «وبضدها تتبينُ الأشياءُ!».

رفع الزبون حدقتيه الكبيرتين، ومدّ أصابعه إلى غترته ليثبتها على مقدّمة رأسه وقال بلهجة وُثُوقية:

– الله هَداكْ! ابن القيم لا يوضع جنب هذا الصوفيّ الملحد!

كان الشيباني قد درّب نفسه خلال الأشهر الماضية على التخلّص من عاداته البدوية في التعامل بصَلَفٍ مع زبنائه، وغدا قادرًا على مجاملتهم، والتصرّف بطريقة تتراوح بين اللطف والسخرية، حسب الزبون. فقال بهدوء رغم شعوره بأنه استُفِزَّ:

– هنا سبب آخر لجعلي ابنَ القيم جنب ابنِ عربي. وهو أني أتخيّل المؤلّف وهو حيّ، وأعرف آراءه التي لا يجامل فيها، فأختار له مؤلفًا آخر عنيدًا يناقضه تمامًا. ثم أتخيَّل تعاركهما داخل هذه المكتبة طوال الليل. فأرواحهم تتقاتل في سماء سوق واقف بعدما يوصَدُ المحلُّ ويُرخي الليل سدوله. حينها يمكن أن يخرج ابن تيمية من داخل كتابه «درء تعارض العقل والنقل» ملتحفًا رداءً أسودَ وإزارًا أصفر، فيتلقّاه ابن عربي، وقد غطّى جسده بأسمال ووضع على رأسه عمامة أندلسية رمادية، عند هذه الزاوية في طرف «الفتوحات المكّية» ويتهارشان

تهارشَ الأسود، أو تهارش القطط السمان عند مسجد الدرويش، قرب مستشفى الأهلي وسط الدوحة.

سكت الشيباني بغتةً، إذ أحسّ أنه قد يكون بالغ في ردّه. وفكر في أن هذه المرة الأولى التي يقابل فيها هذا الزبون، وهو في الأغلب لا يتحدّث بهذا الانفتاح مع من يقابلهم أول مرة.

ولاحظ أن الزبون يَلْفَحُه بنظرات استغراب كأنها تنبعث من عينيْ قردٍ ماكر. فأجفانُ الزبون تتحرّك بسرعةٍ، مُزاوجةً بين الإطباق والإغماض، بينما تركّز حدقتاه في وجه الشيباني، مع شفتين مفتوحتين قليلا كأن صاحبهما يتحفّز ليقول كلاماً ثم يحجم عنه.

وخيّم صمت لم يقطعه إلا صوت محمود يُدندن مغنيًّا أغنية موريتانية، وهو ينفض الغبار عن الكتب قرب الباب:

- أم النورْ هاه أم النور... لقنيبه لقنيبه... هاه... وأم النور أم النور!

مدّ الزبون يدًا رَخْصَةً يُغطّيها شعرٌ فاحمٌ كأعراف الخيل، وقال بلهجة خليجية يصعب تحديدها:

- أنا خميس العبد الله، مين الأخ؟

- الداه ولد الشيباني.

سكتا، وسمِع كلاهما خشخشةَ ورقةٍ ناتئة من كتاب تداعبها المروحة المثبة بجدار المكتبة.

واستعاد خميس صورة صديقه السمسار قبل أيام يحدّثه عن صاحب المكتبة الشنقيطي الغريب الأطوار. عاد الشيباني إلى مقعده، وواصل خميس تفحّص الرفوف بعينيه النفاذتين.

كان خميس زيتيَ البشرة، كبيرَ الرأس، أشيبَه، ذا شفاهٍ غليظةٍ تغطّي أسنانًا بيضاء قوية، تشبه أطقم الأسنان البلاستيكية المعروضة على

مكاتب أطباء الأسنان. ينبعث من عينيه الحمراويْن أبدًا بريقٌ يوحي بسوء الظن بالنّاس والزمان... وبظمأٍ للمتع لا يرتوي. ومع ذلك يملك ابتسامة بلهاء، تشبه ابتسامة مريض نفسي محقون بمهدّئ للأعصاب. لم تُسعفه نظراته المتفحِّصة لخميس بفهم ما تُخبّئه تلك العينان البرّاقتان الطافحتان بالألغاز. كانت عيناه مع احمرارهما الدائم صقيلتين، ينطلق منهما شعاع أو لمعان كعينيْ قطّ في الليل.

أخذ كتابًا ودفع المبلغ، ثم خرج باسمًا. وهنا قال محمود للشيباني:

– هذه ليست المرة الأولى التي يزور فيها هذا الرجل المكتبة، فقد زارها قبل أيام رفقة سيدة حزينة النظرات ذاوية الشفاه.

رمى الشيباني الكتاب من يديه واندفع نحو الباب. لكن خميسًا كان يغذّ السير، فلمحه قليلًا قبل أن يتوارى في أزقة السوق.

وعاد الشيباني يمشي متثاقلًا بين رفوف كتبه، متلمِّسًا طرف ذقنه بأصابعه، مستعيدًا تيْنك العينين، وذلك الوجه الذي بدا له مشفرًا رغم الابتسامة الواسعة.

كان محمود مشغولًا بترتيب وتلميع «الأعمال الكاملة للعقاد» عندما جاءه صوتُ الشيباني وهو يحمل بين يديه كتابًا يقرأه بصوتٍ مسرحي:

دعيني للغنا أسعى فإني رأيتُ الناسَ شرَّهم الفقيرُ!

وانطلقتْ – بطرف المكتبة – غمغماتُ ببَّغاءٍ يُقلّد طريقةَ الشيباني في إنشاد الشعر. تبسّم محمود منشرحًا في انسجام مع مزاج مديره، فقد اعتاد على أن الشيباني يلجأ لإنشاد الشعر بصوتٍ مرتفعٍ بطريقة غنائيَّة بدويَّة كلما طرب، أو أراد التخفيف من توتّره.

***

2

ومما يَزيـدُ العيشَ إخْـلاقَ مَلبسٍ
تأسُّـفُ نفسٍ لم تطِـقْ ردَّ ذاهبِ!
المعرّي

اشتهر الشيباني عند زوار سوق واقف بأنه يحب الكتب حبًّا جنونيًّا، ويكره الشوكولاتة كرهًا مرَضيًّا. يعشق الكتب والببغاواتِ والشايَ الأخضر، ويضيق بالهواتف الذكيّة، والقطط، وأحاديث السياسة والحب. لكن الطابع الذي يعلق بأذهان زوار مكتبته هو ذلك الأنف ذو الأرنبة المنحنية إلى اليمين، وتلك الأسنان المفلجة، والأهداب الكثّة التي تخلع على منظره هيبة صارمة تنحلّ عندما يضحك ضحكته المجلجلة، التي لا يمكن توقّع أسبابها ومُثيراتها. فقد يضحك غضَبًا، وقد يضحك رضًى، وقد يضحك انزعاجًا، ومع ذلك لكلٍّ حالات من تلك الحالات ضحكة تميّزها.

تعوّد زواره على تكرار قولته بأنه يعيش بقدم في عالم الأحياء، وقدم أخرى مغروسة في عالم الأموات. يقضي يومه في المكتبة وليله في غرفة ضيّقة فوق المكتبة. فقد أورثته تجارب حياة لم تكن رفيقة به حالة من الحذر جعلته لا يحب الاختلاط بالناس، وقلّما يثق بغريب، فاقتصرت علاقاته على بعض الذين يأتون إلى المكتبة. وأورثته قراءاته الكثيرة المتنوّعة عادة النظر إلى الناس من خلال تشبيههم بشخصيات تسكن الكتب التي يقرأ.

قال مرة لبواب مصري يقف أمام بناية متهالكةٍ في شارع المطار:

- تعجبني شخصيتُك! إنها تشبه شخصية تاجر البندقية في مسرحية شكسبير!

ورفع فيه البواب المصري وجهه عاقدًا بين نواصيه:

- اِزاي يعني؟!

وقال مرة لنادلة مغربية في حي كتارا، وأراد مجاملتها:

- وجهك، وحزنك، يذكّراني بكوزيت في رواية البؤساء.

ظنّت أنه يوجّه لها إهانة، فطارت الصحون في الهواء، ولم يتخلّص من شتيمتها إلا بتدخل رجلٍ كان جالسًا في طرف المطعم يحلُّ الكلمات المتقاطعة. تدخّل الرًجل موضحًا لها أن التشبيه لا يتضمّن إهانة، بل في تضاعيفه مدحٌ لا ذمّ. وتحوّلت النادلة لاحقًا إلى زبونة للمكتبة، وانتهت الواقعة بأن أهداها الشيباني نسخة من رواية البؤساء كتب عليها بخطه: «إلى كوزيت المغربية...مع الودّ».

غير أن كثيرًا من زوّار مكتبته تعوّدوا على مزاجه وطريقته في الحديث، وغدا آخرون لا يأتون للمكتبة إلا سعيًا وراء ذلك المزاج، ولسماع حديثه الغريب وتعليقاته اللاذعة.

كان الشّيباني جالسًا إلى «المشرحة» في مكتبته التي يزداد زائروها في مثل هذه الساعة من مساءات الخميس. فالجو في الخارج معتدل، يميل إلى البرودة، وأزقّة السوق تفيض بالمشاة، ومطاعمُه ومقاهيه طافحة بالحياة اللّاهثة.

نظر من باب المكتبة متثائبًا، وهو يضع إصبعه بين أوراق كتاب كان يقرأه. تأمّل أوجه التشابه بينه وبين سوق واقف؛ فكلاهما ذكرى باهتة من عالَم أنهكه الدهر وخطوب السنين. رفع عينيه في أبنية السوق ذي

القسمات الطينية القابع على بعد خطوات من أمواج الخليج على شارع حمد الكبير.

يلتحف السوق جلبابَ التاريخ كذكرى من مدينة إسلامية قديمة. بناءٌ منخفض الارتفاع، تُظلِّل أطرافه سقائف، وتتراصّ الدكاكين في جنباته طولًا وعرضًا، وتشقّه أزقة ضيّقة مليئة بالمعروضات والمتسوّقين، والمتسكّعين.

نظر الشيباني إلى الشارع الذي يشق السوق، متأمّلًا الأرجل المختلفة على البلاط الرصاصي، مفكِّرا في آلاف البشر الذين مرّوا من هنا يوم كان المكان «وادي مْشَيرب» الرابط بين الخليج واليابسة. فعلى أطراف ذلك الوادي - الذي اندثر إلى الأبد - تشكّلت البذرة الأولى لسوق واقف، حيث كان الناس يزدحمون لبيع بضائعهم القادمة من أطراف الجزيرة العربية وشرق إفريقيا والهند وجنوب إيران.

في الزقاق المارِّ من أمام المكتبة، ترتمي مجموعةٌ من الشبان في أحضان مقاعد مقهى «أبي نواس». يجلسون خارجه على غير نظام، تُظلّلهم سحب الشيشة، ويلتقم كلٌّ منهم خرطومها بشفتيْه كطفلٍ رضيعٍ.

على بعد خطوات يقع قسم للشرطة، حيث يقف شرطي بالزي التقليدي؛ وعلى هامته كوفيّة وعقال، ويرتدي قميصًا وبنطلونًا تزينهما شارة «شرطة قطر»، وينهمك في مساعدة الداخلين والخارجين. على طول الزقاق، تتناثر المقاهي والمطاعم، وتنتشر روائح البخور والعطور، والدخان، والمشاوي الطازجة الممزوجة بنسمة من الهواء القادم من جهة الكورنيش.

يتميّز جو السوق في مثل هذه الساعة برائحة غريبة. مزيج من

الشيشة الرديئة والعطور المقلّدة التي تحمل أسماء باريزية، ورائحة المسك الزكي المختلط برائحة أجساد النساء، والمسك الرديء الثائر من أجسادٍ متعرّقةٍ تفوح برائحة البهارات والأبخرة المتنافرة. يختلط ذلك بنَفَسٍ من رطوبة البحر والقهوة والسجائر، مع بقية غبار صحراوي تسكن الجو.

كان السوق مزدحمًا لا يكاد المار في زقاقه الرئيسي، يشقّ الطريق وسط بحرٍ من المشاة تختلف سحناتهم وألوانهم وملابسهم اختلافًا بيّنًا. لكنَّ هذا الاختلاف يتحوّل في عين الناظر إلى وحدة متجانسة تنفي الاختلاف لتصبح طابعًا مميزًا لهوية واحدة مركبة.

في طرف الزقاق عند مطعم «باسم الله» تتمشّى فتيات سعوديات بخمرهن المعقودة وراء رؤوسهنّ، وأحذيتهن الرياضية المتخاصمة مع العباءات الطويلة والخمر المشدودة. تقف بمحاذاتهن فتاة أوروبية بتنّورة قصيرة وصدرية زهرية وذراعين عاريين، وهي تتحدّث مع شاب يرتدي ثوبًا تقليديًّا ناصع البياض. وعند طرف الزقاق المقابل مما يلي الدكاكين يتضاحك شبان فيليبينيون، بينما يمر حمّالٌ إيراني محدودب الظهر بصدرية عنابية يغني: «ساقى! ساقى! أى ساقى، بازْ مستمُ ودِيوونَه....!».

لا يدخل أحدٌ السوقَ في ساعة من ليل أو نهار إلا خيِّل إليه أنه في شيراز أو سمرقند قبل مئات السنين. غير أن الأضواء اللامعة والشاشات المثبتة في بعض المقاهي لعرض مباريات كرة القدم تُذكّره بأن المكان ينتمي لهذا العالم المبهرج.

أمام السوق بعد قهوة عشيرج، تجلس سيدات منقّبات يبعن الشطائر والقهوة والشاي، وهن يرقبن المارة تُلاعب الحمام القُمْريَّ في الساحة المطلّة على شارع حمد الكبير. أسراب من القمري بريشها الرمادي

الناعم، وقلاداتها الأنيقة، تلعب آمنةً كحمام الحرم المكي.

أخرج الشيباني كتابًا من صندوق ونفضه قائلًا لمحمود بلهجة لا مبالية:

- ضع هذا في سلّة المطلوبات، فقد طلبه خميس، وسيأتي مساء لأخذه.

ثم سكت كأنه لم يكمل الجملة، فالتفت إليه محمود:

- تقصد صاحبنا الشيخ خميس العبد الله؟

كان الشّيباني منحنيًا على كرتون الكتب، فرفع رأسه ونفض يديه من الغبار وقال:

- أنا لا أسمي أحدا شيخًا! هذه الألقاب التي يضعها المشارقة أمام أسماء المنشغلين بالدين هي من عادات المسيحيين أو الهندوس أو لا أدري من أين جاءت. فهي ليست من عادات العرب ولا المسلمين. وأنت تعرف أننا في بلدنا نادي أكثر علمائنا علمًا باسمه واسم أبيه، فنقول الحاج ولد فحفو، ويحظيه ولد عبد الودود، ومحمد ولد محمد سالم، ومحنض بابه ولد عبيد، والمختار ولد بونه.

ابتسم محمود، معيدًا نظرات عينيْه الضيّقتين إلى السلّة التي بين يديه، وانزلقت حبّة عرقٍ من أعلى هامته الكثة كغابة إفريقية حتى هبطت على حاجبه، وأكمل عمله في ترتيب الكتب التي طلبها خميس.

في هذه اللحظة وقبل أن يواصل الشيباني حديثه، دخل خميس، ماشيًا بتُؤَدَةٍ كأنه إوزّةٌ توشك أن تبيض. فبطنه الضخم يشدّه إلى الأمام، وأردافه المكتنزة تجذبه إلى الوراء، ورجلاه القويتان ترتطمان بالبلاط، وتنقلعان بهدوء كروبوت غير محكم الصنعة. كان خميس قد أصبح من أهم زبائن المكتبة، بل تحوّل إلى صديق للشيباني يزور المكتبة بانتظام

ويتحدّث معه ساعات طويلة.

يعمل خميس سمسار عقارات بين دول الخليج. وكان تربى دون رؤية أمّه التي توفيت أثناء وضعه، فربّته زوجة أبيه مع خمسة إخوة غير أشقاء.

كان تاجرًا ناجحًا، محبًا للسفر والمطاعم، وجمع الكتب، والكاميرات القديمة وخواتم الخطوبة وأحمر الشفاه. جاء إلى الدوحة قبل أشهر، لإنهاء بعض العقود، واستأجر غرفة في فندق بطرف سوق واقف.

اندفع الشيباني إلى خميس مسلِّمًا بحرارة، قدَّم له كرسيًّا، وهو يقول بلهجة بدويٍّ يستقبل ضيفًا:

– وخْيَرتْ ومرحبا! يا محمود، اذهب إلى المقهى وأسرع إلينا بشاي.

جلس خميس، متنفسًا بعمق – كمدمن تدخين – نفسًا آتيًا من جميع زوايا جسده. وتفقّد طرف غترته بيده، ومسح شفتيه الغليظتين بأصبعيه وقال:

– كيفك يا شنقيطي؟

– حمدًا لله.

– جهّزت لي الكتب؟

– نعم، جاهزة.

بعد لحظات كان محمود ينحني حاملًا الشاي قائلًا بلهجته الحسّانية:

– تفضّل، بسم الله!

قالها وهو يضع كأسين من الشاي السليماني بين يدي الشيباني وخميس. رشف خميس وقال:

- شاي طيب، لكن لمَ تضنُّون علينا بالشاي الأخضر الموريتاني؟

وضع الكوب على الطاولة التي أمامه وواصل:

- يُقولون شايكم طيبْ!

رفع الشيباني يده ومسح جبهته بحركة رشيقة وقال كأنه يتنفس:

- الشاي الأخضر، ليس مثل هذا الماء الساخن المصبوغ بالحمرة الذي تشربونه. يحتاج ليد صَنَاع وجوٍّ مساعدٍ، ومحمود كان مشغولّا اليوم.

كان الجو معتدلًا داخل المكتبة، ورائحة الشاي المخلوطة برائحة معطّر الهواء ذي النكهة الليمونيّة تملأ المكان. رفع خميس عينيه متأملًا نظام المكتبة المكونة من ثلاثة أجزاء. تحتل الرفوف الخمسة المستطيلة القسم الأكبر، ثم تأتي مساحة بثلاثة أمتار فيها الطاولة الدائرية الحمراء، يليها النضد الذي يجلس وراءه الشيباني، وأمامه ثلاثة كَراسٍ.

ابتسم خميس، محملقًا في رفوف الكتب:

- عندك كتب جديدة للشيخ ربيع؟

وضع الشيباني الكأس قائلًا:

- تقصد ربيع جابر - الروائي اللبناني - هل أصبح شيخاً؟

حرّك خميس حدقتيْه - كقردٍ اختُطفتْ من يده موزة كان يحملها - وقال بلهجة احتجاج:

- الله هداكْ، ما تقولْ إنك ما تعرف الشيخ ربيع بعد؟

- لا أذكره، أخبرني مَنْ تقصد.

- الشيخ ربيع المدخلي!

- لا أعرفه.

كان خميس مولعًا بجمع الكتب، لكنه لا يقرأها. لا يصبر عن شراء كتاب، لكنه ما إن يشتريه حتى يفقد بريقَه في عينيه. فعلاقته بالكتب علاقة شهوة وتسوّق، لا علاقة قراءة وتذوّق.

وقطع حديثهما دخول شاب مرتبكًا سائلًا عن «مقدمة ابن خلدون». فالتفت إليه خميس:

- وما قيمة ذلك الكتاب يا بني، وماذا تريد به؟ هذه المكتبة مليئة بكتب العلماء والعقيدة، فلمَ تقفزُ على مثل تلك الكتب؟

واحمرّ وجه الشاب الذي يبدو من سنّه أنه في السنة الأخيرة من الثانوية، فجاء صوت الشيباني:

- يا أهلًا وسهلًا، نعم، موجود.

ونادى محمودًا، وطلب منه الكتاب فأتى به بقفزة واحدة. أخذ الشاب الكتاب ودفع ثلاثين ريالًا، ورمى الكتاب في كيس بيده.

قال الشيباني للزبون:

- هذه طبعة جيدة. إنها مقدمة ابن خلدون بتحقيق شبُّوح! وهو تحقيق ممتاز.

والتفت إلى خميس، وقال وهو يحكّ رأسه ساخرًا:

- هذا الشاب يقفز إلى عالم ابن خلدون، وبعض الناس يتقهقرون لإحياء خلافات الفرق الكلامية المنقرضة!

انتابت خميسًا موجة غضب، وقمع كلمة كادت تفلت من بين أسنانه. ولم يستطع السكوت فقال:

- اتَّقِ الله يا رجل!

وقف الشيباني واضعًا يديه وراء ظهره، ومشى وهو يتحدّث كمحقّق هوليودي رافعًا عينيه ووجهه في السقف:

- لنفترضْ - زورًا وبهتانًا - أن في المقدمة شرًّا. ألم يكن حذيفة بن اليمان يسأل الرسول صلّى الله عليه وسلم عن الشر، وكان الناس يسألونه عن الخير؟

- إيه، بس ذاك حذيفة!

- والله لا ندري ماذا نفعل معكم. إن حثثتمونا على فعل، قلتم افعلوه لأن الصحابة فعلوه، وإن فعلنا فعلًا من أفعال الصحابة لا يعجبكم قلتم أولئك الصحابة، لا تفعلوا فعلهم وتأسّوا بالرسول فقط!

وبعد نقاش طويل طلب خميس نسخة من «كتاب التوحيد» لمحمد بن عبد الوهاب بشرح الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ، وراح يقلّب فيها كأنه يبحث عن حجة، لكن البحث طال داخل الكتاب. ضجر الشيباني فانتهز انشغال خميس ومشى ووقف أمام الباب يرقب أجواء السوق.

تسمّر مرسلًا نظره مع الزقاق الذي يبدأ من أمام مكتبته مقابل مخفر الشرطة، ثم ينحرف إلى الشمال قليلًا ليصل إلى قهوة عشيرج المشرعة على ساحة واسعة يمكن للواقف فيها مراقبة مياه الخليج.

نظر إلى الزقاق المكتظ بالرائحين والغادين، فوقعت عيناه على رجل خمسيني يمشي كأنه نائم، وإلى جانبه أمّ تجر وراءها خمسة أطفال كبقرة مزرعة. أرسل بصره يمينًا مع الممرّ متأمِّلًا المقاعد المتناثرة أمام مقهى «ليالي القاهرة» وسُحُب الدخان المختلطة، والشبان الجالسين وقد اعتصم كل منهم بخرطوم شيشته كطوق نجاة في بحر بشري متلاطم.

بدا السوق مزدحمًا - كما العادة في مثل هذه الساعة - ولاحظ الشيباني اختلاف اللغات واللهجات التي تصل إلى أذنيه على غير نظام. خطر له أن يحاول تكوين جمل مفيدة من أحاديث المارة.

أصخى السمع، فمرت فتاة سورية تقول:

- ولما وصلنا، كان قد رحل.

وسمع رجلًا بدينًا محايد الملامح يقول:

- هذا أمر مستحيل!

وجاء صوت فيليبينية تقول كلاماً لم يفهمه.

ولمح شابًّا أجنبيًّا يحدّث رفيقته، ولم يفهم من كلامه سوى كلمة:

- Incredible.

وخطر له أن هذه هي الحياة في هذه البلاد التي باتت ملتقى لأجناس وشعوب كثيرة؛ جملٌ مبعثرة لا رابط منطقيًّا بينها، وأقدارٌ تأخذ الناس في شِعابٍ مختلفة، ولغات قلقةٌ متحوّلة إلى لهجاتٍ جديدةٍ، وشعوبٍ وقبائل متباعدةِ النوازع والغايات والرغبات والأماني رغم التقارب الحسّي بينها.

وعاد إلى الداخل تلبية لنداء خميس الذي كان وجهه متهلّلاً كأنه وجد ضالته، وأكمل الحديث كأنه لم ينقطع:

- أنا لا أدري بأي معنى يقول الله تعالى عن نفسه: «الرحمن على العرش استوى!». ثم يأتي الأشاعرة وينفون الدلالة الظاهرة المُحكمة للآية!

- لا ننفيها معاذ الله، بل نفهمها كما تفهمها العرب على سليقتها. فـ«استوى على العرش» تعني أنه قادر عليه ومالك له. وهذا أسلوب عربي دارج، والقرآن نصٌّ عربيٌّ، وأنت لا تستطيع إخراجه عن

مواضعات اللغة وشراكها.

وأعجب الشيباني بالعبارات التي تفوّه بها، فجلس على الكرسي وسدّد نظراته إلى خميس قائلًا وهو يضم سبابته لإبهامه، وكرّر:

- وللّغة شراك!

قال خميس بلهجة واثقة ضاغطًا على مخرج كل حرف:

- إذا كانت «استوى بمعنى «استولى» - كما تقولون - فهذا يعني أن العرش لم يكن تحت سلطانه، وأنتم تحتجّون عادة بذلك البيت... وِشْ هو؟ أقصد البيت..

وجاء صوت الشيباني بصيغة تشَفٍّ:

- قد استوى بِشْرٌ على العراقِ من غير سيفٍ أو دمٍ مِهراقِ!

فقال خميس بنبرة المنتصر:

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية إن هذا بيت مجهول قائله!

- - وهل كلّ ما يقوله ابن تيمية يصبح الحقَّ حصرًا؟

كانت يد خميس لا تكفّ عن القفز بين مقدمة رأسه لتعديل الغترة، والاستقرارِ على ركبته المكتنزة. ثم رفع يده ومسح طرف جفنه وهو يقول بانزعاج، مشيحًا بوجهه جهة الباب:

- الله هداك، متى سترى الحقَّ حقًّا!

- الله يهدينا كلّنا، وماذا أنت فاعل لو صدر أمر من ولي الأمر بتغيير العقيدة التي تؤمن بها؟!

ابتسم خميس ملاحظًا خبث تعليق صاحبه. فرفع عينيه وقال:

- أصبحتَ تتكلّم في السياسة يا شنقيطي؟

- لا، حديثي في صلب العقيدة...! ولو كان لي من الأمر شيء

لوضعت على باب المكتبة شعارًا يقول: يمنع دخول الساسة والوهّابية!

سكت الاثنان. وانكتمت الأصوات داخل المكتبة، ولم يُسمع إلا صوت ضجيج كلمات شاردة من الشارع.

شعر الشيباني بالملل من النّقاش، فوقف وراء النضد، متظاهرًا بأن لديه انشغالات. ثم تذكّر أنه لم ير زبونًا خلال الساعة الماضية كلّها. نادى محمودًا:

– عندي فكرة يا محمود!

– أهيهْ!

– ألا ترى أن المطاعم تُوقِف مندوبيها على الزقاق هناك، ليقنعوا المارة بأطعمتهم وأسماء وجباتهم ليدخلوا؟

– نعم.

– أنا أفكّر في القيام بالخطوة ذاتها. أقف هناك، وبيدي ورقة وأمسك كل مار بالشارع وأقول مثلًا: فتح الباري لابن حجر العسقلاني بثلاثمائة ريال! مئة عام من العزلة لغابرييل ماركيز بأربعين ريالًا.

وضحك خميس ضحكة متكلّفة محاولًا إشعار الشيباني بأن النقاش لم يفسد ما في النفوس. ثم قال:

– لا تتعب نفسك، لدى هؤلاء قانون البطون قبل العقول!

كان الشيباني جادًّا كلَّ الجدِّ. كان منشغلًا بإيجاد طريقة لتنشيط البيع في المكتبة. فشعر بهَمٍّ وعزمٍ في آن، وتساءل هل سيأتي اليوم الذي يتحقّق فيه حلمه بأن تتقدّم مائدة الكتب على مائدة الأكل، أو تصبح المكتبة موجودة في كل بيت كسفرة الطعام. قفز من وراء النضد برشاقة هرّ، وأمسك أول كتابين عن يمينه وخرج.

وقف وسط الزقاق الطويل الذي يشق السوق كله، فلفحتْه رائحة

الشيشة المختلطة بأنواع الأطعمة والحلويات والتبغ والعطور. ورأى الشبّان الجالسين بتكاسلٍ على مقاعدهم تحت ضباب الشيشة، فتخيّلهم مخلوقات ممسوخة.

انحرف قليلًا عن باب المكتبة ووقف وسط زقاق السوق، رافعًا يديه بالكتابين، وبدأ يصيح:

- كتب! كتب!

حدّجته عيون بعض المارة دون أن يقترب منه أحد. مرّ من أمامه رجل ضخم المنكبين، قصير الظهر يدفع عربة طفل، فتقدّم نحوه وقال:

- هذه طبعة نادرة لديوان «جناح جبريل» بعشرين ريالًا فقط!

وقف الرجل، مُصعِدًا ومُنزلًا نظراته فيه، ثم قال بلكنة مصرية ساخرة:

- ده لو كان جبريل كلّه، ما دفعت فيه عشرة ريالات، فكيف بجناحه فقط؟ جناح إيه يا عميّ؟!

وابتعد يدفع العربةَ بيد ويحرّك الأخرى في الهواء احتجاجًا وانزعاجًا. وشعر الشيباني بضيق من عدم التفات الناس له ولو من باب الفضول! كان محبَطاً يفكِّر ماذا سيكون ردُّ النّاس لو كان ما بيده أكياس من الأرز أو البندورة. فوجد نفسه يصرخ:

- بندورة! بندورة!

والتفتت الرؤوس من وسط الزقاق جهة الصوت، فتمتم الشيباني:

- شاهتِ الوجوه!

اقترب منه أربعيني سوداني:

- وين البدورة يا أخينا، ما شايفْ بندورة، شايف كتب!

دفع الشيباني الكتابين نحوه وهو يقول:

– وأنتم تنافسون العراقيين على مقولة أن بيروت تطبع والخرطوم تقرأ!

– عليك الله ورّيني الكتاب ده!

مد الشيباني الكتابين متأفِّفًا. انتزع السوداني نظارتين دائريتي الإطار من جيبه، وألصقهما على عينيه وقال:

– يا أخينا، هذان الكتابان عندي بصيغة بي. دي. أف. مشكلتكم أنكم مثل من يفتح هاتفًا عموميًّا في عصر الواتسابْ والبُرُد الإلكترونية، ويتوقّع من الناس أن يتركوا هواتفهم ليتّصلوا من عنده.

برقت عينا الشيباني:

– يا سلاااام! ماذا قلت؟ «البُرُدُ الإلكترونية»؟!

– نعم، وما الضير؟

نطقها الشيباني بتفاصح كأنّه يُجوِّدها تجويدًا:

– لن أتركَكَ حتى تشربَ عندي شايا شنقيطياً مُعتَّقاً، فما كنتُ إخَالُ في الناس اليومَ من يجمعُ بريدا على بُرُدٍ!

ضحك السوداني منحنيًا إلى الخلف، متعّهدًا بأن يعود لشرب الشاي يومًا آخر. وأعاد نظارتيْه إلى جيبه، رافعًا وجهه إلى اللافتة المعلّقة: «مكتبة الشنقيطي»، وقال:

– إخواننا الشناقيط يحبّون العربية حبًّا جمًّا!

– والشناقيط يحبّون السودانيين حبًّا جمًّا.

– الله يسلّمك، ما تعارفنا.

– الداه ولد المختار ولد الشيباني

مد السوداني يده بلهفة باسمًا:

– الموريتانيون نصّهم «مختار» والنصّ التاني «محمد».. ليش أسماؤكم متشابهة كده؟

ثم أكمل بلهجة جادّة:

– أخوك الدكتور بابكر دفع الله.

ضغط الشيباني على كف دفع الله قائلًا:

– لما نلتقي المرة القادمة أشرح لك لماذا نقوم بعمليات تكرير وإعادة إنتاج لأسمائنا.

عاد الشيباني إلى المكتبة، وتلقّته نظرات خميس ومحمود ملاحظيْن فشل مهمته التسويقية. وضع الكتابيْن على الطاولة المستطيلة بانزعاج، فجاءه صوت خميس:

– ما حدا من هؤلاء الذين تراهم يتراكضون في هذه الأسوق يهتم بالكتب. فهموم إطعام أولادهم، وإرضاء زوجاتهم تسحقهم. صارت الكتب من الكماليات، أو لملء أوقات الفراغ عند الذين يملكون كفايتهم من المال كما هو حالي. ولا بد أنك تلاحظ أن غالبية القرّاء اليوم من النساء. فتيات تتوفّر لهنّ أوضاع مالية مريحة، أو متزوجات لا يعملن ويعشن رفاهية الرغبة في التزيي بزي المثقّفات.

– – بل هنّ مثقّفات فعلاً. وهذا ما ألمسه من زبونات المكتبة. إنهن يسألن عن الجديد ولديهنّ معرفة بالمترجمين والمحقّقين! يميّزن من يمكن الوثوق بعمله.

سكت الشيباني قليلًا ثم أردف بلهجة تأمّلية:

– إن التحوّل الذي يحصل بهذا الخصوص مدهش في مجتمع مغلق.

في أثناء ذلك اقتحمت مجموعة من الفتيات المكتبة، بعباءاتهن المطرزة، وضحكاتهن الموزونة، ونظراتهن المزاوجة بين الخجل المنقبض، والفضول الجامح، والاستعراض المُغوِي. كنّ في المكتبة كما لو أنهنّ في مكان يمنحهنّ حرّية خاصّة.

قفز الشيباني لمساعدتهن، بينما تجمّعت كل العطور الفائحة من أطرافهن لتستقر في منخرَيْ خميس. سكن جامدًا على كرسيّه كراهبٍ بوذي يقترب من ذِروة اليوغا، غير أن أنفه الإسفنجي كان يسافر في أطراف المكان، وحدَقَتا عينيه تضطربان كأنهما مرْكُوزَتانِ فوق زئبق.

- أبي ها الكتاب!

قالت إحداهن، وهي تشير ببنان رخص، شديد البياض، مُشرَئِبٍ من طرف عباءة حالكة السواد. ولم يفلت المنظرُ من حِبالةِ عينيْ خميس، بل نظر إلى الإصبع عشرات المرات في ثوانٍ معدودات.

لاحظ محمود فضول خميس، فقام - بمكرٍ - ووقف في مكان يحجب النظر بينه وبين الفتيات وتحوّلت أكتافه العريضة إلى سد منيع تحجب خميسًا عن رؤيتهن. وتمتم محمود بلهجته الحسانية:

- يطيركْ كَهلْ ما أضلّكْ!

لكنَّ خميسًا تنحنح ودار من وراء الرفوف كأنه يبحث عن كتاب. وقف في طرف زاوية المكتبة وأمسك كتاب «الكبائر» للذهبي، واستدار حتى أصبح ينظر إلى الفتيات نظرة مريحة، ووضع الكتاب قبالة وجهه متظاهرًا بقراءته.

وما إن خرجت الفتيات محمّلات بغالبية الكتب الجديدة التي وصلت، حتى قال خميس وهو يلتفت إلى الباب:

- يا حْلَيلْهِنْ! يا حليلهنْ! كأنهن سمعن أحاديثنا عنهن.

حدّجه محمود بنظرة خالية من التقدير، وعاد الشيباني ليجلس وراء النضد صامتاً.

أضاف خميس وهو يعود إلى كرسيه:

- الله لا يحرمنا من ها الخيرْ!

انقبض الشيباني، فبدت خِيلانٌ في وجنته السمراء لا تبدو إلا إذا غضب أو خاف. وقال بانزعاج:

- كيف تُحرَمُ وأنت متزوج من أربع، وحبالك موصولةٌ ببقية نساء العالم؟!

ضحك خميس ضحكة حائرة بين الانزعاج والاستظراف. فمع كون علاقته بالشيباني لم يمرّ عليها أكثر من شهر، فإنه لم يجد حرَجًا في المزحة الحارقة. رفع يده ولعب بطرف غترته وقال:

- الزيادة من الخير، خير يا شنقيطي!

رفع الشيباني رجلًا ووضعها على أختها، وضم أطراف دراعته كمن يتّقي البرد، وهو لا يكاد يتخيّل القدرة الفائقة لهذا الكائن الغريب المتربّع بين يديه. فكيف تمكّن من إدارة العلاقة بأربع نساء؟!

نظر الشيباني إلى بطن خميس المنتفخ وسأله:

- يخيَّل إليَّ أحيانًا أن حياتك كلّها تدور حول المرأة! لم لا تتحول إلى ناشط نسوي؟ أو فيمينسيتْ كما يقول الببغائيون!

- بل أرى أن المرأة إذا أخذت طريقًا أخذ الخير طريقًا آخر. خيرها أنها تمتّع الرجل وتلد النسل.

نظر الشيباني نحو خميس وهو يحرّك رأسه يمنة ويسرة منزعجًا:

- يا أخي ماذا أنت فاعلٌ بهذا الدين؟ ألم تقرأ أو تسمع ما قاله النبي

عن المرأة؟

تغيرت ملامح خميس، وانطفأ ذلك البريق الذي كان في عينيه وقال بهدوء:

– يا أخي أنا ما قلت شيء. بس المرأة كائن غبيّ وبليد!

– كيف؟

– شوف، أما غباؤها فهي منذ فجر الخليقة مرابطة في المطبخ، لكن أفضل الطباخين في العالم رجال. ومنذ بدء الخليقة وهي عاكفة تخيط الملابس، لكن أفضل مصممي الملابس الآن رجال! وبليدة لأن المجالات التي تحتكرها مجالات تحتاج للبلادة لا للصبر، وللتحمل البليد لا للصبر الواعي.

– يا أخي، إن المرأة هي أجمل لوحة في الدنيا، فكيف تقول عنها هذا؟

– يعني... مهنة التمريض، ومهنة إنجاب الأطفال! هذه مهن تنجزها المرأة لبلادة حسها، لا لكونها صابرة وواعية!

عدل خميس غترته على هامته ثم قال:

– ولكن... مع ذلك لا قيمة لعالم لا نساء فيه؟

ودخلت سيدة إلى المكتبة، فقام الشيباني مرحّباً؛ فهي زبونة دائمة للمكتبة. كانت مرّت قبل أسبوع وأخبرها الشيباني أن شحنة كتب جديدة ستصله، فجاءت لترى الجديد.

انهمك الشيباني يعرض لها الكتب واحدًا تلو الآخر، وكانت تعلّق مدحًا أو نقدًا. أثناء ذلك خطر للشيباني أن يختبرها أمام خميس ليريه بعض مهاراتها، فسألها:

– كيف عرفتِ مضامين كل هذه الكتب لتحكمي على كل مؤلف

هذه الأحكام الدقيقة؟

ارتبكت المرأة قليلًا من السؤال المفاجئ، ملاحظة ارتفاع صوت الشيباني على غير عادته، ثم قالت:

– أتابع ما يصدر عن دور نشر معينة، ثم أقرأ تعليقات قراء أثق بهم، ولا أسمح للناشرين بإطعامي أعلافَهم على غير بصيرة.

وعندما خرجت التفت الشيباني إلى خميس وقال ساخرًا:

– ما رأيك، هل تراها شرّاً؟

لم يعلّق خميس، بل تشاغل بتعديل غترته على مقدّمة هامته. وخطر للشيباني أن صديقه لم ينظر لتلك المرأة نظرته المعتادة للنساء.

وشرد ذهن الشيباني مستغربًا كيف اتّسع قلب خميس لأربع نسوة، وتجارة، وعشرة أطفال موزّعين بين ثلاثة بلدان. انتبه خميس إلى نظرات الشيباني، فحرّك رقبته كأنه يروّضها وقال:

– ترى الحياة ما فيها شيء يستاهلْ إلا الحريم!

ودوَّت ضحكة الشيباني الطفولية وهو يقول:

– كل النساء في عينيك ليلى في عيني قيس بن الملوح، وبثينة في عيني جميل!

سكت قليلًا ثم واصل بجديةٍ مُغضِّنًا جبهتَه كأنه تذكّر أمرًا:

– أتعرف كيف ينظر قيس لليلاه؟ وكيف يتخيّلها؟

قاطعه خميس متضجرًا رافعًا يديْه:

– يا أخي ما يصير! كل شوي وتقول قال لي مجنون ليلى! خليك من ها السوالف، وخليك مع الناس!

– عادي يا أخي!

- لا، ليس عاديًّا. متى تعيش بين الناس؟! وما دمت تتحدّث عن النساء بهذا التقدير، وحافظ كل ها الأشعار ليش ما تتزوّج؟

كانت تلك الجملة بمثابة يدٍ شيطانيةٍ امتدتْ لانتزاع غطاء بئر من مكنونات الشيباني وآلامه، فتقافزتْ منها الشياطين ضاحكةً ساخرة. سافر خيال الشيباني مستعيدًا تفاصيل ذلك المساء الخريفي في الجنوب الشرقي لموريتانيا.... يوم تغير كل شيء... يوم أصبح يعيش على الحافّة بين الواقع والخيال.

***

3

لو حاورتْكَ الضــأنُ قال حصيفُها

الذئــبُ يظلــمُ... وابــنُ آدمَ أظلمُ!

المعرِّي

بدت الشمسُ دفينةً في أفق لازورديٍّ وهي تودّع القريةَ الوادعة المتواريةَ عن عين التاريخ الناعسة. تتناثر بيوتُ قرية الكُدْية في سفح جبل بعد أن اختطّتْها الجداتُ البدوياتُ على عجل، وهن ينزلن عن جِمالهن قادمات من جبال تكانت. ظهر كل شيء فيها وكأنه مؤقتٌ، أو صُنع للاستخدام مرة واحدة. بدءًا بالمسجد الصغير غير المفروش، المجاور لمَراحِ الإبل، إلى المدرسة الخالية من الكراسي، إلى الشوارع التي تبدأ دون منطق، وتتعرّج بلا معيار، وتتوقّف من دون سبب.

كان الشيباني طفلًا يلعب مع رفاقه في فناء واسع، فمرَّ بهم مجذوبٌ معروفٌ باسم الدَّناني. كان كاهله ينوء الدهرَ بأحمالٍ من الملابس المهترئة، وقناني الكوكاكولا الفارغة، وهياكل رؤوس الكباش، والخبز اليابس. وكانت قرية الكدية والقرى المجاورة لها تتّقي فلتاتِ لسانه وتنتظرها في آن.

فهو لا يتنبّأ بأمر إلا وقع، ولا يُنذر ببلاء إلا نزل حالًا. وكانت الفتيات يطاردنه – وأيديهن على صدورهن – خوفًا ورجاءً. فأي كلمة تَنِدُّ من بين شفتيه المسودّتيْن تتحوّل إلى نبوءة لا يشك فيها أحد. فكل أهل القرية يذكرون أنه هو من تنبّأ بأن ميمونة لن تتزوج، فقد قال لها

قبل أعوام عندما رآها جالسة على طرف البئر تمْتَحُ ماءً:

- ابحثي في البئر، فلن تجدي زوجًا على ظهر الأرض!

وما زالت ميمونة قعيدةَ بيت أبيها، وصديقاتُها وأخواتها يتقلّبن في فرش الزوجية الوثيرة.

وضع الدَّناني أحمالَه عن ظهره، ووقف متأمِّلًا الشيباني. ردّد حدقتَيْه الكبيرتين بين قفصه الصدري العاري، والتمائم الجلدية التي تعلو تَرْقُوَّتَه، وجمجمتَه الكبيرة، وأسنانه التي تشبه أسنان جدته. وطفقتْ عيونُ الصبية تدور بين الشيباني والدناني في انتظار ما سيقول.

وقف الدَّناني قليلًا، وهو يُمرّر لسانه على شفتيه كأنه يهمُّ بكلام، ثم انحنى وأخذ أحماله وأعادها إلى كتفه وولّى مدبرًا. وبعد خطوات توقّف كأنه نسي أمرًا. حكَّ فكه الأسفل بيده وأدار وجهه ونظر إلى الشيباني قائلًا بلهجة مشفقة:

- أوه، يا وليْدي! ستموت ميتةً عجيبة... ستقتلك امرأة!

اتسعت عيون الأطفال خوفًا ودهشة. فالمرأة عندهم إنما هي أمٌّ تضرب أو جدة تُعنّف. وضحكوا ضحكًا مشوبًا بوَجَل، وهم يتفرّقون كلٌّ في طريق وقد أخافتهم تصرّفات الدنّاني خاصّة أَن الوقت وقت الغروب، وهو وقت حركة الشياطين، وتخطّفها للأطفال. فكل واحد من الأطفال يذكر قصة صديقهم محمد الأمين، ذلك الطفل الذي ضربه جنّيٌّ قبل أسبوع فاعوَجَّ وجهُه وما زال أهله يعالجونه بالتعاويذ والصمغ العربي، وما زال ممنوعًا من اللعب مع رفاقه. واختفى الدَّناني وراء كثيب وهو يغنِّي بصوتٍ مرعبٍ:

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها أَلْفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ!

ابتلع الظلام الدامسُ القريةَ، فمعظم أبنائها لا يستطيعون تصوّر

مدينة بكهرباء، بل يسمعون عن ذلك في مرويّات الزوّار القادمين من مدن بعيدة كبرى مثل نواكشوط... يروى أن نساءها يسقن الشاحنات، ويأكل سكانها حيواناتِ البحر النتنة، وتتعرّى شوارعُ تلك المدن تحت المصابيح كل ليلة.

أما هنا فأغلب البيوت مُسيّجة بسياج حديدي كاشف، والبيوتُ الطينية غير مناسبة للمبيت في ليالي الخريف والصيف الحارّة، مما يجعل الظلام ضروريًّا لنمط الحياة، ويجعل الليلَ لباسًا ساترًا.

وظلام القرية شبيه بظلمة الأرحام، حيث يُتوقّع اختباء أي خلق، وانبجاسُ أي كائن ما في أي لحظة. ففي ظلامها تجول العفاريت في الحواري لتختبئ في منعرجات الشوارع، وعند المقصب، وفي أماكن سفك دماء الحيوانات، ومواقع رمي المُشَاقَة.

كان الليل قد حلّ عندما عاد الشيباني إلى بيته يتحسّس وجهه خوفًا من صفعة جنّي. ولم يكد يسمع انتهاء صلاة العشاء حتى جاء رفيقه عبد الرحمن راكضًا:

- الشيباني! تعال، فقد جاء أهلُ الفَيْضة!

ركضا ولم يدخلا من باب الحائط، بل قفزا - كعادتهما - من فوقه، فإذا بنصف سكّان الحي داخل منزل أهل داود. كان الشيخ الأمين يجلس على سريرٍ خشبيٍّ ضخمٍ، وبيده مسبحةٌ صفراءُ، طويلة. همستْ فتاة قرب الشيخ في أذن صديقاتها وهي تشير إلى يد الشيخ:

- إن أي عانس تلمس تلك المسبحة ستتزوج أو تلحق سريعًا بالشيوخ في الآخرة.

كان الشيخ الأمين يتحرّك في القرى عادة مع كتيبة من خمس عشرة امرأة وعشرة رجال من المجاذيب. لكنه جاء هذ المرة مع ما يربو على

خمسين شخصًا معظمهم نساء. وقد تعوّدت القرية على زيارات هذا النمط من المجاذيب. يأتون جماعات، يأكلون ما تيسّر من قدور الأسر دون إذن، ويأكلون أوراق الشجر، ويتصرّفون تصرّفات غير مألوفة ولا مقبولة من غيرهم. ويغنّون بأصوات مرتفعة، ويتلفّظون بألفاظ نابية.. كل ذلك تحت تأثير الوجد الصوفي.

في أجواء الصمت التي تغلّف القريةَ بدا الشيخ الأمينُ في دراعته وعمامته البيضاويْن طيفًا فردوسيًّا ضلَّ طريقه. كان أهل القرية يتجمّعون ويجلسون بصمت. وعندما بدا أن اجتماعهم قد اكتمل، ارتفعت الأصوات بالأذكار الشجيّة، وكان الأمين يرفع يديه إلى السماء وينشد أشعارًا صوفية منفردًا، ثم ينزلهما فتندفع النساء ينشدن ويغنين غناء مشجيًّا حارقًا.

وقف الشيباني يرقب الشيخ الأمين بكل حواسّه، وهو يشعر بسعادة غامرة. فأطفال القرية يحتفلون بأي طارئ يكسر رتابة الحياة؛ من زيارة شخصيّة معروفة، إلى بعثات وزارة الصحة لتطعيم الأطفال، إلى مرور بعض الرحّالة، إلى عبور الدرّاجات في سباق رالي داكار. وتضاعفت سعادته عندما رأى إحدى الجداتِ المعروفة بالرزانة تصفّق، ثمّ تتحرّك لتندمج في الرقص كاشفةً عن ساقيها اليابستين، وتتلفّظ بألفاظ نابية. انتابتْه موجةٌ من الضحك حتى التفت إليه الشيخ ناظرًا إليه شزرًا، فانقبض.

استلَّ الشيباني يده النحيلة المتّسخة من يد صديقه وتسلّل مقتربًا من الشيخ وسط الناس. بقي متسمرًا، مشدوهًا، فاغرًا فاه، متشبِّثًا بطرف عمود العريش، لا يحوّل نظره عن يديّ الشيخ البيضاوين المكتنزتين وهما تدوران في الفضاء؛ وعيناه تزوغان كلّما رفع صوته، بينما تصيبه الدهشة من النسوة اللائي يغنين ويبكين ويشهقن ويذكرن اللهَ،

متلفظاتٍ بكلمات غريبة.

أدار عينيه في الدراويش والمتفرّجين، فلم يكد يفقد أيًّا من أهل القرية. حتى إنه رأى «النانة» واضعةً يديها على حِقْوَيها، وهي المرأة التي يشهد لها أهل القرية بـحرارة العين. فكم سال من دماء أهل القرية بين شفتيها الغليظتين، وعينيها الحمراوين وأسنانها الصلبة، والغريب أنها تقف قرب مريم، قابلة الحي، تلك السيدة السليطة اللسان التي لا تخاف من شيء خوفها من العين. فقد أقسمت مرةً – أمام النساء وهن يستقين من بئر الحي – أن وفاة زوجها إنما كانت لأن النانة ضربته بعين ساخنة وبنظرة واحدة حين رأته خارجًا من الحمام، ونصف جسده عار.

خُيّل للشيباني أنه رأى أشهر مجانين المنطقة كلها – الذي يناديه الأطفال قَرْقَرْ والي – يقف فاغرًا فاه في طرف مجلس الفيضة دون أن يلحظ أحد حضوره. رآه بدراعته الممزّقة، وشعره الثائر، وعلى كتفيه قربة، ويمارس رياضته المفضلة بإزالة مُخاطه بطرف لسانه.

كان كل ذلك في صعيد واحد، في حائط أهل داود. لكنّ الكلّ غافل عن الكل بسبب الصخب وأجواء الوجد الصوفي والفيضة المُفْنية.

مرّ الوقت سريعًا، وطلع القمر بدرًا صافيًا، نذيرًا بحدثٍ كونيٍّ وشيك.

وهبت نسائم باردةٌ آتية من جهة المراعي الغافية شمال القرية، تحمل رائحة العشب المبلّل والغبار الصحراوي. وسكت الشيخ الأمينُ سكوتًا مفاجئًا عن الإنشاد، فانحبست الأنفاس، وتابعته العيون وهو ينظر إلى السماء كأنه يستمطر عذابًا، أو رحمة سرمديين:

– الله! الله! الله!

كنَّ يكرّرنها بصيغة موقَّعة وبصوت واحد مليء بالوجد. صوتٌ

مترعٌ بالرغبات المخنوقة، والشوق إلى المجهول، والحزن على الماضي الهارب، والأمنياتِ التي ذبُلَتْ ولمّا تنبت لها أجنحة.

رفع الأمين وجهه الأبيض المكتنز إلى السماء، وحرّك يديه في الفضاء، واندفع يغنّي كأنه هاتف سماوي:

تقول نساءُ الحيِّ تطمعُ أنْ ترى بعينيكَ ليلى؟ مُتْ بِداءِ المطامِعِ!

فكيف ترى ليلى بعينٍ ترى بها سواها، وما طهَّرْتَها بالمدامعِ؟!

ضج المكان بالصراخ، وانقلبتْ سيدةٌ بدينةٌ على رأسها. واندفع شاب ملقيًا نفسَه أمام الشيخ وهو يتمرّغ تمرُّغَ ديكٍ ذبيحٍ. واندفعت أجمل فتاة في الحي ودخلت وسط الناس تدور محرِّكةً رأسها وهي تصرخ:

- يا ويلي! ويلي، يا ويلي، ويلي!

- وصاحت أمها بسعادة عقيمٍ رُزقتْ مولودًا:

- لقد فُتح على ابنتي!

قالتها وهي ما تزال واقفةً قرب النانة المعيانة.

استغرقت اللحظة الشيباني، فقفز ليجلس قرب الشيخ، فنهرته امرأة - رآها تصرخ قبل أسابيع، وقطعةُ لحمٍ تخرجُ من بين فخذيْها باكية - قائلة:

- لا تنحرق! النورْ يحرق!

واختلطت أصوات الذكر والأنين برهة. ثم هدأتِ الأصوات في القرية الوادعة. وبدا القمر في الأفق شاحب اللون ذابلاً كأنما أجهده السهر.

انتابت الجميعَ ساعة تعب... فانخفضت أصواتٌ، وارتخت ألسنةٌ،

وسكنت أيدٍ عن التصفيق... حتى الشيخ الأمين نزع عمامته ووضعها على وسادته، فظهرت أشعة القمر منعكسة على صلعته.

غير أن صوتًا منكرًا جاء من جهة منزل مجاور. جاءت سيدة بدينة تركض صارخة:

- بنتي! بنتي! الحقوا بنتي!

وبعد لحظات جاء رجلان يحملان فتاة في لحاف وهي تركلهما برجليها ويديها صارخة. وضعت الفتاة البيضاء بين يدي الشيخ، فصاحت أمها:

- حجَّبْ عليها!

اعتدل الشيخ وأخذ عمامته ووضعها على صدرها. فسكنت... وترامق الجميع تحت ضوء القمر اندهاشًا. ثم صرخت الفتاة صرخة منكرة.

تمتم الشيخ في أذن أخيها قائلًا:

- هذي مسْلولة!

قالها ورفع وجهه إلى السماء وكأنه يستمطر بقية الخبر. عاد وقال بهدوء:

- المرأة التي سحرتها عجوز تكثر استعمال الملوِّنات!

وانطلق أخو الفتاة كالسهم. قفز من فوق الحائط، وقطع مراح البقر، فجفلت أبقارٌ كانت رابضة قرب زاوية الحائط. ودخل الشاب القصير القوي البنية على منزل أهل الداه. كانت العجوز العمياء جالسة تصلّي على حصير في فناء مفتوح بمنزلها. وقف قربها وقال:

- لمَ تسحرين أختي خديجة؟ ها هي ستفقد عقلها. لمَ؟

اقترب منها وأمسك يدها وبدأ يجرّها جرًّا عنيفًا. كانت العجوز نحيلة الأطراف ترتدي ملحفة سوداء. لم تتكلّم، ولم تزد على أن واصلت ذكر الله سرًّا. كان الشاب القوي يسحبها من يديها وهي تتدحرج على الرمل. سحبها من باب الحائط. كانت المسافة الفاصلة بين منزلها والمنزل الذي فيه الشيخ الأمين تقارب الخمسين مترًا.

وكانت مستسلمة له وهو يجرّها حتى رماها بين يدي الشيخ.

نظر الشيباني إلى العجوز الملقاة على الأرض، صامتة ذاهلة وقد أحسّ بأنّ عالمه ينهار. خيل إليه أنه في حلم، فعقله الغضُّ الصغير لا يستطيع تخيّل ما يقع. قفز من مكانه وصاح:

- جدتي!

ومد الفتى القوي يده وأمسك بمنكب الشيباني ورماه بعيدًا قائلًا:

- حُوزْ، أيها الوغد وابن الأوغاد!

أما العجوز فكانت هادئة، كأنها ليست معنيّة بما يقع. فقد علّمتها خمسون عامًا من العيش في هذه البيئة أن الصمت سلاحُ الضعفاء الوحيد. فكل حديث أو تصرف منها لتكذيب الأمر إنما يعزز ما تُرمى به. كانت مقتعنة بأنها مذنبةٌ في نظر هؤلاء حتى قبل ميلادها.... وأنها وُلدت وكتاب إدانتها على ظهرها... مذنبة بالفطرة... مذنبة بمجرّد ميلادها من أب أو أم من طبقة اجتماعية معيّنة يتمّ تحميلها وزر كل ما لا يستطيع هذا المجتمع فهمه.

نزل الشيخ من فوق المرتبة التي كان يجلس عليها وهو يتمتم. اقترب من العجوز، ثم طلب أن تُقرَّب منها خديجة. وُضعت خديجة بين يدي العجوز. ثم قال الشيخ بحزم:

- ردي عليها دمَها!

لم تنطق العجوز، واحتبس الهواء والنفس.

مرّت لحظات كان الصوت الوحيد المسموع خلالها نباح كلب على مسافة بعيدة.

عاد الشيخ بصوت أكثر حِدّة:

- قلت لك ردي عليها دمها.... لقد حدّثتني الاستخارةُ أنك أنتِ مَن سَلَّها!

لكن العجوز بقيت ساكنة ولم تتكلّم.

اندفع الشاب الأبيض القوي يكاد يخرج من جلده غضبًا. وقف أمام العجوز العمياء. جاء صوت سيدة من طرف المجلس:

- اتقوا الله! هذي مخلوقة الله عمياء أصلًا!

وارتفعت أصوات مختلطة مستنكرة لما سيقدم عليه الشاب. ورفع الشاب يده مهددًا بصفع العجوز بحذاء بلاستيكي على وجهها وهو يصرخ:

- ردّي على أختي دمَها!

وجاء صوتٌ من أطراف المجلس:

- هل سمعت برجل يضرب وجه امرأة؟

وخرج الشاب راكضًا يجلله الغضب والعار.

بدأت العجوز تُحَوْقل. ونعق طائر من طيور الليل نزل فجأة على طرف العريش! نعق ثلاثًا، ثم حكّ ظهره بمنقاره وطار! وارتفعت العيون إلى السماء تتأمّل الطائر، وبدا القمر كسيفًا، حزيناً، ذاويًا وهو يتراءى خلف جناحي الطائر. وساد صمتٌ ثقيل. وانطلقت ألسنة بعض النسوة بالبراءة من فَعْلة الشاب، وهم يشيرون إلى الطائر الذي لا يأتي

إلا لخطبٍ خطيرٍ، كوفاة عظيم، أو استباقًا لقدوم رياح عاتية أو منذراً بسنوات من الجفاف.

انطلق صوت فتاة تجلس قرب الشيخ الأمين:

- هذا ساحر تشكَّل في شكل طائر، جاء للدفاع عن هذه السلّالة!

جاءت صرخة من سيدة في طرف المجلس:

- اتقوا الله! هذا حرام! هذا حرام! من قال إنها سحرتها؟

وجاءت سيدة خمسينية مسرعة ورمت نفسها فوق العجوز لحمايتها. واختلطت أصوات الاحتجاج بأصوات السبّ والشتم.

كانت تلك اللحظات كفيلة بأن تخرج الشيباني من عالم الوعي الطبيعي إلى عالم آخر. فآخر ما يذكره أنه شعر بشيء يشبه الموج يتعالى مع ساقيه، وهو يشاهد جدته العابدة التقية تكاد تُصفع بحذاء. وصل ذلك الموج إلى ركبتيه ثم علا قليلًا قليلًا قليلًا.. خُيّل إليه أنه في حلم.. وأن الموج المتصاعد مع جسده موج لذيذ، موج مخدِّر، لكنه خدر غريب.

أفاق صباح اليوم التالي ممددا بين جمع من النساء، لكل واحدة منهن رأيٌ في علاجه. فتح عينيه فرأى قبالته سيدة تلتحف ملحفة سوداء تَمِيحُ ثنايا شفتيها بمسواك من البشام. لمستْ جبهته بيدها، وانحنتْ على جنبها وبصقتْ وهي تقول:

- إذا سُقِي ورقَ السدر، ممزوجًا بالسكر مع تعويذات الشريف عبد الله سيشفى من حينه.

قاطعتها عجوز درداءُ محفورةُ الوجنتين جالسةً على طرف الحصير:

- والله! هذا النوعْ ما ينفعُ حَبْ النصارى، ما تنفعُ يكونْ رُقْية الشريف عبد الله!

كانت جدته جالسة عند رأسه، بهدوئها المعتاد، وجسمها النحيل

وملحفتها السوداء وابتسامتها التي تنضح بالسعادة كلما تعثّر الدهر، حتى كأنها تجدُ في تضاعيف المآسي دروبًا مُعبَّدةً إلى أفانين المسرات. عدّلت ملحفتَها على مُقدّم رأسها وقالت:

– لقد دعوتُ الشريف عبد الله وسيأتي ليقرأ عليه.

مدت يدها باحثة عن جبهته لتقيس حرارة جسمه باللمس، فوقع خنصرُها على طرف عينه فصاح:

– آلمتني!

تنفّست بحرقة:

– والله لا أتمنّى الإبصار إلا لأراك يا ولدي ولو مرة واحدة!

وسكتت جدته. حرّك رأسه على الوسادة الجلدية التي صبغتها خالته حديثًا، ثم رفع بصره قليلًا فلمح الحزن في وجه جدّته. شعر بهمٍّ حارقٍ لا تكاد تتحمّله شرايين قلبه الفتي. ورآها وهي تتسحّب على الأرض لا تدري ماذا تفعل. وغرق في عالم من الصور والأفكار المختلطة إلى أن جاءه صوت إحدى النسوة:

– لا خوف عليه، سيشفى إن شاء الله.

وبدأت النسوة يتنازعن في تشخيص مرضه. فقد مرض مرضًا مشابهًا قبل هذا بشهرين. وكثر الحديث حينها عن أن السبب شربه لخلطة من أوراق أنواع من الشجر الموجود بالمنطقة. كانت خلطة استشفائية سقته إياها إحدى طبيبات الحي. وزعم بعض أصدقائه أنه غدا يخلط بين الواقع والخيال بعد شربه لتلك الخلطة في ذلك الصباح الخريفي من صباحات الكدية.

كان الشيباني حادَّ النظرات شاردا أبدًا حتى قبل مرضه هذا، فقد أُشيع في أسبوع ميلاده أن الجنّ هاجمتْ أمه يوم ولادته وسرقت

مولودها، ووضعت هذا الطفل الجنّي الشاحب بديلًا عنه، فأصبح بذلك «مُبدَّلاً»، وطالما سمع الأطفال ينادونه بـ»المُبَدَّل». وقع ذلك رغم أن أمّه اتخذت كل الاحتياطات التي تتّخذها النفساء للحفاظ على مولودها من الجن. فقد سوّدت وجهَها بفُتات الفحم واحتفظت بسكاكين في الأماكن التي ينام فيها، ولم تغتسل ولم ينطق أي إنسانٍ قربها بكلمة «جن» أو «مجنون» طيلة الأربعين يومًا التالية لميلاده.

لكن كل ذلك لم يفِد. فقد كان في شخصيته غرابة. علاقته بالمتخيّل أوثق من علاقته بالواقع، وتصديقه للمرويات أشد من إيمانه بالمشاهدات، وانفعاله بالخيال المروي أكثر من انفعاله بالمادّي الملموس. ومع ذلك كان قادرًا على تذكّر كل ما يَسمع، وحفظ كل ما تتفوّه به عجائز الحي، أو معلمو المدرسة أو مدرسو القرآن.

كان رأسه الضخم المدوَّرُ وأعضاؤه النحيفة أشبه بعلبة حديدية مغلقة على لغز، مما أفقده كثيرًا من صداقات أقرانه، وحرمه من تنبؤات كبار الحيِّ له بمستقبل باهر رغم ذكائه الملحوظ.

رفعت السيدة الدرداء صوتها قائلة:

– أي خلطة وأي شراب؟ السبب فقط هو سهره الطويل ليلة البارحة، ولعله تأثّر بالأناشيد الصوفية ولم يتحمّلها فطار عقله!

فزِع من اتّصاف عقله بالطيران. وتخيّل قلبه يطير من صدره كأنه عصفور ليختفي وراء الكثبان الرملية الذهبية، والأودية الغاصّة بالأعشاب الصحراوية السامّة وراء قريته. وانشغلت أصابعه بمداعبة تميمةٍ جلديةٍ على صدره. تأمّلها مفكّرًا في نبوءة المجذوب بأنه سيموت ميتة غريبة على يد امرأة. وخطر له أن يخبر جدته بالخبر. لكنه تراجع لمعرفته بأنها ستحزن وتخاف، فهي لا تشك في نبوءات المجاذيب.

قلّب ناظريه في الجمع النسائي المتجمهر حوله، ثم عاد ذهنه للتفكير في نبوءة ذلك المجذوب. تلك النبوءة المروّعة التي لن يعرف دلالاتها إلا بعد سنوات ممتدةٍ طافحة بالعناء والتعرّجات المهولة.

***

## 4

ضَحِـكُ الدّهــر، في محيّــاكَ، مَكرٌ

مــا لــه، غيــر أن يســوءَك، فِكــرُ!

**المعرِّي**

وقف الشيباني - غيرَ مصدقٍ - وهو يرى صديقَ طفولته يقطع الشارع مُتهيبًا خائفًا من السيارات المسرعة. وقف ينتظره وهو لا يكاد يتنفّس من السعال لاكتظاظ الجوِّ برائحة السمك المجفّف المختلطة بدخان عوادم السيارات القديمة. يغصّ الطريق المارّ أمام كلية آداب جامعة نواكشوط بالسيارات المهترئة، وعربات الحمير، والأرجل المتّسخة السائرة على جانب الطريق المغبرّ.

صاح الشيباني:

- عبد الرحمن!

قالها مادًّا ذراعيْه منحنيًا قليلًا إلى الخلف ليحتضنه، مستعيدًا فراقهما قبل تسع سنوات وعشرة أشهر وتسع عشرة ليلة. يوم هاجرت به جدّته من قرية الكدية. أخذوا معهم كل ما يملكون؛ أوانٍ قديمة وخيمة، وأربعة كتب ورثتهم الجدة عن والدها. باعوا بقرتهم الوحيدةَ وركبوا ذات أصيل في شاحنة مكشوفة متّجهين إلى نواكشوط، بينما كان خباز الحيّ مُسندًا ظهرَه إلى جذع شجرة الطلح الضخمة المنتصبة أمام مسجد القرية، ينفخ نايَه الحزينَ، وكأنه الوحيد المحزونُ لفراقهم.

استعاد الشيباني تفاصيل ذلك اليوم وهو يعانق صديق طفولته مُذكّرًا

إياه بأنه لم ينسَ حين أشار عليه مودعًا... والدموعُ تنهمر من عينيه.

مشيا بهدوء بين جدران كلية الآداب مسترجعيْن قصصًا من طفولتهما القروية، وضحكاتُهما المتداخلة تلفت انتباه الطلّاب المارّين في الردهة الضيّقة المؤدّية إلى مقهى الكلية. قطب عبد الرحمن ناصيتيْه متأمِّلًا وجه الشيباني الذي تغير بعده كثيرًا. نبتتْ له لحية خفيفة في عارضيه، ورقّت شفتاه وازدادت جبهته اتساعًا... لكن الأنف الكبير المائل يمينًا ما زال كما هو.

كان الشيباني متعطِّشا لأخبار تلك القرية التي كانت أول ما رأى من الدنيا؛ تلعب بخياله الخصب لارتباط كل تفاصيل حياته بها. غير أن جدّته عزمتْ على ألّا تعود إليها منذ خرجت منها. وكان مما يحزّ في نفسه أنه كلّما أصرّ على زيارتها تفاجئه الجدة بأن برَّها معلقٌ على عدم زيارته لتلك القرية. كانت تقول بلهجتها الحازمة رافعة سبابتها قبالة وجهها:

- عاقني إلين تمشي شَورْ الكدية!

أجلس الشيباني صديقه، وتوجّه نحو بائع الكافتيريا، وعاد حاملًا كأسين من الشاي وعلبتين من «حليب الحُوار» وهو يقول:

- كيف حال محفوظ؟ أما زال فارسًا من فرسان الحمير لا يسقط أبدًا، كأنّ أتانًا أرضعته؟

وضحكا حتى التفتت فتاة جالسة على الكرسي المقابل مديرةً عينيها بانزعاج. وأنصت الشيباني لصديقه يحدّثه عن تفاصيل حياة أهل الكدْيَة. كان منصتًا مستمتعًا بحصوله أخيرًا على قطعة من قريته بعد كل تلك السنين. وقطع عبد الرحمن حديثه:

- أنا هنا أتابع الدروس منذ أسبوع ولم أرَك!

رفع الشيباني يديه ممشطًا بهما شعره إلى الخلف:

– أنا إمّا أن تجدني أغذّي عقلي أو أغذي بطني؛ إما في المكتبة أو في المطعم الجامعي. فأنا لا أفهم لماذا يقضي معظم الطلاب أوقاتهم في الممرّات أو يفترشون العُشب الساعات الطوال بين كلية العلوم وكلية الاقتصاد؟

سكت الشيباني وهو يسمع هتافات مجموعة من الطلاب في مسيرة احتجاجية. والتفت إلى الفتاة الجالسة قربهما:

– لمَ يتظاهرون اليوم أيضًا؟

رفعت الفتاة وجهها عن كتابها واندفعتْ تشرح لهما كيف أن الاتحادات الطلابية تحتجّ على تصريحات لأحد الجنرالات قال فيها إنه يدعم مرشحًا معيّنًا في الانتخابات النيابية.

رفع الشيباني أصابعه الغليظة ليحكّ أسفل ذقنه وهو يقول:

– أليس الأفضل لهم أن ينشغلوا بمراجعة دروسهم؟

وسكت قليلًا، ثم استطرد لاويًا شفتيْه:

– عوامْ! طغامْ!

رشف عبد الرحمن آخر قطرة من علبة حليب الإبل التي بين يديه، ثم قال وهو يمسح بكفه قطراتٍ تجمعت على شفته العليا:

– في أي سنة تدرس؟

– من المفروض أن أكون في السنة الثانية لكن حمارًا نهَق فتدحرجْتُ للسنة الأولى!

قال عبد الرحمن وهو يحاول أن يعطي نفسه فرصة لاستيعاب طريقة صديقه في الحديث:

- لماذا؟

- كتبت له استشهادًا طويلاً في ورقة الإجابة فأزعجه طول ما كتبت. كأنما عليَّ إفساد النصوص التي أحفظ، والتغيير فيها حتى يمنحوني بركة العبور إلى السنة الثانية!

سكت، والتفت إلى الفتاة الجالسة قربهما ملاحظًا عودتها للغرق في قراءة كتابها، ثم رفع عينيه إلى زاوية السقف المغبرّ الذي تتدلّى منه خيوط العنكبوت وقال:

- إن التحَمُّرَ شرطٌ مسبقٌ للنجاح بين هذه الجدران المسكونة بكل شيء إلا المعرفة! عليك أن تتلقَّن ما يقوله الأستاذ وتعيده بمهارة ببغاء.

ثم ظلَّلتْ وجهه مسحة انزعاج حين شخصت في ذهنه صورة أستاذ النقد. كان أستاذ النقد يملي على طلابه نصًّا، وكان الشيباني يصوّب له أثناء إملائه. فانزعج الأستاذ ورمى نظارتيه على الطاولة وصرخ:

- من أنت لتصحّح نصّي؟!

كان الشيباني مسترخيًا في مقعده في آخر الفصل إلى جانب الباب، فقال:

- بل هو نصٌّ للجرجاني أنت أدرى به، ورد في الصفحة 118، من طبعة دار الجيل، 1988!

ضجت القاعة ضحكًا، والتفتت فتاة في الصف الأمامي مميزة بشفتين شرستيْن وقالت:

- خيَّكْ يا بُويَ!

وأعاد أستاذ النقد النظارة السميكة إلى عينيه بحركة بطيئة، والعرق ينضح من جبهته الناتئة.

بعد تلك الحادثة بشهرين صُدمت الكلية بخبر رسوب الشيباني بعد

حصوله على صفر في مادة النقد. وعندما تظلّم لدى «مصلحة الطلاب» احتج الأستاذ بأن الطالب نقل صفحة كاملة من كتاب، وزعم في إجابته أنه التقى بأبي حيان التوحيدي في المطعم الجامعي وأكلا معًا قطعة من الكعك الفرنسي.

أفاق الشيباني من ذكرياته على مجموعة من الطلاب تدخل إلى المقهى تتقدّمهم سلمى، تلك الفتاة السمراء ذات الشفتين الشرستيْن التي تدرس معه. وضعوا كتبهم وأوراقهم على طاولة مجاورة ثم اقتربوا:

- أهلًا الشيباني اشحالك؟

التفت الشيباني برأسه دون أن يحرّك جسمه:

- أنا بخير، لو تركتم هذه المظاهرات.... ضياع أوقات يا شباب!

قالت سلمى ضاحكةً مع ميلٍ غَنِجٍ جهةَ الشيباني:

- قلت لهم ذلك، لكنهم اتهموني بأني أُفُتُّ في عضدهم لأن والدي عسكري!

ما إن نطقت الحرف الأخير حتى كان قلب عبد الرحمن يخفق؛ متأملًا ذلك الجمال المجنون في تينك العينين، وذلك الغنج الصامت بين تلك الشفاه الشرسة. دارتْ عينا عبد الرحمن بين عيون الشيباني وسلمى، فلاحظ بريقًا واتساعا في عيني صديقه حين تحدثتْ، ولمَح مسحةً سحريةً تخدش خدودَ الفتاة كلما خاطبها الشيباني. ابتعدت سلمى ورفاقها للجلوس إلى طاولة في ركن المقهى، وتبعتها نظرات الشيباني. جلس رفاقها، لكنها لم تجلس.

خرجت من المقهى مسرعةً وبقي عطرها ينعش الأنوف الظمأى،

ويسقي أودية الخيالات العطشى. وقفت قرب شجرة رمانٍ في الساحة المطلّة على مصلحة الامتحانات. مشى خلفها وكأنّ العيون اتّفقت على موعد من دون كلام.

كانت ترتدي ملحفة بين الأسود والأبيض، واقفة مع انحناءة يسيرة، ممسكة رزمة من الأوراق بيمناها، متشبثةً بطرف ثوبها تحت ذقنها بيسراها.

والتقتْ نظراتُهما.

لم يستطع النظر في عينيها... ولم تستطع النظر في عينيه. خُيل إليه أن العيون قد تصبح مثل سلكَيْ كهرباء إيجابيين... يستحيل التقاؤهما. ولو اتصلت عيون من ذلك النمط في لحظات معيّنة قد يقع تماس كهربائي في الكون؛ فتَنفُق دِبَبَةٌ في القطب الجنوبي، وتشتعل حرائقُ في غابات الأمازون، وتهاجر طيور أوروبية قبل موعد هجرتها إلى جنوب الأرض، ويضرب الجفاف مناطق شاسعة في أستراليا، فتهلك قطعانٌ من الماشية، ويموت آلاف الرعاة. في تلك اللحظة شطح خياله حتى تخيّل أن الكون يمكن أن ينتهيَ بشحنة من عينين كعينيها، وأن القيامة يمكن أن تقوم بفعل ابتسامة خجلى كالتي ظهرت على شفتيها.

عندما اقترب منها كانت تنظر إلى الأرض، وعندما قال:

- اشحالك؟!

رفعت عينيها بنظرة خاطفة وابتسمت.

منذ فترة امتدت لأشهر كان يراقب حركاتها مُنتشياً بجمالها وبإحساسه بذلك الاهتمام الطافحِ من عينيها. لاحظ خلال الأسابيع الماضية أنه يملك التعاطيَ مع كلِ حركاتها الفياضة بالأنوثة، باستثناء

تلك الابتسامة. فما إن تفترّ عن أسنانها البيضاء المنغرسة في لثتها السمراء، ويرى حركة شفتيها، وهي تزمهما زمًّا غَنِجًا مع تسارع في حركة جفنيها، مع نصف التفاتة حتى يفقد كل إمكاناته التي كان يفخر بها، ويفقد كل اعتداد ولا يبقى له سوى خياله الذي يرفعه إلى عالم آخر.

تلعثما، وماتت الكلمات على شفاههما. وقفا في صمت يتناجيان بعيونهما فقط.

كان من الواضح أن برعم الحب كان ينمو بينهما في غفلة منهما خلال اللقاءات العابرة، والكلمات المقتضبة، والنظرات العجلى أثناء المحاضرات، أو في باحات الكلية، أو في ممرات الجامعة.

قطعت سلمى السكونَ:

- لا بد أن نتحدّث.

رفع الشيباني رأسه، ثم حكّ أوداجه بسبابته، وأعاد نظره إلى الأرض:

- نحن لن نتحدّث فحسب.... سننشد ونغرّد ونعزف. سنقرأ دواوين نزار وعمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف.

ورفع إصبعه وواصل:

- سنطير عصفورين بين الغيوم لا يحدّهما حدود!

تأمّلته وهو ينطلق في الحديث مستمتعة بصوته الجميل ومخارج حروفه الأخّاذة، مستعيدةً طريقتَه التعبيرية الغريبة في أثناء الدروس. ابتسمت نصف ابتسامة، فانعقد لسانه مرة ثانية.

في عتمة ذلك المساء، خرج الشيباني من الكلية وقد تحوّل قلبه إلى

نهر عذب، ومروج من الأزهار، ودواوين من الشعر.

وقبيل خروجه لمح صديقه عبد الرحمن واقفًا يدخن عند زاوية المكتبة، وهو ينظر إليه نظرات غريبة. لكن الشّيباني لم يتوقّع أن عالمه سيتهاوى قريبًا... بفعل صديق طفولته ذاك.

***

# 5

صَديقُـكَ فــي الجهــارِ عدوٌّ سِــرٍّ
فــلا تأسَــفْ إذا شــحَطَتْ نَــواهُ!

المعرِّي

لاحظ كل طالب بقسم اللغة العربية ما كان يدور بين الشيباني وسلمى. لاحظوا التبدّل على شخصية الشيباني. كان لا يهتم بمظهره ولا يمشط شعره. بدا واضحًا الاهتمامُ الذي أصبح يمنحه لمظهره رغم فقره. فهو لا يملك غير دراعتيْن من القماش الرديء، لكنهما غدتا نظيفتين دائمًا. وأضحى شعره مُمشطًا ولحيته محلوقة خلافًا للعادة.

لم يبق لسان في كلّية الآداب إلا تحدّث عن قصّة العشق بين الشيباني، وسلمى بنت الجنرال. قصة لاكتْها الألسنة في مقهى الجامعة، وتحدّث عنها حتى الأساتذة في مكاتبهم. وزاد الاهتمام بتلك القصة غرابة العاشق وتحوّلاته وطريقته في التعبير عن عشقه. فقد أصبحت مصطلحاته الغزلية مجالًا للتندر والاستظراف في جنبات الجامعة.

ضحكت زميلة له وهي تراه ينفض الغبار عن شنطة كتبه قبل أن يدخل إلى قاعة الفصل، وعلّقت:

- حتى الشنطة أصبحت أنيقة!

قالتها ضاحكةً وهي تتذكّر تعليقه قبل يومين حين وجّه أستاذ النحو ملاحظة إلى سلمى لأنها لحنت أثناء تقديمها لبحثها. وكيف أن الشيباني راح يحاجج الأستاذ بأنها لم تخطئ، باذلًا جهده في إثبات

أن ما قالته قد قاله قبلها النحاة، حتى اضطر الأستاذ أن يقول للشيباني:

- أقدّر أنك ترى أنها هي اللغة! فإذا نصبت الفاعلَ فعلى النحويين العودة إلى الكتب وتنقيحها من جديد لتتّسع لفاعل منصوب، أو لمفعول مرفوع، أو ظرف مجرور.

وانفجر الصفّ ضحكًا، وظلّلت سلمى سحابة من الخجل. لكن الشيباني وقف وسط الضحكات والتعليقات، وقال بصوت واثق:

- نعم، عندما تلحن الفتاة الجميلة فعلى اللغة أن تتقبّل ذلك بصدر رحب. فلا يمكن أن نخضع لشروط سيبويه وابن مالك وغيرهما ونقف محايدين أمام جمالٍ أخّاذ يمكن أن يعيد ترتيب منطق اللغة. فإذا كسرت الحسناء وزن بيت يصبح ذلك الكسر قاعدة دون إذنٍ من الخليل بن أحمد. فهي اللغة وهي العروض.

ضجت القاعة تصفيقًا. وبدل أن يكون ما قاله الشيباني سببًا لعقوبة له أو لسلمى تحوّلت القاعة كلّها إلى حالة من التضامن والتفهّم. حتى وقف الأستاذ ضاحكًا معلنًا تقديم تنبيه لفظي للفراهيدي وسيبويه.

في نهاية درس ذلك اليوم، قال عبد الرحمن للشيباني، وهما يخرجان من محاضرة اللسانيات:

- تبارك الله عليك، أنت محبوب في الجامعة كلها!

قالها على لسانه بينما كان في داخله انزعاج وغضب شديدان. إذ لم يكن له أي وزن لدى الطلاب إلا لأنهم يرونه بصحبة الشيباني. حتى إن اسمه لم يكن معروفًا لديهم، وأصبح يُعرف في الكلية باسم «صاحب الشيباني». وما كان يزيد من غضبه أنه إذا جلس منفردًا غالبًا ما يأتي بعض الطلاب أو الطالبات ويسألونه من دون سلام:

- أين الشيباني؟

عندما أخبر عبد الرحمن أسرته أن زملاءه ينادونه «صاحب الشيباني»، ضحكوا طويلًا حتى قال عمّه:

- كيف يصبح عبد الرحمن ابن النسب والحسب يُعرّف بصاحب الشيباني!

حتى إن عمه غدا يناديه أحيانًا:

- صويْحب الشيباني!

أما أخوه الأكبر فقد حاول التخفيف من غضبه مصطنعًا الحكمة، فقال له:

- عليك دفع ضريبة العيش في المدن الكبيرة؛ إن النسب يذبُلُ حيث تنبت المدارس والجامعات، وإن ماءَ الأحساب يغيضُ حيث تُزهر غاباتُ الإسمنت!

كان عبد الرحمن ممزّقًا بين أن يرتضي أن يكون «صاحب الشيباني» وهو امتياز، خاصّة أن الشيباني يعرف مكانته بين قومه، وبين أن يرفض هذه الصفة وبالتالي قد يؤدّي ذلك إلى مزيد من العزلة. فأهل المدن - كما قال له أخوه - لا يقيمون وزنًا لكونه ابن قبيلة ذات شوكة ولها تاريخ بين وجهاء وعلماء البلاد، بينما الشيباني ينتمي إلى الفئة الدنيا في السلم الاجتماعي، هذا عدا عن فقره.

كان عبد الرحمن يعيش حالة من التردّد، فالشيباني طالب استثنائي وله قدرات غير عادية. فهو يملك دماغًا يشبه الماسح الضوئي، بحيث يتذكّر ويستوعب كل ما يقرأه. وجد عبد الرحمن صعوبة في تقدير قيمة ذلك العقل الفوّار، والتغاضي عن الخلفية الاجتماعية الدنيا لصاحب ذلك الدماغ.

كان الشيباني أشهر طالب في الجامعة. فقد جمع في شخصيته

بين الجرأة والتواضع العلمي. اشتهر بقدرته على التحليل والتفكيك، ومعرفته بالقديم والحديث، سواء في الأدب أم في الفلسفة أم في المعارف الأخرى. وكان الطلاب يستنجدون به أمام كل معضلة.

مرّت على عبد الرحمن أسابيع في الكلية، رأى خلالها الشيباني يتصدّر حلقات الطلاب يشرح لهم النظريات الأدبية، وتاريخ النقد، ويحلّل لهم النصوص والقصائد الصعبة. رأى الطلابَ خاشعين ينظرون إليه عند باب الكلّيّة وهو مستند إلى الباب يجيب طالبة على سؤال في النظرية التوليدية في اللسانيات، ثم يجيب رجلًا أربعينيًّا عن أصول فلسفة فوكو.

كما رآه عدة مرات في فصل دراسي يتحلّق حوله الطلاب وهو يشرح على السبورة قصيدة لابن الرومي، ساخرًا من طريقة العقّاد في تفسير نفسية الشاعر البغدادي.

وفي أحد الأيام، كان الشيباني واقفًا وسط مدرج يتحدّث عن المحطّات الكبرى في تاريخ اللغة العربية. وكان المدرج غاصًّا بالمستمعين. طلاب من مختلف التخصّصات والكلّيات أتوا للاستمتاع بحديث الشيباني. وفي أثناء كلامه عن البحتري، سرد سلسلة نسب الشاعر من ذاكرته دون تلعثم، فضجّت القاعة بالتصفيق.

ما إن انتهت موجة التصفيق، وقبل أن يكمل الشيباني حديثه، حتى برز عبد الرحمن من طرف القاعة رافعًا صوته بلهجة فيها تحدٍّ:

- جديرٌ بالإنسان أن يعرف اسمَ أبيه أولًا قبل معرفة أجداد شاعر مات قبل أكثر من ألف عام!

نظر الشيباني نحو عبد الرحمن وقد خبا الضوء الذي كان يشعّ من عينيه أثناء حديثه. واختنق المدرج بالصمت ومشهد الشيباني وقد

انخطف الدم من وجهه. وراحت عيون الحاضرين تنتقل بين عبد الرحمن والشيباني. سقط القلم من يد الشيباني، فتبعته العيون يتدحرج على البلاط في صمت ثقيل بطيء.

أحسّ الشيباني بارتجاج في معدته. وظهر ظلام كثيف بينه وبين الحضور الذين كانوا ينظرون إليه في صمت وتطلّع. لمح باب الفصل يبتعد مختفيًا وراء كتل متصاعدة من الظلام. ثم تحوّلت وجوه الطلاب إلى كتل دون ملامح. رفع يسراه وأمسك بها جبهته، بينما اعتمد بيمناه على الطاولة حتى لا يسقط.

وجاء صوت طالب وسط القاعة:

- واصل! واصل! لا تهتم لهذه التفاهات فهي سبب تخلّف مجتمعاتنا.

انطلقت همهمة في المدرج. طلاب يحتجّون على تدخّل عبد الرحمن، وآخرون يتناجون في ما بينهم حول القنبلة التي وقعت داخل المدرج قبل ثوانٍ، وآخرون يصرخون طالبين من الشيباني مواصلة الحديث.

انحنى الشيباني بصعوبة، وأخذ كتابًا كان على الطاولة وخرج من الباب من دون أن يلتفت. خرج من الباب الجنوبي لكلّية الآداب وقطع الشارع الغاصّ بالسيارات، ماشيًا من دون هدى. كانت الرياح الباردة الآتية من جهة المحيط تداعب وجهه المرهق وعينيه الغائرتين. مشى بين السيارات الصاخبة حتى كادت تدهسه سيارة وهو يقطع إشارة حمراء دون أن ينتبه. وبعد ربع ساعة وجد نفسه داخل مقهى.

رمى جسمه المرهق على كرسي وهمْهَم:

- علبة باردة!

نظر إليه النادل بسخرية:

– علبة من آش؟

– ماء!

جلس في طرف المقهى شاعرًا أن الطاقة التي كانت تحمله بخفّة في ممرّات تلك الجامعة، وتدفع لسانه للحديث بمناسبة ومن دونها قد انطفأت وتبخّرت. بل تحوّلت إلى قيود تكبّل رجليه وخيوط تشدّ لسانه. واجتاحت ذهنه آلاف الصور والأفكار مستعيدًا الوجوه التي كانت تنبهر به وتحترمه مستعيدًا جُمَلَ المديح التي غازلت أذنيه بين تلك الجدران. وتساءل كيف ينظرون إليه الآن؟ هل تبخّرت كل تلك الكلمات، هل انمحى كل ذلك التقدير؟

وبين مئات الأوجه برز وجه واحد.

هل ستظلّ على ذلك الاهتمام؟ أم إن كلمات اندلقت من لسان شخص أكلتِ الغيرةُ قلبه قد اغتالت كل ذلك؟ استعاد أجمل ساعات عاشها في عمره، ساعات القرب من المحبوبة، أوقات الرضى والغضب والقرب والبعد، ولحظات الأنس المشوبة بالنفور المُغوي. تلك الساعات التي جادت بها الدنيا في الأسابيع الماضية.

ورشف من الماء البارد رافعًا رأسه يائسًا حزينًا. لمح جهاز التلفزيون المثبت في طرف المقهى يبث مباراة بين فريق المرابطين الموريتاني وفريق سنغالي. مدّ بصره مع الشارع العام، فلمح الباصات الرثّة والتكاسي الكسلى الصدئة تتراصّ على جانب شارع جمال عبد الناصر.

ثم انفتح باب المقهى بغتةً.. ودخلت.

رفع فيها عينيه الذاويتيْن كأنه في حلم. حاول الحديث لكنه اكتشف

لأول مرة في حياته أن الحديث قد يغدو أمرًا صعبًا. جرّب للمرة الأولى كيف يصبح اللسان كتلة تافهة من اللحم.. عاجزة عن الحركة. واكتشف كيف يتحوّل الدماغ إلى كتلة من القطن لا تسعف اللسان بفكرة. كيف يعجز ذلك اللسان الذرب وتلك الأسنان القوية، وذلك الدماغ الفوَّارُ عن تكوين جملة!؟

اختنق خياله بصور كثيرة متناقضة. كانت كلمة «مَخْسور» تسيطر على ذهنه وتجرّ معها تلك الصور من طفولته. كانت أمامه صورة ذلك اليوم حين كانت جدّته ومجموعة من العجائز يتناقشن حول احتمالات تلك الكلمة: «مَخْسُورْ». كانت إحداهن تتحدّث عن امرأة تزوّجت ثم توفّى زوجها وظهر الحمل عليها بعد أربع سنوات من وفاة زوجها. وعندما بدا أن في كلامها شيئًا من التشكيك انبرت إحدى النسوة لتوضح أن النطفة قد تختفي في جانب من الرحم ثم إذا تيسرت الظروف عادت لها الحياة فيبدأ الحمل من جديد. وتذكّر أن النسوة كن مجمعات على صحة الفكرة لكنهن كن مختلفات حول أقصى فترة لكمون الحمل. لكن أغلبهن كن يكررن ما قاله فقيه القرية من أن أقصى الحمل خمس سنوات كما يقول الفقهاء المالكيون. وتذكّر بوضوح كذلك كيف كان اسم أمّه من بين الأسماء التي دارت على ألسنة العجائز أثناء هذا الحديث.

كانت صور طفولته وحياته في قريته تتوالى في رأسه. وتتمازج مع صورة عبد الرحمن جالسًا أمامه على الطاولة في مقهى كلّية الآداب، وسلمى تمازحه بينما عينا عبد الرحمن تطاردانها... ويطن في رأسه صوت عبد الرحمن في القاعة: «جديرٌ بالإنسان أن يعرف اسمَ أبيه أولًا قبل معرفة أجداد شاعر مات قبل أكثر من ألف عام!».

قالت بهدوء:

- ماذا أصابك؟

لم يجبها. انعقد ذلك اللسان الذي كان طاحونة دوارة لا تكف عن الحديث الذي يجذب كل سامع... تحول إلى قطعة لحمٍ مخدرة عاجزة عن أن تردَّ على المحبوبة التي كانت الدافع الأكبر له لمزيد من التألّق.

قالت:

- كنت أركض وراءك طيلة تلك المسافة وأناديك... لمَ لمْ تلتفت؟

وجلست على الكرسي المقابل. وضعت حقيبتها على حافة الطاولة فصدمتِ الكأس المملوء بالماء، وأحكمت طرف ملحفتها تحت ذقنها مُشيحةً وجهها إلى التلفزيون لتفادي نظراته اللافحة، بينما انسكب الماء فبدأ يسيل قطراتٍ على طرف الطاولة.

حاولت أن تفهم لماذا كانت لهذه الكلمات تلك القوّة التي جعلته ينهار في لحظات! رأت وجهه الذي طالما حلمت به وهامته الضخمة وعينيه العميقتين وشفتيه المتعبتين وأنفه المائل قليلًا إلى اليمين. رأته حيوانًا قويًّا انهارت قواه مرة واحدة. كان رعدًا يزمجر في جنبات الكلّية لمدة عامين.... لكنه الآن أسدٌ هرمٌ جريح. اقتُلعت أسنانُه وأظافره، وانقضّت كل البراغيث والذباب على جراحه تلعقها. فَقَدَ كل أسلحته بعبارة تائهة في زاوية من زوايا كلية الآداب.

ألقت رأسها بين يديها على الطاولة وانفجرت باكية.



# 6

طلبــتُ يقينًــا مــن جهينــةَ عنهمُ

ولم تخبريني - يا جُهينُ - سوى الظنِّ!

المعرِّي

وجد نفسه في الزقاق الضيّق الذي يقوده إلى كوخ جدّته في حي مَلَّحْ؛ حيث يعيش. يتعرّج الزقاق القذر بين الأكواخ المتناثرة كالقبور. سلك هذا الطريق آلاف المرات خلال السنوات الماضية، لكنه أحسّ للمرة الأولى بطوله وتعرّجه وغرابته. زكمت أنفه رائحة الحمامات المؤقتة المتناثرة على أطرافه. بعض الحمامات عبارة عن برميل داخل حفرة وعلى فوهته مقعدة، وبعضها حفرة فحسب، مغطاة بقطع من الخشب. كانت رائحة العذرة المخلوطة برائحة جيفة حمار ممدّد على القارعة تملأ أنفه، وهو ينظر في وجوه جيرانه مفكّرًا في حجم المعلومات التي يعرفونها عنه الآن. هل يعرفون عنه بقدر ما يعرف عن نفسه؟ هل سمعوا من قادمين من قرية الكدية قصصًا تطعن فيه وفي جدّته وأمه التي افتقدها وظل يحلم بها؟ هل هذا هو واقعه أم إن كل هذا ليس سوى أوهام صنعتها غيرة ذلك الشاب في لحظة انفجار ضغينة، وكان عليه أن يواجهها، وهو الذي واجه قدره وتفوّق على كل المعوقات؟

لمح زينب، واقفة قرب كوخها تطعم معزاتها بقايا الطعام، ولمح مباركًا يعقد عربته على حماره ليبدأ مشوار كدح جديد حيث يوصل

براميل الماء إلى الأحياء القريبة. تجاوز بيت جيرانه «أهل سيد أحمد»، ذلك البيت الذي تسكن فيه خمس شقيقات طالما تطلّع هو وأبناء الحي للاقتراب منهن لولا وجود أخيهن المجنون داخل البيت طيلة الوقت.

دخل الكوخ فرأى جدّته كالعادة جالسة على حصير بلاستيكي مهترئ، ترتدي ملحفة سوداء وبيديها مسبحتها وعلى مقربة منها عدة أوانٍ كانت تغسلها، فيتطاير رذاذ ماء الغسيل في زوايا الكوخ. وصل إلى الركن حيث كتبه ومكان جلوسه.

برق وجهها رافعة ذراعيها:

- يا ونّي ذاك وليْدي؟

كانت تستطيع تمييزه بمجرد اقترابه منها. بل كانت تستطيع تمييز كل الذين يعيشون في دائرتها من صوت أو رائحة. حتى إن أحد أصدقائه قال له مازحًا:

- جدّتك ليست عمياء... وإذا كانت كذلك فنحن نحتاج إلى تعريف جديد للعمى.

جلس أمامها على الأرض. لم يتجاوزها ليجلس في مكان جلوسه العادي، كأن كلَّ الطاقة التي يتحرّك بها انتهت هنا فلم يستطع التقدم أكثر.

خارت قواه، وذوَتِ الطاقة التي أوصلته إليها. كيف سيفاتحها في الأمر؟ ولماذا يفاتحها أصلًا؟ كيف يرميها بسؤال قد تفهم منه شكّه فيها وفي أمه؟

هل وصل به العقوق إلى حدٍّ أن يصدق أحاديث الناس مهما تواطأت؟ وهل يكذّب جدته، ذلك الكائن الملائكي الذي ربّاه وأحبه؟! هل يمكن للحياة مهما كانت مؤلمة أن تدفعه إلى جعل الذين

أحبّوه يتألمون منه؟ وهل البشر كائنات عاقّة وسافلة إلى هذه الدرجة؟

كانت تدور في ذهنه كل آراء الفلاسفة العدميين، كان يستعيد غرائب الآراء عن الغرائز البشرية السافلة، والأنانية البشرية المفرطة. ثم تخطر له كل آراء أولئك الذين أمضوا حياتهم يبحثون في قيمة الأخلاق كقيمة أعلى من أي قيمة أخرى.

كان ممزَّقًا، عاجزًا عن اتخاذ خيار أو قرار. وخطر له أن يقف ويهرب الآن... ولا يعود إلى جدّته أبدًا.

وجمع كمَّيْ دراعته ووقف. أحسّت العجوز بقلقه فقالت:

- خير؟ ما لك؟

قالتها وهي ترفع رأسها إلى الأعلى.

- أنا بخير... أودّ الحديث معك في أمر.

أحسّت بأن حدثًا جللًا قد وقع. شدت أطراف ملحفتها وأرخت جانبها الأعلى جهة جبهتها قائلة:

- خير يا وليْدي!

حاول الحديث لكن لسانه انعقد. تبخّرت كل طاقة التحمّل عنده. فمنذ أربع ساعات يحمل جبالًا على ظهره. يطوف بها في طرقات نواكشوط. يسير بها في الشوارع ويحملها معه داخل الباصات المنطلقة من كلينيك إلى بو حديدة. عليه الآن إزاحتها هنا بين يدي جدّته. عليه أن يتحدّث إليها وأن يقطع شكوكه. استجمع كل طاقاته وهمس:

- من أبي؟

- ماذا تقصد يا بني؟

- أمي... لا أستطيع التحمّل... رجاء سألتك مَنْ أبي؟

شعرت العجوز أن كل ذلك العالم الذي شيّدته بيدها خلال سنوات طويلة قد تهاوى في لحظة واحدة. سنوات عانت فيها الاغتراب عن قريتها، وتعبت من العيش في الأماكن المكتظة المتّسخة لتربي حفيدها بعيدًا عن نظرات الاحتقار، وعبارات التعيير الجارحة.

تلافت الأمر حتى لا تظهر عليها علامات التوتّر:

- أبوك يا ولدي المختار ولد الشيباني!

- لمَ يتعامل معي أهل الكدية كأن أبي غير معروف إذن؟

- لعلّهم يقصدون أنه لم يكن موجودًا حين وُلدت، وهذا أمر تعرفه أنت أيضًا.

في هذه اللحظة، اقتحمت معزاةٌ الكوخ فصرخت الجدة:

- اطردها بعيدًا، هذه معزاة أهل سيد أحمد. الله يقصّر عمرها!

قالتها مسترسلة في الشكوى من تلك المعزاة التي تهاجمها كل يوم لسرقة الطعام. فالكوخ غير مُسوَّر مما يجعله عرضة لاقتحام الأغنام والماعز المنتشرة في الحي. واصلت الجدة الشكوى من المعزاة لتعطيَ نفسها فسحة للتفكير في ما ستقوله.

سكتت قليلًا، ثم قالت بلهجة واثقة:

- اسمع يا وليدي! عندما كانت الدولة تُرمّم طريق الأمل كان أحد المهندسين المشرفين على الطريق يزورنا. كان رجلًا ذكيًّا أسمر السحنة، أنفه مائلًا إلى اليمين.. يشبهك تمامًا.

واسترسلت في وصف الرجل، بينما كان الشيباني يشعر بحرارة في جلدة رأسه من شدة التطلّع وكثرة الأسئلة المُعْتلجة في ذهنه.

واصلت قائلة:

- جاء مَن أصبح والدك وخطب والدتك رحمها الله. كانت فتاة جميلة تقية، فزوجناه إياها. بقي معنا شهرًا واحدًا ثم سافر بسبب طبيعة عمله، ولم يعد... كانت أمك قد حملت بك.

- هل ولدت بعد سفره بعام؟

- أظنك ولدت بعد سفره بعامين.. كانت أمك تعاني دائمًا آلامًا في الظهر وحساسية تجاه البرودة، كان حملها مخسور. مما يعني أن الحمل مكث فترة طويلة حتى يصلح داخل الرحم.

وسكتت. أما هو فلم ينبس، بل رفع بصره في سقف الكوخ حيث عُلّقت بعض الملابس المختلفة الألوان، وقِطع خشب ذات أحجام غير متناسقة. ساد صمت ثقيل مليء بالأسئلة الحائرة. وهبّت رياح تحمل رائحة البول والقمامة والجيف، وسمعا صوت جارتهم خديجة تطرد معزاة أهل سيد أحمد بغضب:

- الله يعطيك اطيارْ! أصل ما هو مْجي السحابْ!

وانطلق نُهاق حمار مبارك، ونباح كلب في الجهة الجنوبية من الحي. عدّلت الجدّة جلستها:

- شوف يا وليدي، قضية مخسور أمرٌ يعرفه الفقهاء والأطباء وكل الناس. وأي امرأة لديها حساسية مفرطة من البرد من الممكن أن يتعرّض جنينها لذلك.

ظل الشيباني جالسًا غارقًا في لجة ما يصطرع في رأسه. يمسحُ طرف الحصير بيده مُصارعًا آلاف الأسئلة التي تتراكض بعنف في زوايا دماغه. كيف يمكنه أن يعيش في مجتمع يبني تقديره للفرد على أساس النسَب؟ كيف يخرج الإنسان من دائرة تضعه في الفئة الدنيا لأسباب لا يد له فيها؟ كيف تقدَّر قيمة الإنسان بناءً على أوهام في أذهان الناس

عن أقوام دفنوا قبل مئات السنين؟ كيف يمكن لمن يؤمن بأن الحساب الأخروي فرديٌ لا دخل للأنساب فيه أن تتحكّم فيه هذه التصورات؟ وانطلق صوت المؤذّن في مسجد قريب، وطغت على ذهن الشيباني الصّور التي يتحدّثون بها عن بلال بن رباح وزيد بن حارثة وخباب بن الأرَتّ... وزياد بن أبيه.

كانت جدته جالسة مُستنفرةً حواسها الحادة حتى إنها كفّت عن تحريك حبات مسبحتها. بل ظلت سبابتها وإبهامها قابضتين على حبة واحدة وسط المسبحة. كانت تصارع نفسها حتى لا تسأله عن سبب اهتمامه المفاجئ بالأمر. لا تريد إشعاره بأهمية الأمر.

شخصت في ذهنه ممرات الجامعة، والطلاب المجتمعون للاستماع لحديثه، وتذكّر الشبان الذين يلتقي بهم كل يوم عند باب المطعم الجامعي وكيف يمازحونه بالقول إنه «فتى القبيلة» بلا منازع. واستعاد صورة أحدهم يميل عليه هامسًا:

- أنا أتيه عليهم هنا عندما أقول لهم إنك من أولاد جيَّان... من أبناء عمي.

وقف من مكانه، شاعرًا بدوار شديد. تحرّك غاضباً فاصطدم رأسه بباب الكوخ... سقط وهو يئنّ.

صرخت جدته متلمّسة الطريق بيديها حتى خرجت من الغرفة:

- الحقوني! الحقوني!

كان أول من وصل من الجيران بنات أهل سيد أحمد وأمهم، وزوجة مبارك. رشّوا وجهه بالماء فرفع رأسه:

- أنا بخير، لا تقلقي يا أمي.

سال دم خفيف من جانب جبهته الأيمن. رأت إحدى بنات أهل

سيد أحمد الدم فانطلقت تبحث عن سيارة أجرة. أسرعت في الزقاق الضيّق إلى أن وصلت إلى الطريق الرئيسي. وقفت على الشارع تؤشّر بطرف ملحفتها على كل سيارة. كان الطريق غاصًّا بالسيارات الذاهبة في اتجاهات مختلفة من دون نظام. كان الطريق ضيّقًا مغبرًّا، غاصًّا بالدخان والسيارات المتهالكة والعربات، بينما يقف شرطي وسط الطريق على أطلال إشارة ضوئية معطّلة محاولًا تنظيم السير دون أن يعيره أحد أي اهتمام.

مرّت عشر دقائق والفتاة توقف كل سيارة تمرّ. ثم وقفت سيارة أجرة متهالكة تظلّلها سحب الدخان. أنزل السائق النافذة بصعوبة مستعينًا بكلتا يديه. فهو يُجلس راكبًا نحيفًا بينه وبين الباب لكسب مقعد إضافي.

- إلى أين؟

فوجئت الفتاة، فماذا تقول والسيارة تختنق بالركاب. ردّدت نظراتها بين وجوه الركاب والسائق ثم قالت:

- عندي مريض!

لم يسمعها السائق، فضوضاء مكبرات الصوت الصادحة بالأغاني وتلاوة القرآن تملأ الفضاء.

عندما رأت نظرة التساؤل في عيني السائق صاحتْ:

- عندنا مريض! عندنا مريض!

التفت السائق إلى الركاب مراهنًا على مروءاتهم، فنزلوا تطوّعًا واحدًا تلو الآخر. كان آخرهم رجل أسمر ملثّمٌ يحمل خروفًا صغيرًا في حضنه. نزل حاملًا خروفه وهو يتمتم:

- هحْ يا الله لي! لله يعافينا ويعافي المسلمين!

أوقف السائق سيارته عند مدخل الزقاق، فلا يمكن للسيارة العبور بين الأكواخ.

جاء الشيباني يسير متثاقلًا بين أم أهل سيد أحمد وبناتها. ركبت أم أهل سيد أحمد في المقعد الأمامي بينما جلس مع جدّته في المقعد الخلفي وهو يكرّر أنه بخير ولا داعي للذهاب للمستشفى، لكن جدّته كانت تصرخ:

- يا وليدي! لا بد لك من الطبيب!

انطلقت سيارة الأجرة مسرعة في طريقها للمستشفى الكبير. يخرج سائق التكسي يده من نافذته طالبًا إفساح الطريق وهو لا يتوقّف عن الحديث:

- أخي زار عدة دول مجاورة... هل تعلمون أن هناك رقمًا يسمى رقم الإسعاف؟ تعرفون ما هو؟

نظرت إليه أم أهل سيد أحمد مستفهمة، وهي لا تزال تحت صدمة ما جرى. لكنه واصل:

- يتّصل الناس على هذا الرقم إذا كان هناك مريض، وتأتي سيارة الإسعاف لنقله إلى المستشفى. ويجب على الناس في الشوارع إفساح الطريق لتلك السيارة لأنها تحمل مريضًا.

هزّت الجدّة رأسها قائلة:

- ذاك يا بوي ألّا في أرض النصارى! الله يلطف بينا وبالمسملين!

وانتهز السائق فرجة بين سيارتين فانطلق مسرعًا لا يتوقّف عن الكلام:

- لا لا، موجود في كل الدول.. المغرب هذي.. أي دولة!. عندنا هنا سيارة إسعاف واحدة.. لكنها كانت تستخدم لتهريب الأرز!

وبصق من النافذة، ثم أجاب نفسه:

- أيوه، هي ألّا موريتانْ!

جلس الشيباني صامتًا تُسافر عيناه بين وجه جدّته والطريق الطافح بالحركة الفوضوية، وأكوام القمامة، والغبارِ المرتفع، ودخان عوادم السيارات. بدتْ عيناه زائغتيْن، وشفتاه مُفْتَرَّتيْن عن ابتسامة بلهاء؛ تلك الحالة التي تعتريه عندما يُشرف على عالمه الخاصّ... عندما يقف حائرًا على الحدود الرمادية بين عالمين. رفع يده ليلمس النُّدبة التي على جبهته ثم تفحَّص يده. تمزق ذهنه بين عالم الحقائق الماثلة، وعالم ذهني آخر أقوى وطأة عليه.

كانوا قد وصلوا إلى ملتقى طرق تنسويلم. مدّ الشيباني رأسه إلى الأمام قليلًا متأمّلًا مجنونًا نصف عار، يمارس هواية تنظيم السيارات... وهي المهنة التي كان مكلفًا بها قبل تقاعده وجنونه. تأمّله الشيباني ثم التفت إلى أم أهل سيد أحمد:

- أحسد المجنون على ذهاب عقله!

صمت ثواني ثم أردف:

- حتى المتنبّي طعنوا فيه. سموه «ابن سقَّاءِ الكوفة»؛ وقالوا إنه قرمطي! بل قالوا لا يُعرف له نسب!

شعرت المرأة بتضايق مشوب بخوف وعيناها تدوران بين الشيباني والمجنون المنهمك في تنظيم السير. مالت جهة باب السيارة مُرخيةً طرفَ ملحفتها على أنفها قائلة:

- سمِّ يا وليْدي! ثم تمتمت، حتى لا تسمعها جدّته: بسم الله الرحمن الرحيم.

التفت الشيباني إلى جدّته مصعدًا نظراته في وجهها كأنه يكتشف

حدقتيها الشائهتيْن أول مرّة، وفكّر كم تألمت هذه المرأة بسببه.

بعد نصف ساعة دخلتِ السيارة إلى المستشفى الكبير. وقفت قرب باب الحالات المستعجلة. دخل ثلاثتهم إلى غرفة مستطيلة، مفتوحة على غرف المعالجات الأولية للحالات الاستعجالية. يجلس ممرض منتفخ البطن على كرسي في ركن الغرفة. كان لا يكفّ عن البصق في قنينة إلى جانبه وهو يسأل المريض بعض الأسئلة.

انبرت أم أهل سيد أحمد لتجيب عن الأسئلة.

أشارت إلى الشيباني وقالت:

- لقد فقدَ وعيه فجأةً واصطدم رأسه!

كانت جدّته تتلمّس الجدار مقتربة لتسهم في توضيح ما حصل. كان الشيباني يتعامل مع الموقف تعامل المتفرج فالأمر لا يعنيه. جاء هنا فقط مجاملة لجدّته وجارته. دخلت المرأتان في حديث مع الممرض بينما انشغل هو بتأمّل المرضى في الغرفة المجاورة. كانت ثمة سيدةٌ تئنّ مستلقية على سرير حديدي. رأى شابا أسود البشرة مكسور الساق يصرخ، وعلى مقربة منه مريض يستلقي على الأرض والذباب يحوم حول جرحه المكشوف.

في غرفة أخرى التقت عيناه بعيني سيدة مرهقة الملامح، جافّة الشفاه، بيدها مروحة تروح بها عن رضيع نائم في حضنها وهي لا تكفّ عن الحديث مع فتاة جالسة إلى جانبها. كانت الفتاة تحدّثها عن أخيهما المراهق المحتاج إلى عملية جراحية حالًا، لكن إدارة المستشفى تماطل محتجة بعدم وجود سرير. وعندما أخبرتها السيدة عن حالة ابنها، قالت لها إن الطريقة الوحيدة لإنقاذ طفلها هي البحث عن ضابط يتوسّط له ليعالَج في المستشفى العسكري. فأفضل الأطباء

هناك، والعلاجات مجانية... لكن لا بد من وساطة من عسكري ذي رتبة رفيعة.

تابع الشيباني تفاصيل حديثهما وقد خفّفت آلام الناس من ألمه. ثم وقفت السيدة والرضيع في حضنها. نفضت جانب ملحفتها ودسّت المروحة تحت إبطها وهي تقول للفتاة:

- نعم سأحاول، المستشفى العسكري، أما مستشفى الدولة هذا، فأفضل منه لطفلي أن يبقى في البيت يبتلع البراسيتامول. على الأقل لن يُصاب بعدوى أشد وأدهى!

عاد الشيباني ليتابع ما يحصل له عندما سمع الممرّض مخاطبًا أم أهل سيد أحمد وهو يدفع لها وصفة طبية:

- اشتري هذا وتعاليْ.

قالت السيدة:

- ما هذا؟ دواؤه؟

- قبل وصفة الدواء علينا أن نخيط الجرح في جبهته، وهذه وصفة بأدوات الخياطة. احضريها وتعالي بسرعة.

بعد دقائق عادت حاملة خيوطًا وقطعًا من الكتان ومطهِّرًا. أُدخل في غرفة مقابلة على فتاة خاطتْ جبهته متأفّفة. ثم خرج ثلاثتهم من باب المستشفى. نظر الشيباني إلى الشارع أمام المستشفى. كان مكتظًا بعربات الحمير والسيارات والباعة والمتسوّلين، بينما تصطف الصيدليات الغاصّةُ بالأدوية المزوّرة على جانبيه.

مشى بين جدته وصديقتها ورائحةُ الدخان والغبار والقمامة المحروقة تشتبك في أنفه. كانت أم أهل سيد أحمد لا تكفّ عن الحديث تعبيرًا عن سعادتها لخروجها من ذلك المستشفى. صدمتها

أصوات الأنين، واستغاثات المرضى، وصدمها أكثر من ذلك اللامبالاة من الممرّضين. أما جدة الشيباني فكانت طوال الوقت تدعو بالتوفيق لأم أهل سيد أحمد، فقد كلّفتها ما لا تطيق عندما ذهبت واشترت ما تضمّد به جراح حفيدها.

كان الشيباني غارقًا في التفكير في أن عليه تغيير حياته وحياة جدته أيضًا.. ثم لمعتْ في ذهنه فكرة ستغيّر مجرى حياته.

***

## 7

وهوّن مــا نلقــى من البــؤس أننا

بنو ســفرٍ.. أو عابرون على جسرِ!

**المعرِّي**

يسرع الباص الصغير على الطريق الوحيد المعبّدِ الخارجِ من الجهة الشرقية لنواكشوط. يتعرّج الطريق النحيل بين الكثبان والأنجاد والوهاد كثعبان صحراوي هرِم. يجلس الشيباني في المقاعد الخلفية في دراعته الزرقاء ولِثامه الأسود الذي يغطي وجهه كاملاً عدا عينيه اللتين تتأمّلان الملامح المتنافرة للمسافرين والطريقَ الطويل المغبرّ المليء بالحفر.

يجلس بقربه عجوز مع طفلته الصغيرة وزوجته الأربعينية الضخمة التي لا تملّ من كيل الشتائم له لأتفه الأسباب. يتربّع وراء مقود الحافلة عسكري متقاعد نحيف الأعضاء أسمر البشرة أدردُ، غارق في الحديث عن بطولاته ومغامراته الكثيرة على هذا الطريق، الذي يزاول عليه النقل العمومي منذ عشرين عامًا.

ينبعث من مسجلّ الباص صوت خافت للفنان سدوم ولد أيده منشدًا:

قادمٌ من مدائن الريح وحدي فاحتضِنّي – كالطفل – يا قاسَيُون!

لمس السائق المسجل خافضّا صوته وهو يقول منتشيًا:

– أذكر مرّة أني أصبحت هنا، وراء تلك التلّة غرب أبي تلميت. وما إنْ أذّن المؤذّن للعصر حتى كنت في النعمة!

التفت العجوز إلى الشاب الذي يجلس إلى جانبه منتظرًا بادرة إعجاب. لكن الشاب قال بخبث:

– عجيب! لعل ذلك كان أيام جدّة هذا الطريق!

لكن السائق العجوز، كما لو أنه انتفض لكرامته، قال:

– اسمع مني هذه القاعدة! إن السيارة لا تنغرس في الأوحال.. إنما ينغرس السائق. السائق الماهر يستطيع قيادة سيارته على أي طريق!

سكت العجوز الأدرد مُغضِّنًا جبهتَه مستعيدًا آلاف الساعات التي عايشها على هذا الطريق الذي يكاد يحفظ مكان كل حفرة وكل منعرج فيه. ورفع يده ليمسح فتات خبز من فوق شاربه الأعلى. ثم أخذ حفنة من الفستق ورماها في فيه بعد عرضها على الجميع وواصل بلهجة حزينة:

– أصبح كل من ملك مالًا واشترى سيارة يُسمي نفسه سائقًا... ليس الأمر كذلك، السياقة فنّ لا يتقنه إلا من عركته الطرق وربّته التجارب وراء هذا المقود.

قالها وهو يضرب المقود بكفّه.

لكن لم يعلّق أحد على كلامه بسبب نزاع احتدم بين الركاب على إدارة النافذة الوحيدة غير العاطلة في الباص. فقد اشتكت زوجة العجوز، الأربعينية السمينة، من الهواء القوي الآتي من النافذة المشرّعة، واعترض الشاب الجالس قرب السائق بأن أنفاسه ستنكتم إذا أغلقت. ولكن وسط الضوضاء حدث أمرٌ أنهى النزاع، إذ بصق زوج الأربعينية من النافذة، لكن الرياح أعادتْ جزءًا من بصقتَه لتستقرَّ على أنف زوجته، فصرخت:

– والله ألَّا السعلة! السعلة حتى!

رفع الكهل الأصلع المضغوط بين رجلين وسط الحافلة رأسه محرّكًا سبحته في الهواء:

– يا أخوتي تْراحمُوا! السفرْ منقطعْ!

سكت الجميع بعد مفاوضات جعلت الشاب الجالس في المقعد الأمامي يسمح بإغلاق النافذة وهو يغالب الضحك متأمِّلًا المرأة وهي تمسح أنفها بطرف ملحفتها متأففة، وزوجُها يحاول كتم ضحكة بادية في عينيه وعلى شفتيه.

كان الشيباني غارقًا يتأمل المناظر المتحرّكة خارج الحافلة، مستمتعًا بمتابعة اهتزاز رؤوس الأشجار بفعل رياح ديسمبر الباردة. كثبانٌ ممتدة تداعبها أشعّة الصباح، ومنحدرات وغياض مليئة بالأعشاب والأحراش، تتخلّلها أشجار السرح والأراك والطلح والثمام. وبين الفينة والأخرى تظهر في الأفق المصفرّ قطعانٌ من الإبل تمشي متكاسلة على الكثبان الرخوة، وظلالها تتموَّجُ على أطراف الكثبان.

خُيل إليه أنه رأى حُوارًا ينفصل عن قطيعه لتلتهمه الكثبان المسكونة أبدًا بالرياح والشياطين والرعاة وحكايات العابرين. كان ينظر إلى الإبل فيحسدها مفكِّرًا في أن الفصيل لا يعنيه مَن أبوه أو جدّه. وشعر بضيقٍ شديدٍ، وضغط على صدره، خاصّة وأنه بالكاد كان يستطيع أن يحرّك جسمه بين الركاب المتكدّسين جنبًا إلى جنب. ثم سمع صوت السائق:

– خلونا نتعارفو.... السفر أهلو لا بد يتعارفو!

أحكم الشاب الجالس قرب السائق لثامه ولم ينبس. وارتفعت يد الكهل الأصلع في الهواء:

– محمد ولد أحمد من أولاد ذهبان!

وانطلقت غمغماتٌ مختلفة من نواحي الباص كلٌّ يذكر اسمَه واسمَ

قبيلته. ولم يكن الشاب الجالس قرب السائق مستعدًا لذكر اسمه أو اسم قبيلته. ثم اضطرّ فذكر اسمًا غير حقيقي وانتمى لقبيلة تناصب قبيلته العداء.

مدّ السائق يده النحيلة بحماسة:

- علينا أن ننزل للمقيل في القرية القادمة.

وافق أكثر الركاب مع حماسة من زوج الأربعينية ومعارضة صارمة منها. بعد ساعة نزلوا فرادى أمام عريشٍ ضخمٍ، هرمي الشكل، منصوبٍ على قارعة الطريق. كان كل راكب ينزل منحنيًا بسبب طول الجلوس بين الأجساد، ثم يقف هنيهاتٍ يتمغَّطُ لاستعادة توازنه.

نزلوا والرياحُ تلعب بملابسهم الفضفاضة، وأطفالُ القرية يزدحمون على الباص لعرض مبيعاتهم من المثلجات والفواكه والبسكويت والمناديل والمساويك. ضحك السائقُ من طفلٍ كان يلحّ عليه لشراء حزمة مساويك، وهو يقول:

- ليست عندي أسنان أصلًا حتى أستاك! مسواكي الماء!

استلقى الركاب المتعبون متفرّقين داخل الكوخ الواسع، بينما اندفع شاب أسمر قصير في الركن لإيقاد النار وإعداد الشاي. ودخلت مالكة المطعم بهدوء آتية من عريش مجاور. كانت ثلاثينية تشبه الممثّلات الهنديات، معروفةً في المنطقة بقوة الشخصية وكثرة الزيجات. قالت بثقة مُعلّمةٍ في فصل ابتدائي:

- هيا، ما طلباتكم؟ فكل ما تريدونه موجود!

دارت العيون، ونظر الشيباني إلى الكهل الأصلع فرآه مسرعًا جهة شاة مسلوخة معلّقة غير بعيد يظلّلها الذباب. والتفت باحثًا عن الشاب الملثم فرآه مُتناوِمًا قرب الأربعينية المشغولة بفكّ ضفائر ابنتها.

وقف الشيباني محتارًا، فالعرف يفرض عليه تولّي دفع غداء الجميع، لكنه في حال من العوز وضيق ذات اليد. وهو خائف من المرحلة التي تنتظره. انتابه ضيق وهو يتذكّر أنه ذكر للجميع اسمه الحقيقي واسم قبيلته. مشى مترددا جهة الكهل الأصلع الواقف أمام الشاة المسلوخة. ما إن اقترب بخطوات مرتبكة حتى تلقّاه قائلًا له:

- والله لا تتكلّم ولا تدفع.... لقد رتبتُ كل شيء!

وخلال دقائق كانت رائحة اللحم المشوي المخلوطة بأريج فوَرانِ الشاي الأخضر تملأ زوايا العريش. وطاب الحديث، واكتشف الركاب الإمكانيات الكوميدية المميّزة لزوج الأربعينية. كان يستفزّها عن قصد، وينصب لها الشراك، فتقع فريسة سهلة عند كل محاولة. فلا يذكر أي فكرة إلا نقضتها ولا قصة إلا شكّكت فيها، ولا رأيا إلا عارضته. كان يتصيدها؛ ينفي المستحيلَ فتثبته، ويسلّم بالضروريات فتنفيها.

خلع عمامته وألقاها على الوسادة. ثم وهو يحكّ أسفل ذقنه برؤوس أصابعه مستنشقًا رائحة اللحم المشوي، قال:

- حانت صلاة الظهر.

لم يكمل العبارة حتى قالت وهي منهمكةٌ في فَلْيِ شعر ابنتها دون أن ترفع رأسها:

- ما زال!

وكان صوت الأذان يصدح من جهاز إذاعي معلّق على عربة يجرّها حمار نحيل على الطريق المار من أمام العريش. وغمز الزوجُ بعينه للسائق الأدرد، فابتسم بخبث وهو يشيح بوجهه جهة اللحم المصفوف بأناقة على الجمر، والشحومُ تسيل محدثة صوتًا واضحًا يختلط بصرخات العمال المنهمكين في أعمالهم غير بعيد.

جاء عامل يحمل صحنًا ضخمًا مليئا باللحم المشوي الطازج. وتقارب الجميع، وجلس الكهل الذي ظهرت صلعته الملساء كأنها مغسولة بالحليب قائلًا:

- عليَّ بسكينٍ، بسم الله!

واقترب زوج الأربعينية قائلًا بهمس:

- اغسلوا أيديكم!

دفعت زوجته ابنتها التي كانت منحنية على ركبتها وقالت:

- لن نغسل أيدينا! دعك من الفضول!

عندما اجتمع الجميع للأكل انحرفت متواريةً، وغسلت يديها وجففتهما بطرف ملحفتها. وخفتت الأصوات، ودارت الأسنان، وارتفع صوت المضغ. وقال زوج الأربعينية وهو يحسّ لسْع الملح على لسانه:

- هذا مالحْ يا إخوتي!

مرّت ثوانٍ لم تعلّق زوجته.. ثم نادت العامل طالبة ملْحًا. أفرغت الملح على قطعة اللحم التي بين يديها، ولم يزد زوجها على أن تمتم:

- أتمنّى ألا يقودك عنادك إلى السقوط شهيدة بسبب الملْح!

انطلقت ضحكة شاردة من الشيباني حتى طار فتات اللحم على وجنة السائق، فمسحه بسرعة، بينما كان الجميع يسمعون أصوات مسافرين جدد يدخلون إلى العريش، رفع الكهل الأصلع رأسه إليهم:

- تفضّلوا! تفضّلوا... بسم الله.

اعتذر القادمون وهم يأخذون أماكنهم في طرف العريش الواسع. وظهرت مالكة المطعم تمشي واثقة قادمة من الدكان المجاور لعريشها.

كان الشيباني أول من رفع يده عن الطعام شاعرًا بفقدان الشهيّة لتفكيره في ما هو مقبل عليه. تخيّل وصوله إلى هناك، وذلك الرجل الجالس وعلى كتفيه رداء. تخيّل نفسه يقدّم له ورقة ويده ترتعش متوسلًا إليه أن يكتب له إفادة. وعششتْ في ذهنه كل الأسئلة التي أرّقته خلال الأسابيع الطويلة الماضية. ثم عزّى نفسه بأن الفقيه معروف بورعه وعلمه وخبرته في الأنساب.

ابتعد قليلًا واستلقى على وسادة في طرف العريش، رافعًا بصره إلى الأقواس الخشبية التي تزيّن سقف العريش. وجاءه صوت السائق:

- أنا سأرجع من هنا إلى نواكشوط وسيتسلمكم ناقلٌ آخر.

لم يتكلم أحد، بل هزوا رؤوسهم موافقين. وقال الكهل الأصلع:

- يؤسفنا فراقك.. فقد تعارفنا.

اندفع الشاب الملثم:

- ما هذا؟ كيف تبيعنا لسائق آخر دون استشارتنا؟

وكانت الأربعينية متّكئة فجلست:

- لَى! هذا عادي! كل الناقلين يفعلون هذا!

لم يتكلّم السائق الأدرد، بل ظلّ جالسًا على حافة الحصير البلاستيكي صامتًا. أخرج من جيبه عدّة التدخين التقليدية؛ أنبوب عبارة عن قطعة من ساق خَروف، وقطعة جلد على شكل الأنبوب ذات طبقات يوضع فيها التبغ. ودسَّ السائق رأس الغليون داخل قطعة الجلد المحشوة بالتبغ الرديء. قرَّب غليونه من فيه بهدوء كأنه يودّ أن يعيش اللحظة كاملة. أشعله وجذب. ونظر في الأفق البعيد، فلاحظ غياب الأطفال عن قارعة الطريق، واكتظاظ الأعرشة بالمسافرين، ولمح غنيمات متجمّعات تحت شجرة ضخمة على الطرف الآخر من

الشارع.

ظهر السائق الجديد خارجًا من باصٍ أحمر اللون مشدود الباب الخلفي بحبل من الحلفاء. وشخصت أعين الركاب للمقارنة بين الباصيْن، وشعر كل منهم بغبطة بعدما لاحظوا تقارب حال الباصين.

سلّم السائق الجديد، ثم نادى:

- بسم الله، هيا بنا، أمامنا طريق طويل.

تقافزوا في الباص، بينما كان قلب الشيباني ممزّقًا بين عالميْن: ذلك العالم الذي تركه خلفه في الجامعة، وتتصدّره صورة تلك الفتاة الفاتنة، والعالَم الذي سيصله بعد ساعات والذي سيحدّد أمورًا كثيرة في حياته.

***

# 8

وما يترُكُ الإنســـانُ دُنيـــاهُ، راضياً

بعزٍّ، ولكنْ مُســـتَضامًا على قَسر!

المعرِّي

ما إنْ نزل الشيباني حتى شعر بصمت مطلق بعد ساعات طويلة من صخب نقاشات الركاب، وأزيز ماكينة الباص المتهالكة. أدار بصره في السهول المنبسطة والجبال المطلّة من الجهات الثلاث. مشى وحيدًا لا يسمع إلا دقاتِ قلبه ووقعَ قدميه وهديلَ حمام القمري على رؤوس الأشجار. ملأ أنفه أريجُ الخزامى والبشام والسرح فتذكّر أيام طفولته بقرية الكدية.

شمَّر كمَّيْ دراعته ووضعهما على عاتقيْه ورفع بصره في الأفق الممتد. جبالٌ داكنة بعيدة، وسهول ممتدة تتناثر فيها أشجار السدر والطلح والثمام، طيور تطير وتقع بين الفينة والأخرى على رؤوس أشجار تتثنّى، تداعبها الرياح. أعاد بصره إلى الأرض ينظر في خطوط الرمل. شعر بالخوف وهو يتذكّر تلك القصّة التي سمع جدّته ترويها له مرات.

كان عمّها يدرس بمحظرة في البادية حيث الثعابين كثيرة وقاتلة. وفي إحدى الليالي كان سهرانَ يقرأ متنَ «إضاءة الدجنة» في العقيدة. وفجأة أحسّ بلدغة في إبهام قدمه اليمنى.

وقف مرتاعًا وأخذ فأسًا قطع بها رأس إبهامه حتى لا ينتشر السم

إلى باقي جسده، فتلك وسيلة العلاج المتاحة. بعد لحظات انتبه إلى وجود شوكةٍ حادّةٍ في المكان الذي كان جالسًا فيه. شعر بندم طاغ، وبدأ يتمشّى منحنيّا باحثّا عن رأس إبهامه في الرمل ليرده إلى مكانه. اقترب من العريش القريب الذي كان فيه طالبان يذاكران. سألهما:

- هل رأيتم إصبعي؟

رد عليه أحدهما نصف ساخر ونصف جاد:

- كان هنا كلبٌ يشمّ الأرض قبل لحظات.

راح الشيباني يقرأ كل ما يعرف من أذكار الصباح والمساء وآيات التحصين من السم وخشاش الأرض. وتذكّر حديث جدّته عن أن الثعابين في هذه المنطقة لها إحساس بواقع الناس، فهي ترصد لحظات الأنس والفرح لتنقضّ على ضحاياها. فقد لدغتْ عروسين وهما في طريقهما للزفاف، والأدهى أنها لدغت أول ولد ذكر وُلد لبنت عمها خديجة.

وتراءتْ له أخصاص المحظرة وسط الوادي. أخصاص مبنية في شكل دائري، وعلى مسافة قريبة منها عريشان ضخمان يسكنهما شيخ المحظرة. وفي الجهة الشرقية من الأخصاص تتربّع خيمة صغيرة من الشعر يسكنها العمال.

وقف أمام الخص الأول في الجانب الجنوبي، فلمح شابًا نحيلًا باديَ الترْقُوة، في دراعة زرقاء من دون قميص جالسا وبين يديه لوح يقرأه باستغراق مردِّدًا:

«وَلاَ يَجُوزُ الابْتِدَا بِالنَّكِرَهْ ما لَمْ تُفِدْ، كَعِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَهْ»

أرخى الشيباني كمَّيه، وعدّل ملابسه وهو يقول:

- السلام عليكم... أين حوش الداه ولد الجياني؟

لم يقطع الشاب قراءته لنص ألفية ابن مالك. بل وقف مواصلًا القراءة، مادًّا يده التي تمسك مسبحة تحصي المرات التي يقرأ فيها المتن. ثم بعد لحظات قال بسرعة كأن الزمن ينفلت من بين يديه:

- الحوش الغربي مما يلي البطحاء.

عاد يقرأ بصوت غنائي:

- وَهَلْ فَتَى فِيكُمْ فَمَا خِلٌّ لَنَا وَرَجُلٌ منَ الْكِرَامِ عِنْدَنَا!

ولوّن الطالب صوتَه بالشطر الأخير، والتفت إليه الشيباني بنظرة امتنانٍ خجْلى ليريه أنه فهم الإِشارة الترحيبية الذكية.

بعد صلاة العشاء تكاثف الظلام داخل الخصِّ المصنوع من جريد النخل وأغصان الشجر وقطع القماش البالي. كان الضوء الوحيد داخل الخص ينبعث من وعاء حديدي مملوء بالجمر يتربّع عليه برادٌ يفور بالشاي الأخضر، بينما تملأ رائحة بخار الشاي المكان. يتحلق الطلاب حول الشاي يتحدّثون في كل شيء، ويمضغون الفستق وقطع البسكوت، وتترامى إلى أسماعهم هيْنمةُ الطلاب المنبعثة من الأخصاص المجاورة.

في مدخل العريش، ينبطح غلام في الثالثة عشرة من عمره واضعًا كفّيه تحت ذقنه. كان شيخ المحظرة أرسله ليُسمّع جزءًا من القرآن على ولد الجياني. لكن الجياني أهمله بسبب استقباله للضيف، فانتهزها الولد فرصة للاستماع لأحاديث الطلاب الكبار واحتساء الشاي وأكل الفستق. تعوي الريح الباردة خارج الخص، لاعبة بأطراف القماش السّميك الذي يلفّ الحوش للحماية من البرد.

كانت الأيدي متقاربة فوق الجمر للاصْطِلاء. تتقارب أيدي الشبان الأربعة، أيدٍ خشنة تشبه ظهر سلحفاة برية. وكانت بين تلك الأيدي

يدان بيضاوان جدًّا. يمدُّ ولد الجياني يديه ويكشف ضوء انعكاس الجمر على وجهه وجودَ بقية دمعٍ في مآقيه لاستنشاقه الدخان قبل قليل أثناء إيقاد الجمر. مسح طرفَ أنفه المحمرّ بكم دراعته وقال كأنه مختنق:

– الشيباني، حدِّثنا عن الجامعة. حدِّثنا عن الحياة في العاصمة، فنحن هنا في هذه الظروف التي ترى!

وقبل أن يجيب الشيباني ارتفعت اليدان البيضاوان وقال صاحبهما:

– هذا المكان أجمل من جامعة بيركلي بكاليفورنيا.

رفع الشيباني وجهه في خالد متأمِّلًا عينيْه الخضراوين ولحيته الصهباء ولونه الذي خُيل إليه أنه يزداد بياضًا كلما تكاثف الظلام. ورفع عبود البراد عن النار ممسكًا مقبضَه بكمّ دراعته ليضعه على طاولة الشاي. فتح غطاءه ووضع فيه ملء يديه سكرًا وهو يقول:

– طُوَيْس... دعكْ من هذا.

كان عبود شابًا أبيض قوي البنية، يعشق أحاديث النساء وإنشاد أشعار الغزل الفصيح والعامي. يقضي وقته في قراءة الأشعار والمراجعة غير الجادّة لمختصر خليل. فهو ينحدر من عائلة مشهورة بالعلم والمحافظة. كان جدّه من أعلم أهل عصره مما يحتّم عليه اجتماعيًّا أن يكون متعلِّمًا تعليمًا دينيًّا، لكنه كان أبعد ما يكون عن التديّن. كانت له هوايات أخرى. يدرس مختصر خليل، لكن قلبه معلّق بعوالم بعيدة عن هذه المحظرة المتوارية في حضن جبل.

يخرج كل ليلة بعد العشاء من أعرشة الطلاب متّجهًا إلى حي غير بعيد، باحثًا عن الأنس مع فتيات يتجمّعن للغناء على حافة البطحاء.

وأعجبت الشيباني كنية «طويس» فقال باسمًا:

- طويس المشؤوم؟

فضحك عبود:

- هو، لا غيره! أخونا خالد وُلد في كاليفورنيا، وتربّى فيها، ودخل جامعة بيركلي متفوِّقًا. لكنّه تركها ليرميه الزمن طالبًا في محظرة عيون الخيل! أي شؤم؟!

ضحك الجميع، واستعاد الشيباني في ذهنه قصة طُوَيْس الذي ضربت به العرب المثل في الشؤم. فقد وُلد يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وفُطم يوم وفاة أبي بكر، واحْتَلم يوم مقتل عمر، وتزوج يوم مقتل عثمان، ووُلد له يوم مقتل علي.

كان خالد قد سمع قصة طويس مراتٍ من أصدقائه، وكان قد تعوّد على نمط طلاب المحظرة في المزح فلا يزعجه ذلك. بل كان حريصًا على العلاقة الطيبة مع طلاب المحضرة، فلا يمانع من أي قصة أو تشبيه ولو فيه سخرية. لأنه كان سعيدًا بتعلّم علوم جديدة عليه.

مدّ خالدٌ يده لأخذ كأس من عبود وهو يقول:

- بالعكس.. أنا أسعد أهل الأرض وأوفرهم حظًّا. أنتم مدفونون في الذهب من دون أن تعلموا. فاكتشاف المعادن يحتاج إلى أدوات تفتقدونها للأسف.

احتسى الجرعة الأولى وواصل:

- التعليم المحظري هو أفضل تعليم على ظهر البسيطة. أتدرون لماذا؟

قال الشيباني بفضول:

- لماذا؟

- لأن التعليم المحظري مبنيٌّ على الحرية المطلقة. فالطالب هو

الذي يقرّر المادة التي سيدرسها، والمتنَ الذي سيدرسه، ويختار رفاق الدراسة، ويختار الشيخ الذي يُعلِّمه. وهو الذي يختار كذلك وقت الدرس، ويقضي عمره كله دون أن يمتحنه أحد، ولا يراجع دروسه من أجل الامتحان بل من أجل المعرفة. ولذا فهو يتعلّم ما يحب عن قناعة، من دون انتظار تقييم من أحد. ولعلكم لا تعرفون أن آخر الدراسات في الولايات المتحدة تميل إلى تبنّي هذا النمط المحظري... ثمّ لا تنسوا أن هارفرد والسوربون وغيرهما كانت في الأصل محاظر.

سكت خالدٌ، وسمعوا صوت شيخ المحظرة ينادي بأعلى صوته:

- يا محمد! يا محمد!

أزال الولد القابع عند باب الكوخ يديه من تحت ذقنه وقال بأعلى جهد:

- هَوْ! جيتكْ!

لكنّ صوته كان ضعيفًا جدًّا، وبالكاد سمعه الطلاب المتحلِّقون حوله. واصل شيخ المحظرة النداء:

- يا محمّد.

وواصل الطفل الإجابة بصوت مبحوح لا يكاد يسمعه الجالسون حوله:

- هوْ، جيتك!

قال عبود:

- اذهب إلى والدك فلوْ صرخت عمرك كله لما سمعك. لقد أكثرت من أكل النبق النيء الأخضر حتى اختفى صوتك.

ضج الكوخ ضحكًا. كان عبود يعلم أن الولد ذهب صباحًا يرعى الغنم، وعاد مساءً حاملًا كمية كبيرة من النبق لم تنضج. وركض الولد

إلى والده، وأتبعه الجياني عينيه وهو يقول:

- لقد سمعت المرابط اليوم يتأفّف قائلًا إنه ملّ هذه الدنيا ويود الرحيل عنها.

قال خالد:

- متَّعه الله بالصحة والعافية وأطال عمره!

وجاء صوت عبود وهو يحرّك الجمر:

- وإذا الشيخُ قال أفٍّ فما ملَّ حياةً.... ولكنْ الضَّعفَ ملّا!

ورمى الجياني حبّات من الفستق في فيه وقال بمخارج حروف غير واضحة:

- كلامك عن المحظرة صحيح. فعلماؤنا عندما يذهبون إلى الخارج يبرزون ويتفوّقون على بلدان توجد فيها مؤسسات مدعومة راسخة في التعليم، ويزيد سكانها على عشرات الملايين. أما نحن فمحاظرنا لا يدعمها أحد، وعدد سكاننا قليل ومع ذلك لا يستطيع أحد منافسة علمائنا.

قال خالد بحماسة:

- صدقت، الشناقطة مبرزون عالميًّا.. وإلا، لمَ يوجد في هذه المنطقة المعزولة أمثالي، وأمثال ذلك الشاب الخليجي المسمى جاسم، والشبان السنغاليون والجزائريون والمغاربة.

رفع عبود وجهه ساخرًا:

- ليت أنّا تميَّزنا بأشياء أخرى...

- كيف؟

- أي تميّز يا رجل؟! إنّ قدم لاعب برازيلي واحد، وأثداءَ ممثلةٍ

أميركية واحدة، أغلى في موازين العالَم من كل دراعةٍ تُخرجها المحظرة! المحظرة ما زالت تُدرّس متنَ عسكريٍ مصري من العصر المملوكي يزعم أن أمد الحمل خمسَ سنين! خمس سنين، في عصر العولمة والإنترنت تنقلب فيها الدنيا!

انقبض الشيباني متسائلًا: أيُعقلُ أن تكون قصته في الجامعة قد وصلت إلى هذا المكان النائي؟ أم هذا مجرّد اتفاق! وتخيّل أن لعبود أصدقاء في الجامعة، خاصة من طريقته في الحديث واهتماماته وثقافته التي بدت أوسع من دائرة التعليم المحظري. بل سافر خياله مقارنًا بين طريقته في الحديث وطريقة زميل كان معه في قسم اللغة العربية. وهمّ بسؤاله عما ذكر، ثم سكت. وواصل عبود:

- نحن الآن في عصر يُعرف فيه جنس الولد خلال الأشهر الأولى من الحمل، وخليل يقول نصًّا: «وتربّصتْ إن ارتابتْ به، وهلْ خمسًا أو أربعًا خلافٌ!».

شعر الشيباني بسهم مسموم ينغرس في سويداء قلبه. كيف أتركُ الجامعةَ هاربًا من أمر أَجده ينتظرني لحظة وصولي للمحظرة! وهمّ بالحديث، ثم حبس لسانه متذكّرًا أنه ما زال ضيفا نزل قبل ساعتين. وأنقذه صوت خالد موجّهًا حديثه إلى عبود:

- نصّ «مختصر خليل» لا بأس به، ويمكن أن يدرَّس باعتباره جزءًا من تاريخ الأفكار. فذاك مبلغ علم الناس يومها، والدين يتَشَوَّفُ للستر وإلحاق الولد بالفراش كما تعلم.

أمسك الجياني عودًا وحرَّك به الجمر وهو يقول بلهجة إعجاب:

- أحسنت خالد... لله درك.

وواصل خالد:

- عبود، إن وجود مثلك هنا بأفكاره هذه دليل على عظمة المحظرة. فلو كنت في أي ابتدائية في العالم لطُردتَ بتهمة «الإيذاء اللفظي»، وشُرّدتَ بما يسمى في المدارس الإعدادية عندنا بـالتنمّر أو (bullying). أما هنا فطبيعة الحياة البعيدة عن العُقَد تخدمك.

شعر الشيباني بتوتّرٍ ضاعفه الإرهاق الشديد بعد يوم من السفر الطويل، فاستأذن ليستلقي في طرف الكوخ. وقف الجياني وأتاه بلحاف نظيف مُدَّخَرٍ للضيوف. استلقى الشيباني محدّقًا في الظلام، مفكّرًا في لقائه بشيخ المحظرة، ومتى يمكن أن يفاتحه في ذلك الموضوع.

***

# 9

تواصــلَ حبلُ النســلِ مــا بين آدمٍ
وبينــي ولــم يُوصَــلْ بلامِــيَ باءُ!
**المعرِّي**

تململ الحيُّ الصغير مُستيقظًا بعدما استرخى طويلًا تحت عباءة ليلة شتائية. اختلط ثغاء الشاء وصياح البقر بحنين الإبل وصرخاتِ الرعاة المنهمكين في حلْب النوقِ قبل سَوْقها إلى المراعي الغافية في سفوح الجبال القريبة. ترتفع أصوات الطلاب بالقرآن ومتون الفقه واللغة والشعر وعلم الكلام، وتهبُّ رياح باردة تلعب بأطراف شجرة الطلح الباسقة المنتصبة بين الأخصاص. وفي المصلّى الصغير الواقع وسط الأخصاص قرب الشجرة يرفع المرابطُ عينيْه في الأفق واضعًا يسراه فوق أهدابه ليتأكّد من ارتفاع الشمس حتى يصلّي الضحى.

ومع الوقت الباكر بدأت أكواخ الطلّاب تخلو. جلس الشيباني على باب الكوخ، فلمح مجموعة من الطلاب متفرّقين في مُنقَطَع الوادي، كلٌّ يحمل لوحًا وكتابًا باحثًا عن بقعة مناسبة للمذاكرة. تفرّقوا في الكهوف والأشجار القريبة لحفظ الدروس والتكرار والمطالعة، ثم لمح المعزاة الشهباء تخرج من الكوخ المجاور تمضغ صفحات من ابن عقيل. ركض وانتزع الكتاب منها وهو يبتسم مستعيدًا حديث عبود البارحة.

عاد الشيباني يلملم أوراق ابنِ عقيل، بينما تلقّاه ولد الجياني عند

باب الكوخ بعد أن أنهى كتابة نصّه اليومي استعدادًا لدراسته على المرابط.

- أنا خارج للمرابط، أتأتي معي؟

قالها الجياني، ثم التفت إلى عبود الذي ما زال ملتفًا في لحافه يغطّ في نومٍ عميقٍ. مد الشيباني الكتاب للجياني باسمًا:

- سألحق بك، هذا الكتاب انتزعته من بين فكي الحافظة!

أسرع الجياني مشمّرًا عن ساقيه الدقيقتين رغم البرد القارس، ودخل إلى عريش المرابط، فوجد خمسة طلاب سبقوه، ولمح آخرين آتين من الشمال، وقد حوّلت الرياحُ دراريعهم الواسعة إلى مظلّات تستعد للهبوط.

كان المرابط متربعًا في هدوئه المعتاد، مميَّزا بلحيته الكثة البيضاء وأهدابه الكثيفة، وابتسامته الدائمة، وأسنانه القوية التي ما زالت تلمع رغم بلوغه الثمانين. تربع واضعًا قدمه اليمنى على فخذه اليسرى، وكأسٌ من حليب البقر بين يديه. رفع الكأس ورشف منها رشفات ثم وضعها أمامه ومسح شفتيه بسبّابته، وقال للطالب الأقرب إليه:

- قدّمْ!

انطلق الطالب يقرأ متنا في التجويد، والشيخ يشرح ضاربًا الأمثلة، ويخطّ خطوطًا توضيحية على الرمل الذي أمامه. وهدأت الأصوات. كان واضحاً أن كلَّ طالبٍ يصغي بكامل سمعه ليلتقط كل فكرة أو عبارة تصدر من فم الشيخ. فقد علّمتهم التجربة أن ما يتعلّمه الطالب من تدريس الشيخ للآخرين يساوي في أهميته ما يدرسه بنفسه. فقد يسمع الواحد منهم في أوقات انتظار دوره كتبًا كاملة، ونقاشات علمية مهمّة ترسخ في ذاكرته. وانتهى طالب التجويد، وتلاه طفل صغير يدرس متنا

في السيرة، وحان دور طالب سنغالي سيبدأ في دراسة التحفة السنية في النحو.

وما إن بدأ الطالب السنغالي حتى نطق السين شِينًا، فضحك طالب صغير مُقَشَوْشِب الأنف، يلبس دراعة من دون قميص، ولفحه المرابط بنظرة، فذبلت الضحكة على شفته.

كانت للمرابط طريقة مميزة في الحديث. كان يتكلّم رافعًا بصره إلى سقف العريش، ثم يفاجئ الطالب الذي يدرس بالتحديق في عينه وسؤاله سؤالًا محدّدًا ليتأكّد من حضور ذهنه. وازداد حضور الطلبة مع ارتفاع النهار، فقدِم بعضهم من الوادي بعد حفظ دروسهم اليومية، وأصبح الجالسون داخل العريش نحو العشرين. وظهر الشيباني قادمًا يتعثّر في دراعته.

عندما لمحه المرابط توقّف عن الشرح، وسأل:

- من هذا الطالب؟

فقال ولد الجياني:

- هذا شاب من مجموعتنا، من قرية الكدية، جاء البارحة.

- ولد من؟

- ولد الشيباني

كان المرابط موسوعةً في علم الأنساب ومعرفة الأسر والبطون والقبائل. ومما راج عنه أنه يستطيع سرد أسماء كل البالغين من أبناء بطنه الوافر.

زمَّ شفتيه وقال:

- الشيباني ليس اسم عائلة في الكدية.. الشيباني ولد آش؟

سكت الجياني، واقترب الشيباني. أعاد المرابط عينيه إلى الرمل الذي بين يديه وهو يُمر يده على لحيته البيضاء، وقال:

- يا مرحبًا وأهلًا!

وانحنى الشيباني ليدخل العريش. ورحب به المرابط بحرارة، ثم جلس باستحياء في طرف المجلس. وتعاقب الطلاب على الدرس، وتنوّعت النقاشات من إشكاليات النحو ودقائق الفقه إلى قواعد الأصول.

كان يستلقي قرب المرابط صديقُ طفولته أَبَّاهْ، المميّز بصلعته الملساء وتمائمه الكثيرة المعلّقة على صدره. كان يستلقي بطريقة خاصة. يستلقي على جنبه، غارزًا مرفقَه الأيمنَ في الأرض، ويده تحت خده، مُغمضًا عينيه. كان الوحيد الذي يملك حق التعليق وقتما شاء على من شاء وبأي طريقة شاء أثناء الدرس. وهو بهذا الامتياز يتولّى عن الطلاب التعليقات التي لا يستطيعون التفوَّه بها احترامًا للمرابط ولجَوّ التدريس.

وصل أحدُ الطلاب إلى دراسة مواقيت الصلاة في مختصر خليل. طال النقاش حول اختلاف المواقيت، وما العمل إذا طال النهار أو قصر، وتشعب الحديث إلى مواقيت الصوم في حال استمرار النهار عشرين ساعة. قال طالب في طرف المجلس:

- حدّثني أبي أنه سافر من الجزء الجنوبي الأرض إلى شرقها وضاع عليه يوم، فما حكم صلاة ذلك اليوم؟

سكت المرابط قليلًا يخلّل لحيته بيده مفكِّرًا. وقبل أن يجيب فتح أَبَّاه عينيْه العميقتين وقال:

- ذاك ما هو حق!

وضحك الطلاب بحياء، وتبسَّمَ المرابط قائلًا:

- ذاك أمر ممكن حقًا. فدوران الأرض حول الشمس، وسرعة الطائرة قد يفقدان المرء يومًا أو بعضَ يوم. والخلاف قائم هل يُقضى ذلك اليوم أم لا.

وانحسر لثامٌ أسود عن فم الشاب القصير الحَيِيِّ الجالسِ قرب المرابط. كان هذا الطالب قد أكمل أهمّ المتون، لكنه يحضر الدروس للمذاكرة فقط. فعليه يعتمد الطلاب للمذاكرة. حك ذقنه وقال بحياء، وعيناه إلى الأرض:

- المرابط... هل يمكن هذا؟ وهل من نقل الخبر عدل؟ هذا عجيب.

في هذه اللحظة، ضحك شاب في طرف المجلس وقال بلهجة خليجية موجِّهًا نظراته للشاب الحيي:

- يا شيخ عبد الله، الله يهديك! أنا سافرت من البرازيل إلى الدوحة، ومن أستراليا إلى جنيف، ودرتُ في مناكب الأرض كلّها.

قاطعه أبّاه من دون أن يفتح عينيه:

- ذاك ما هو حق!

التفت جاسم إلى الشيباني، حيث كان أقرب الجالسين منه قائلًا:

- وايشْ يقول ها الشيبة؟

انحنى الشيباني على جاسم:

- قال إن تلك خرافات... أحاديث فحسب!

جلس أبّاه يفرك يديه رافعًا حاجبيه بنصف ابتسامة:

- هذ أمر غير منطقي. أنا أعلم أن المرابط مثلكم، تمامًا مثل أبناء

هذا الزمن، يرى أن الأرض كروية! لكنْ عندي سؤالٌ لم يجب عليه أحد.

وشخصت عيون الطلاب إليه. قرَّب الوسادة الجلدية ودسّها تحت فخذه، فظهرت العروق الكثيرة التي تميّز صلعته الملساء. حرك عينيه العميقتين بسرعة وأشار بيده إلى الغرب، وقال:

- أنا منذ خمسين عامًا أنام وأستيقظ وهذا الوادي في مكانه ذاك. لم يحدث في يوم من الأيام أن استيقظت فوجدته شرق الحي، بمكان مراح الإبل! ولو كانت الأرض تدور لكان أحيانًا يكون شرقًا وأحيانًا غربًا.

وسكت قليلًا، ثم أضاف:

- وإذا كانت الأرض تدور فلمَ لا يكون رأسي إلى الأسفل أحيانًا وتسقط هذه التمائم، وحينها سيندلق ذلك الحليب الذي أمام شيخكم.

وضع المرابط يده على فيه مغالبًا الضحك. وتدخّل الشيباني من طرف المجلس:

- هل ركبت السّيارة لمرّة؟

انتقلت العيون إلى الشيباني، واستغرب الطلاب جرأته وطريقته في السؤال. وردّ أبّاه:

- والله!

أنزل الشيباني لثامه عن فيه وقال:

- كانت السيارة تسير بك سيرًا حثيثًا وتدور دورانًا. فهل طار السائقُ لتجده في مؤخرة السيارة؟ أم ظل في مكانه مثل ذلك الوادي!

ساد صمت. ونكت أبّاه في الأرض بإصبعه. ثم رفع وجهه وعيناه تبرقان:

– ما شاء الله! هل تعلم أن هذا أذكى ما قيل لي في شرح دوران الأرض. حتى مرابطكم هذا لم يقله لي.

وغالب المرابط الضحكَ ويده ما زالت على فيه. ثم قال كلمته المعروفة المؤذّنة بنهاية النقاش:

– قَدّمْ! قَدّمْ!

عاد أبّاه إلى استلقائه المعتاد مغمضًا عينيه، تلعب أصابعه المتجعّدة بأطراف التمائم الجلدية الكثيرة المتدلية على صدره. وواصل الطلاب دروسهم الواحد تلو الآخر، والمرابطُ منهمك يتجوّل بين الفقه واللغة والشعر والأنساب والتاريخ والتصوّف والمنطق. كان الشيباني متوتّرًا مفكّرًا في لحظة حديثه مع المرابط بعد أن ينهي كلُّ الطلاب دروسهم. كان يفكّر في الطريقة التي سيسأله بها.

التفت الطلاب فجأة عندما شاهدوا عبودًا يركض خلف المعزاة الشهباء المشهورة في المحظرة. ظلّ يركض خلفها حتى أمسكها من رقبتها. أخرج من جيبه ورقة ووضعها في فمها فبدأتْ تلوكها.

دخل الطلاب في ضحك هستيري. ولم يفهم المرابط الأمر، وعلم الطلاب من خلال نظراته أنه يودّ فهم القصة. وتدخّل أحد كبار الطلبة:

– تلك المعزاة الشهباء كما تعلمون لا تترك كوخًا إلا دخلته باحثة عمّا تأكل. واشتهرت بين الطلاب بانتقائها للكتب التي تأكل، حتى صار الطلاب يتحدّثون عن أنها طالبة مجتهدة. وقبل شهرٍ وجدها عبود تأكل مصحفًا. ثم حدّثه أحد الطلبة أنها أكلت في الأسبوع الثاني عدة كتب في القراءات ورسم القرآن وضبطه وتجويده. وعند ذلك أصبح عبود يسمّيها «الحوَيْفظة» وقرّر أن يكتب لها إجازة في القرآن الكريم ويعطيها نسخة كاملة لتأكلها.

رفع المرابط يده إلى فيه وندّت من فيه ضحكة على غير العادة، فأكثر ضحكه تبسُّم. وفتح أبّاه عينيه وجلس، وهمّ برمي تعليق حارق، ثم غالب نفسه وسكت.

مرّت الساعات سريعة مَلْأى بنكت العلم والطرائف والتعليقات اللاذعة الآتية كل حين من جهة أبّاه. وخرج الطلاب واحدًا تلو الآخر، وظل الشيباني جالسًا في مكانه. ولما ارتفع النهار واقترب وقت الظهر خرج أبّاه ماشيًا مشية من يتوكّأ على واحد وثمانين عامًا، بينما ظل الشيباني جالسًا متلفِّفًا في دراعته زائغَ النظرات.

اقترب من المرابط كأنه يناجيه. وأفرغ كل ما في جمجمته دفعة واحدة في أذنه. كان المرابط ينصت باهتمام؛ فقد علّمته عشرات السنوات من تقاضي القرى المحيطة به كيف ينصت وكيف يميز بين كلامه قاضيًا وحديثه معلِّمًا وتوجيهه ناصحًا.

أفرغ الشيباني كل شكوكه وآلامه. تحدّث عن طيف أبيه الذي لم يره قط، وعن التهمة التي رماه بها طالب من قريته في صفوف الجامعة، وعن حديث جدته عن ميلاده من حمل استمر عامين.

شعر بدوار من تقيَّأ طعامًا فاسدًا. رجع إلى الوراء قليلًا مسندًا رأسه إلى عمود العريش، شادًّا عليه أطراف دراعته.

أخذ المرابط عودًا كان بين يديه، وبدأ يخط به على الأرض:

- سألتني هل أعرف والدك الشيباني. قلتَ إنه مهندس من بني جيان، وأن جدّتك قالت إنه ولد المختار؟ أنا أعرف قبيلة الجيانيين جيّدًا. وفيهم عوائل باسم المختار، لكنني لا أعرف فيهم اسم الشيباني، ولا أظنّها من أسمائهم. أما قضية أمد الحمل فقد أجمع فقهاؤنا على أن الحمل قد يستمر سنوات تصل للأربع قطعًا. وقد قال خليل: «وهل

أربعٌ أو خمسٌ خلاف؟».

رمى المرابط العود من يده ونظر إلى الشيباني فرأى عينيه متقلّصتين، وجبهته الواسعة تتفصّد عرقًا رغم الجو البارد والرياحِ الشتوية العابثةِ بأطراف العريش. لمح عينيه فرآهما جحظتا وتوسّعتا، لكنها ليست سعة تفاجئ، فلا وقت لديه للمفاجأة. كل ما فيهما هو الترقب والتحرّق والانتظار... انتظار الواقف المتأرحج على جرف هُوةٍ سحيقة.

نظر الشيباني إلى الأرض، وقال:

- أتمنّى أن تكتبوا لي فتوى بشأن مَخْسورْ وأنه ملحوق بأبيه قطعًا.

- طبعًا، والله، هوذاك حكم الشريعة في الأمر.

قالها المرابط، ثم نادى ابنه ليأتي بورقة وقلم. وجاء الفتى يركض من العريش القريب الخاص بسكن الأسرة.

بعد دقائق كان الشيباني يمشي بين الأخصاص وفي جيبه تلك الورقة التي يثبت فيها أحد أكبر علماء البلد نسبةَ الطفل لأبيه ولو وُلد بعد افتراق والديه بسنوات.

حث الخطى متأملًا الأخصاص المتناثرة والأفق الأزرق، حيث تبدو الجبال القريبة مغطاة بلحاف نباتي رقيق. ونعق غراب كان جاثما على رأس الشجرة الضخمة، وشاهد المعزاةَ الشهباء تجري وخالدٌ الأميركي يركض وراءها بعد عبثها بأشيائه. لكن خياله كان مليئًا بآلاف الأسئلة الحارقة والصور الدالّة والقصص التي تعشّش في أذنيه لا تبرحهما. وصل كوخ ولد الجياني، فوجده خاليًا حتى من عبود الذي ذهب يقرأ ديوان المتنبي مع بعض أصدقائه في عريش مجاور.

تجاوز الأكواخ متّجهًا إلى الوادي. نزل البطحاء البيضاء ذات الحصباء الناعمة التي تظلّلها أشجار السدر والدوم والطلح الملتفة.

وشعر بازدياد البرودة، فبعض حنايا البطحاء ما زالت تمسك بركًا من أمطار سبتمبر الماضي. ملأت أنفه رائحة السدر ونُوَار السَّلَم والمَرْخ مخلوطة برائحة الماء الراكد. جلس على صخرة متأمِّلًا الوادي المعشوشب، وهو يسمع بين الفينة والأخرى قراءةَ طالبٍ منزوٍ تحت شجرة، أو تغريدَ طائر على فَنَن، أو حنينَ ناقة مُتولّهة تبحث عن فصيلها. ورأى رجلًا أسمر يعزف ربابته وهو يسوق قطيعًا من الغنم. شعر بعلاقة خاصة بالمكان، وبالهدوء الذي خلع سكينة على روحه المليئة بالعواصف العاتية، والنوازع المتضاربة، والأسئلة الأبدية التي لا ينحل منها واحد إلا ترك مكانه لآخر. أحسّ بالأمان هنا أكثر، واستعاد صورة الجامعة وآلاف الأعين التي تفترسه ما بين حاسدٍ ومعجَب وحاقدٍ ومتطلّعٍ.

شعر بعلاقة خاصّة بالمكان وهو يلمس الورقة التي في جيبه. وفكّر في قيمة كل نقد قرأه للنظريات الأدبية الحديثة، وكل معرفة بالحياة الثقافية المعاصرة، وبالفلسفات المتعارضة التي درسها.

رفع يده إلى وجهه ولمس طرف جبهته مفكّرًا في أنه وقع على كنز معرفي في هذه الربوع. وفكّر في المرابط وهو يشرح العقيدة والمنطق والأصول والنحو... وخيل إليه أن هذه هي العلوم التي تستحق الدراسة. وتذكّر الدروس الجامعية فبدت في ذهنه ذكرى بائسة لعالَمٍ قديمٍ. وخطر له أن هذه العلوم هي العلوم الحقّة المتصالحة مع مجتمعه. هذه المحضرة وخريجوها هم الوحيدون الذين استطاعوا جعله ينتمي إلى أبيه. وعقد العزم على المكوث هنا دهرًا.

وتذكّر المرابط يقول:

– نحن مالكيون جنيديون!

وتمتم في قرارة نفسه:

- وأنا كذلك.

رفع بصره بعيدًا فلمح أخصاص الطلّاب في الأفق، ورأس الشجرة الضخمة الراسخة الجذور. وتسلّلت إلى فمه ابتسامة سعادة لم يتذوّق مثلها منذ أسابيع، مستعيدًا حديث خالد عن هذا المكان وهم جلوس يتدفّأون. ولمح المعزاة الشهباء تركض... وخطر له أن يبقى هنا وقتًا أطول متواريًا عن كل شيء... حتى عن ذلك الحب الذي يملأ أحشاءه.

ترامى إلى سمعه صوت طالبٍ تحت شجرة قريبة ينشد من معلقة النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُدرِكي وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنتَأى عنك واسعُ!

أعاد نظره إلى الحي وهو يرى نحو عشر بقراتٍ تمشي الهوينا بانتظامٍ عائدة إلى مراحها في سكون سرمدي.

لم يكن ليخطر له أن هذا الهدوء سيقلقه خبرٌ سيشغل الحي طيلة الأيام القادمة.



# 10

قُلِـبَ الزّمانُ، فـرُبّ خَـوْدٍ تَبتَغي
زَوجًـا، وتبـذُلُ غاليًـا مـن مَهرِهِ!
**المعرِّي**

بدأت جلَبَةُ الرعاة تخفّ رويدًا بعد أن أنهوْا حلب النوق بعد صلاة العشاء، وطفق السكون يغزو حيّ عيون الخيل. انقطعت أصوات حنين الإبل وثغاء الشاء، وبقيت أصوات متقطعة لبعض الطلبة المنهمكين في مراجعة دروسهم، مختلطةً أحيانًا بأصوات أطفال يلعبون لعبة «سيْلُوم» في جنوب الحي، فغدًا يوم خميس.

أطل القمر بدرًا، فانعكس شعاعه على جانب البطحاء الغافي شمالًا، كما دخل شعاعه كل كوخ وخيمة مُخلّفًا توقًا طافحًا إلى السَّمَر والأحاديث. تتربّع وسط البطحاء شجرة سدر كثيفة، اعتادت فتيات الحي الجلوس تحتها يتسامرنَ في الليالي المقمرة.

اجتمعن على عجل وجلسن في حضن الشجرة اتقاءً للبرد. كن نحو العشرة، وكنّ مستعجلات للحديث عن ذلك الخبر الذي سرى في الحي منذ العصر سريان الفضيحة. خبر لم يبقَ لسانٌ إلا لاكه، وما بقيت عجوز أو فتاة إلا أعادته مرّات، وما بقي أحد إلا كان له فيه رأي. حتى إن العجوز أبّاه انتظر المؤذِّنَ حتى أقام للصلاة ودخل المصلّون في صلاة العصر، فالتفت إليهم وقال بعد أن رفع يديه لتكبيرة الإحرام:

– سيفتكُ ذلك العربي الليلة بتلك الفتاة... الله أكبر!

لم تنتظر مريم، بل سألت وهي لا تزال واقفة، وطرف ملحفتها عالق بطرف الشجرة:

- أين رقية؟

- غطت وجهها ولم تخرج من خيمة أهلها منذ العصر.

جلست مريم وظهرها إلى الشجرة قائلة:

- يطيركْ ياذيك السَّحْوة... لمَ الحياء؟ إن فؤادها يرقص شوقًا للقاء ذلك الغريب...عياذًا بالله!

ضحكن، وهنّ يجلسن في حلقة دائرية متحدّثات بصوتٍ واحدٍ. فلسان كل منهنّ طافح بعشرات التعليقات حول الخبر الخطير: لقد قام الطالب الخليجي جاسم بخطبة رقيّة من أبيها... فوافق.

كان الخبر صادمًا إلى درجة أن عبد الرحمن - شقيق رقية - شُوهد اليوم يمشي متعثّرًا في دراعته دون قميص أو لثام. وهو أمر لم يشهده الحي إلا مرة واحدة، يوم وفاة أمه.

فكيف لفتاة من بنات أجداده أن تتزوج رجلًا مجهول الحال والنسب؟

لكن والد رقيّة أصر على الأمر ولم يقبل فيه نقاشًا. فعندما حاول عمُّها ثنيه عن الأمر بوساطة من المرابط، تحدّث والدها عن قيم الإسلام، وعن المساواة وعن أنه لا فضل لعربي على أعجميّ إلا بالتقوى. واستشهد بآية «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا». ولم يجد المرابط ما يقوله بعد أن غمره أبو رقية بترسانة من الآيات والأحاديث القطعية المؤكّدة على تساوي البشر. وأمطره بقصص من السيرة النبوية ومساعي النبي صلى الله عليه وسلم لتزويج القرشيات بالعبيد السابقين والمَوالي. ولم يبق

أمام المرابط - وقد شعر بكل أسلحته تُستخدَم ضده - إلا أن يقول إن العادات والأعراف تُراعى شرعًا، وإن العادة قد تكون مقدَّمة هنا لما قد يترتّب على الزواج من مضرّة للفتاة وأبنائها.

قالت مريم لبقية صديقاتها:

- مسكينة، لو كانت أمها على قيد الحياة لما وقع هذا!

انفجرت بنت خالة رقية باكية، وهي تتذكّر خالتها التي توفّيت قبل ستة أشهر... ودارت دموعها، ثم نظرت إلى البدر المطلّ فتخيّلته غريبًا جاء ليسرق البهجة ويولي راكضا بساقين يابستين مختفيًا وراء التلال. ثم أعادت بصرها إلى مريم، وهي ترى خيلانَ وجنتها بوضوح تحت القمر:

- إنما أكل الحسد قلبك!

راتفعت الأصوات، وتوتّر السمر. فمريم لم تتزوّج بعد، وقد خطبها ستة رجال من أبيها فرفض بحجة أنهم ليسوا أكفاءً لها. وهو أمر تألّمت منه كثيرًا في نفسها، لكنها تتفاخر به بين صديقاتها. حتى إنها قالت مرة لإحداهنّ:

- أنا لا أُباع ولا أُشرى... لست مثل بعضهنّ، لا يطرق طارق الباب إلا رُمينَ له.

ومرت أتانٌ تركض ووراءها حمارٌ تدفعه بحوافرها.

عادت مريم للحديث، وهي تلفّ طرف ملحفتها حول رأسها:

- ينبغي على بعضهن الاقتداء على الأقل بالحيوان... أما مجاراة بنات الأكابر فأمر صعب.

ساد صمت، ولم يُسمع غير الرياح الشتوية العابثة برؤوس الأشجار على طرفي الوادي. واتضح أنهنّ لن يغنّين على عادتهنّ الليلة، ولن

يحاول عبود الاقتراب ومحاولة مجالستهنّ خلسة. واندلع نقاش حامٍ بين الأقرب رحمًا إلى رقية للدفاع عنها، والأقرب رحمًا إلى مريم للوقوف إلى جانبها. ثم عاد الصمت، وتناهت إلى أسماعهن ضحكاتُ مسعودٍ في خباء مباركة غير بعيد.

كان مسعود قد عاد عشاءً يسوق الإبل، فتلقّته مباركة لتخبره أن رقية ستتزوج من طالب «عربي». لم يعلّق الراعي مسعود. بل رمى عصاه عند طرف الخيمة، ومشى إلى متكأ الجريد المنصوب له. وبعد أن جلس واحتسى كأسا من الشاي تنحنح وقال:

- هذه فضيحة! كيف تتزوّج المسكينة رقية بنت عائشة من مجهول... لو كانت عائشة حيّة لما تم هذا!

كانت مباركة منشغلة في طرف الخيمة تقوم بعدة أعمال في ذات الوقت. فهي تُعد الكسكس في وعاء ضخم، وتصنع الشاي وتُعشّي بنتها وتغسل الأواني، وتحدّث مسعودًا بكل ما جدّ في الحي منذ الصباح.

سكتت قليلًا، ثم قالت بلا مبالاة:

- هم وما أرادوا... كلّهم بيضان.... العرب أيضّا بيضان!

انتظرت تعليقًا من مسعود، لكنه لم يفعل، بل كان ينظر إلى ابنه النائم على الأرض من دون وسادة. وجاءه صوتها:

- كلهم بيضان... كما أن السودان كلهم سودان متكافئون في الأنساب. ما علينا من كل ذلك. المؤكّد أنهم لن يزوّجوا أيًّا من أبنائك!

رفع مسعود بصره خارج خبائه فلمح الشيباني وطالبَيْن معه يمشون بسرعة جهة كوخ الطالب الخليجي جاسم.

دخلوا فوجدوا جاسمًا جالسًا داخل كوخه يقرأ باب الفاعل من

ألفية ابن مالك. كان يرتدي ثوبًا ناصع البياض، وعلى هامته عمامة سوداء، بينما يمسك مسبحة بيده يعدّ بواسطتها المرّات التي قرأ فيها المتن الذي يكرّره.

- هلا بالعريس!

قالها الشيباني وهو يجلس على وسادة مرمية في طرف الكوخ.

- يا هلا، تفضلوا.

قال عبود بصوت تهديدي:

- ستسمع هجاءً مقذعًا فتجهّز له! يسمونه «شَمْت العريسْ»!

أسند جاسم اللوح الخشبي الذي كان بيده وعلّق السبحة عليه ضاحكًا:

- الله يقطع إبليسك، كيف؟

استند عبود إلى مرفقه وهو يقول:

- ألا تعرف عادات الناس هنا؟... من عادة القوم أن يجلس العروسان في فضاء مفتوح، ويجلس الجميع معهما ثم تبدأ النسوة بالغناء. وفي أثناء ذلك يتبارى الحضور في إلقاء الأشعار عن الخصال السلبية للعريس ليُغنّى بها.

ضحك جاسم، مؤشّرًا بيده في اعتراض على صحة القصة، متيقّنًا أن عبودًا يمزح. فقد عرفه خلال الشهرين الماضيين مزّاحًا.

- وتجهّز كذلك لسماع الكثير من الكلام البذيء.

لكن تدخّل خالد شكّكه في الأمر:

- العادة جيّدة... أرى أنها تهدف إلى صناعة ثقافة جنسية في بيئة لا يُتحدث فيها عن الموضوع إطلاقًا. فمن خلال ما يسمى «تُدْخالْ

القلادة» يتعلم مَنْ لم يتزوّجوا أشياء كثيرة عن الموضوع... لم يسمعوا بها قط.

واتسعت عينا جاسم حتى بدتا بوضوح رغم ظلام الكوخ:

- وايشْ تُدْخالْ القلادة؟

هنا تحرك الشيباني في مكانه، مستعيدا أجواء قرية الكدية وهو صغير:

- تدخال القلادة هو آخر فصول السهرة ليلة العرس. فبعد أن يكون الغناء مركّزًا على شمت العريس لساعات طويلة، وبعدما ينام الأطفال يبدأ الغناء بأشعار عامية تصف تفاصيل ما يجري بين الزوجين.

ضحك عبود ساخرًا وهو يقف بباب الكوخ لينادي أحد صغار الطلبة ليأتيه بجمر كي يصنع الشاي. ثم عاد وجلس متربّعًا بين الشيباني وجاسم، وقال:

- يا رجل! هل ينتظر الناس في عصر العوملة والإنترنت أن يتعلّموا مثل هذه الأمور من جلسة مليئة بالألغاز وأمام الناس؟

شعر جاسم بموجة من الرهبة والتطلّع تجتاج كل ذرة بجسمه. فعدّل جلسته وقال:

- لا بجد، بالله أيش يصير بالضبط في الزفة؟

جاء صوت الجياني:

- ما سمعتَه صحيح... لكنّها مجرّد عادات، وما يجري في ذلك المجلس يظلّ فيه ولا يخرج منه أبدًا.

ساد صمت، وسمعوا صوت المرابط يتغنّى بأبيات من البردة بصوته الشجي:

لولا الهوى لم تُرِقْ دمعًا على طللٍ ولا أرِقْتَ لذكر البان والعلَمِ!

جلس عبّود في طرف الكوخ يصنع الشاي، وانكفأ الشيباني يتأمّل جاسمًا، متسائلًا هل كان والد رقية سيزوّجه من بنته لو خطبها، أم إنه سيسأل عنه ثم يرفض تزويجه، بينما يزوج هذا الخليجي الغريب. وانقطع فكر الشيباني على صوت عبّود قائلا بهدوء غريب وهو يصب الشاي في كأس:

- أتمنّى أن يتم الزواج بسلاسة!

ساد صمت، قطعه صوت جاسم:

- ليش... خيرًا!

أحجم عبّود عن كشف الخبر الذي يدور في رأسه، وقصّة ذلك الفتى العاشق لرقية. وتدخّل الجياني محاولًا إنهاء الموضوع:

- سيقول لك عبّود إن هذا عصر الإنترنت والعولمة... وأن الزواج ينبغي أن يتمَّ في الكومبيوتر!

سُمعت ضحكات متكلّفة في أطراف الكوخ، وساد صمت، بينما ابتلعت الأسئلةُ والهموم كلًّا من الشيباني وجاسم. اندفع خيال الشيباني متسائلًا كيف يُزوَّج هذا الغريب القادم من بلاد بعيدة ببنت من أوسط القبيلة نسَبًا، بينما لن يستطيع هو الزواج منها أو من مثيلاتها إن شاء.

غمرت ذهنه صورة سلمى عند مدخل الكلّية جميلةً ملتفّة في ملحفتها الملوّنة. بدتْ له بعيدة، متمنّعة تشبه عواصم الإمبراطوريات المحصَّنة. كيف يمكنه الظفر بها؟ كم شيخًا سيقنع من شيوخ قبيلتها قبل أن يتعانقا؟

هز رأسَه طاردًا تلك الأفكار، محاولًا التخلّص من فكرة أنها قد تتخلّى عنه أو تنساه إذا وصلها خبر دقيق عن مكانته الاجتماعية. تذكَّر

ضحكتها وهو يقول لها:

- إن أجدادك تعانقوا في عالم القبور فرحًا عندما نضجتِ الخلطة البيولوجية التي أنتجتْك!

اندفع خيال جاسم مطاردًا غرابةَ ما ينتظره في هذا الحي المتواري بين الجبال والروابي... بعيدًا في حنايا الجغرافيا المتمنّعة، والتاريخِ الهارب عن الأنظار.



# 11

علــى أم دفــرٍ غضبــةُ اللــه إنهــا
لأجدرُ أنثــى أن تخون وأن تخُني!
المعرِّي

كانت رائحة اللحم الآتية من القدر الضخمة المنصوبة على أثافٍ شمالَ الخيمة تغزو الأنوف. فقد نُصبت خيمة بيضاء واسعة أمام منزل أبي رقية. فُرشت أرضيتها كاملة بالحُصُر والسجاد والمراتب والوسائد الملونة. تضجُّ الخيمة بصخب الأطفال ولهوهم، والنساءِ اللواتي يتحدّثن في الوقت نفسه. لكن كل تلك الأصوات انقطعت عندما ظهر الرجال قادمين من جهة المسجد تتزين هاماتهم بالعمامات السود، ملتحفين دراريعهم الواسعة.

أفسحت النساء والأطفال ممرًّا ضيِّقًا، وجلس الرجال وسط الخيمة. جلسوا في شكل دائري. أمرّ المرابط يده على لحيته وقال:

- أين الوالد؟

اعتدل أبو رقية في جلسته وقال وهو ينظر إلى الأرض، وقبسٌ من نور القمر يداعب لحيته البيضاء:

- موجود.

- والعريس أو وكيله؟

كان المرابط يسأل الأسئلة التقليدية وذهنه مشغول بالرعب من صفعات قد يتلقّاها بين كتفيه خلال دقائق. فهو لا ينزعج من تولّي

أي أمر هنا انزعاجه من عقود الزواج، بسبب تلك العادة التي تقوم بها الفتيات لحظة نهاية العقد.

التفت بهدوء فرأى مجموعة من الفتيات كامنات وراء ظهره في وضعية الهجوم. فكّر في تغيير مكان جلسته لكنه تذكّر أنهنَّ سيهاجمنه على كل حال، فتلك الخرافة تعشّش في عقولهنّ ولن يغيِّرنها.

فكّر في الطلب من صديقه أبّاه أن يتولّى العقد، أو من والد رقية، لكن كيف يفعل ذلك وهذا من صلاحياته التي لا يجوز له أن يتخلّى عنها لأي سبب.

أثناء ذلك ظهر جاسم ومحمود والجياني والشيباني قادمين من جهة أحواش الطلاب. جلسوا في الطرف، بينما اجتاحت جاسمًا موجة انزعاج من أنّ أحدًا لم يقم للسلام عليه. هل السبب أني غريب ينظرون إليَّ كما ننظر نحن إلى بنغالي أو هندي؟ لم لم يقم هؤلاء الرجال من كبار السن العارفين بعادات العرب بالسلام عليّ... أليسوا بدوًا؟ إن البدو قد يدخلون الحروب بسبب خطأ في تقديم القهوة أو طريقة السلام! كيف أدخل وأجلس في طرف المجلس دون أن تمتد لي يدٌ أو يتحرّك أحدٌ للسّلام عليّ... مقصيٌّ كأني شخصٌ لا قيمة له! ثم إنني عريس! وما اجتمع هذا الكم من الناس إلا لعقد قراني!

تراءت لعينيه صورة الأعراس في مرابع طفولته. لمح عشرات الرجال وقوفًا وقد ارتدوا أثوابهم البيضاء وبشوتهم المزركشة وهم يسلّمون على العريس واحدًا واحدًا مع أطيب التهاني وأجمل الكلمات.

افترسته تلك الأفكار، ثم تذكّر مشاهد من عادات الناس رآها خلال إقامته هنا. استعاد صورة أبّاه نائمًا وسط مجلس عزاء، وتذكَّر بعض غرائب القصص التي سمع، فخطر له أن عدم السلام عليه قد يكون

جزءًا من عادات الناس... ثم تذكر كيف أن أحدًا لم يسلّم على رفاقه محمود والجياني والشيباني.

انقطعت تلك لأفكار وهو يسمع المرابط:

– بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي أحل النكاح وحرّم السفاح...

انقطعت كلّ الأصوات، فخفتت همسات الأطفال، وانطفأت تمتمات الفتيات، وهنّ متكدّسات في وضعية الهجوم وراء المرابط. بل وكأن أصوات اجترار النوق الجاثمة وراء الخيمة انقطعت، وتوقّف هبوب الرياح الباردة الآتية من الشمال هنيهة، وازداد بريق البدر الداخل إلى الخيمة...

واصل المرابط:

– وبعد، فاشهدوا يا من حضر من المسملين أني زوجت جاسم بن...

والتفت جهة جاسم:

– ابن من؟

– جاسم بن ذيب بن جاسم

– جاسم بن ذيب بن جاسم برُقيّة بنت محمد بن عبد الرحمن، بمهر قدره ربع دينار وبشرط أن لا سابقة ولا لاحقة وإلا فأمرها بيدها..

وانقطع السكون بوقوع كفٍّ بين كتفَي المرابط....

– طاقْ!

وصرخ المرابط:

«هاااحْ»!

رفع أبّاه رأسه:

- الله يقصّر أعماركم ما اقْلَ عْليكم التعراصْ يَلِّي يعطيكمْ لَبَّارْ!

وامتلأ المكان زغاريد وتصفيقًا، كل حنجرة تردّد:

- الله يبركْ هذي الدارْ طاحتْ خشباية من لَبَّار!

انحنى المرابط ورفاقه كلٌ يفلي النعالَ المتناثرة بحثًا عن حذائه للهروب من المنطقة المعادية. فقد احتل الأطفال والمراهقات والفتيات المكان. فالعادات الاجتماعية تمنحهم السلطة الكاملة منذ لحظة انتهاء العقد، ويحق لهم الحديث بأي طريقة شاءوا مع من شاءوا ما دام موجودًا داخل حرم منطقة العرس.

خرج جاسم مع رفاقه مشدوهًا. فهذا أول عرس يراه في هذه البلاد. كان مشتت الخاطر حائرًا هل يفرح أم يحزن، يضحك أم يغضب... هل هو في حلم أم واقع؟! هل ما تم قبل هنيهات فعلًا زواج؟ وهل فعلًا هو العريس؟

وصلوا إلى كوخ الجياني، فوجدوا خالدًا الأمريكي منهمكًا يطبخ الأرز باللوبياء البيضاء وبقربه مصباح زيتي خافت. وما كادوا يجلسون حتى صاح جاسم:

- هل فعلًا هذي أعراسكم؟

ضحك عبّود وهو يقرّب الوسادة ليضع عليها مرفقه:

- نعم... هل تعلم من ضرب المرابط بين كتفيه؟ إنها مريم بنت شيخ الحي.

رمى جاسم عمامته:

- ليش ضربته؟

- تقضي العادات الاجتماعية هنا أن أول فتاة تضرب العاقد بين كتفيه تكون أول من يُعقد قرانُها.

- الله يقطع إبليسكم.... الله يعين شيخنا... شكلها قوية!

وضع خالد الأرز باللوبياء بين أيديهم. واعتدل مزاج الشيباني بعد ساعات من التفكير المتواصل في القضايا الاجتماعية. وهدأت الأصوات في أطراف الحي، وجاء صبي يركض حاملًا كيسا بلاستيكيًّا ورماه أمام الحوش.

فتح عبّود الكيس، فأخرج منه أربعة شالاتٍ سوداء تفوح برائحة البخور المعقود بالعطر.

وجاء صوت جاسم:

- وايش هذا؟

- هذه مُعدّة خصيصًا للعريس وأصدقائه.. علينا ارتداؤها الليلة عند الذهاب للسهرة.

وسكت عبّود قليلًا، ثم أردف:

- هذا عصر الإنترنت والعولمة، حيث يبحث الخليجيون عن الجميلات المتواريات في فجاج الأرض، وأنت تأتي إلى محظرة موريتانية لتتزوّج بدوية! يا عرييييس البدو، سترى!

***

## 12

والنّفــسُ تطلُبُ أغراضاً، ولو علمتْ

بالغيبِ، سِــيئَتْ بمخبوءٍ من القَدر!

**المعرِّي**

خرجوا من الكوخ قاصدين خيمة العرس، ورائحة البخور المعقودة بالعطور تفوح من أعطافهم وسط أحواش الطلاب. رفع الشيباني بصره إلى السماء فإذا البدر ازداد بريقًا ولمعانًا وقربًا من الأرض. لمحه يتسلّل في الأفق متجاوزًا الغيمة الوحيدة البادية في أفق السماء الشتائية. رمى ببصره إلى الوادي المُقمِر فخُيِّل إليه أن بطحاءه تحوّلت إلى رمال ثلجية كما يعرف في صور المجلات التي كان يراها على أرصفة نواكشوط. بدا له كلّ شيء ناصعًا جميلًا كأنما خرج من رحم الكون الساعة.

زحف لحاف السكون على الحي؛ مشوا في صمت. كان الصوت الوحيد المسموع صوت تيسٍ ينبُّ نَبيبًا استعدادًا للسفاد. قال عبّود وهو يصغي لصوت التيس:

– ماذا تسمّون هذا الصوت بلهجتكم يا جاسم؟

– أي صوت؟

– صوت التيس إذا كان يراود المعزاةَ عن نفسها.

– نقول: التيس يلالي! ونقول يحمّ!

كانوا يسيرون وهم يضحكون معلقين على مهمة صديقهم هذه الليلة. وعندما اقتربوا من خيمة العرس قال جاسم لعبّود:

- الله يقطع إبليسك.. اسكت! فضحتنا!

تتزاحم مجموعة من الفتيات والعجائز والأطفال داخل الخيمة. يجلس بعضهم على سرير ضخم من الجريد منصوب في الوسط، ويجلس الباقون على السجادات المبسوطة على الأرض. وقفت أخت العروس ترحّب:

- تفضلوا! تفضلوا!

جلسوا على طرف السرير الكبير، وكان على جانبه المقابل فتاة بيضاء بدينة، سَفْعاءُ الخدّين، ملتفةً في ملحفة من النيلة، وبين يديها طبل خشبي صغير تقرعه بيدين مغموستين في الحناء. ما كاد السلام ينتهي حتى وقف صبيّ نحيف يرتدي دراعة زرقاء من دون قميص وصاح بلغة ساخرة:

- العريس! رائحة مِسكك ما تنفع!

وضج المكان ضحكًا، وارتبك جاسم، فلم يفهم ما قال الصبي، وانتابت الشيباني موجة من الضحك، ورفعت عجوز في طرف الخيمة رأسها:

- هذا مسك حدْ خارجْ مع جماعة الدعوة والتبليغ... ماهو مسك عريس!

عادت العجوز إلى التشبّث بحبّات المسبحة ومواصلة الاستغفار. وتسارعت دقات قلب جاسم، متسائلًا ماذا عليه أن يقول أو يفعل. ولاحظ أن الفتاة الجالسة بقربه بنت المؤذّن القريب من سكنه. تذكّر حياءها وخفرها وهي تمر بين الأحواش كل يوم في طريقها إلى الدرس. مال جهتها:

- بالله عليك، قولي لهم إنني غريب ولا أعرف هذا الجو، وطالب

علم.... وايش الهدف من هذا كله؟

وقبل أن تجيبه ظهرت العروس قادمة تتهادى في ملحفتها السوداء بين أختها وخالتها. وأفسح الجالسون الطريق، ووقف جاسم وأمسك بيدها، فنفضتها من يده بقوة. ثم جلسا متقاربين، وابتعد الشيباني وعبّود قليلاً جهة اليسار.

مالت الفتاة البدينة صاحبة الدف على جاسم:

- ماذا قلت؟

- قولي لهم أن يخفّوا عليَّ... ما كلّ هذا؟

وتفاجأ بالفتاة تضحك وتضرب الدف منشدة:

- هذا لعريسْ الخليجي خلّي عنكْ ذا التهريجي!

وارتفعت أكف الجالسات بالتصفيق الموقَّع، المتناغم مع قرع الدف. وتبارت فتاة أخرى مع المنشدة في تكرار البيت المخصّص لشَمْتِ العريس.

كان جاسم يلتفت يمنة ويسرة إلى أصدقائه الشيباني وعبّود والجياني، كأنه يستنجد بهم. ماذا عليه أن يفعل؟ هل تقضي العادات أن يضحك، أن يغضب؟ أن يعلّق؟ أن يصمت!!!

وفهم الشيباني توتّره، فمال عليه وما زال في صوته بعض الضحك:

- أنصت فقط وتبسّم... لا عليك من التعليق، فذاك يُثيرهم أكثر.

وطاب المجلس وصفًا، وتنافست الفتيات في الغناء بشمت العريس. حتى أخت رقية المنشغلة بإعداد الشاي في طرف المجلس كان يستخفّها الإنشاد أحيانًا فتنشد بصوت مرتفع.

قالت مريم فجأة:

- أصحاب العريس؟ لمَ لم تقولوا شيئًا؟

قال عبّود بصوتٍ واثقٍ:

- يأتيك حالًا!

شعر جاسم بتوتّر منتظرًا ما سيقول عبّود، رغم أنه فهم أن شمت العريس أمر فكاهي في النهاية، وينبغي ألّا يتجاوز إلى الأمور الجادّة المزعجة. وجاء صوت عبّود مخاطبًا العروس:

- صبرِ - يا الصيدة - تكدارُ أُو قلتْ ظُحكو في التهريجي

- محبوسة فْ دارُ وأوطارُ ذاك النقاب الخليجي!

وضجّ المكان ضحكًا. ولاحظ جاسم رقيّة تضحك من تحت اللحاف الأسود الشفاف الذي يغطي وجهها، وانتباته موجة من الغيرة. كيف تضحك زوجته من كلام رجل آخر. وتكلّف الضحك، مفكّرًا في أنه لا بأس بمضمون الشعر قطعًا ما دامت هي تضحك. ولم يفهم مما أُنشد غير ذكر النقاب الخليجي. فهم أنهم يعيّرونها بأنها ستلبسه أو ستُحبس داخله. فكّر في كلّ ذلك مستغربًا أن المرأة هنا لا تغطي وجهها إلا إذا كانت عروسًا.

ومع نهاية إنشاد شعر عبّود، وقف صبيّ حليق نصف الرأس، ينوء صدره بالتمائم، وإصبعه في فمه:

- لعريس... قرّبْ من عْروسك! ضمّها عليك!

نهرته أخت رقية ليبتعد.

انشغل ذهن جاسم بالتفكير في اليوم الآتي.

كان يعلم أن أصهاره أعدوا له خباءً مرتّبًا غير بعيد من منزلهم ليأتيه ليلًا للقاء زوجته. أما بقية اليوم فعليه أن يظلّ مع الطلاب للدرس. وتذكّر تأكيد الجياني على أن عليه مغادرة ذلك الخباء قبل بزوغ الفجر

حتى لا يُخالف العادات، فمن العيب أن تضربه الشمس وهو هناك. فكّر في كلّ ذلك، ثم فكّر في أن عليه أيضًا أن يتجنّب نظرات والد زوجته. فالعادات تقضي ألّا يجالسه ولا يؤاكله ولا يشاربه ولا يحادثه ولا يسلّم عليه. والأفضل ألّا يجمعهما مسجد أو مكان عام. غير أن أكثر ما شغل بال جاسم أن أصدقاءه أخبروه أن عروسه ستُختطف على أيدي صديقاتها ويخبئنها عنه حتى يزداد شوقه إليها كما تقضي العادات أيضًا. وخطر له أن يحاول إقناعها ألّا تقبل من صديقاتها ذلك. ردّد النظر في وجهها من وراء الستر الرقيق متأمّلًا قسماتها بوضوح تحت ضوء القمر وقال هامسًا:

- هل صحيح أن صديقاتك سيختطفنك مني؟ لو فعلن ذلك سأغضب.

ضحكت، فاهتز جسمها دون أن يسمع صوت ضحكتها، فبدت له أجمل من ذي قبل. ثم مالت عليه هامسة، كأنها تتنفّس عطرًا:

- إنها العادة، لكن هي ساعات معدودات في بيت عمّتي هناك شرق الحي، ويمكنك أن تأتي متى شئت.

لم يغب التهامس عن عين عجوز كانت مستلقية. حرّكت مسبحتها وقالت بلغة مسرحية:

- لي! يا عروس الزنج؟! أتتحدّثين مع العريس ونحن نسمع؟!

وسط الضحكات همس الشيباني شارحًا لجاسم أن الناس يضربون المثل بعروس الزنج كتعبير عن غياب الحياء، لأنها تكلّم زوجها أمام الناس، ولا تغطي وجهها.

قفت فتاة بيضاء مجدولة القوام لتناول العريس وأصدقاءه الشاي. وعندما مالت بالكؤوس جهة عبّود هبتْ رياح فصفقت ملابسها؛

وانكشف جزء من ساقها اليُمنى. وفي اللحظة ذاتها وقعت عليها أشعّة مصباح بيد عجوز تبحث عن حذائها. ورأى عبّود المشهد الذي أثاره، فأنشد بصوتٍ مسموعٍ:

وكمْ مالىءٍ عينيْه من شيءِ غيرِهِ إذا راح نحو الجمرة البيضُ كالدُّمى!

سمع الشيباني الحوار، فاستخفّه الطرب، وغنى بصوت مرتفع مكمّلًا أبيات عمر بن أبي ربيعة:

أوانسُ يسلبنَ الحليمَ فؤادَهُ فيا طولَ ما حزنٍ ويا حُسنَ مجتلى!

وعندما نطق «ويا حسن مُجتلى» ظهرت صورة سلمى واقفة أمامه على تلك الهيئة. سافر خياله مستعيدًا تلك الصورة التي يشتاقها، وظهرت له نصف ابتسامتها الساحرة، وجغرافية جسدها الآسرة. انتابته موجة من الحزن، فصمت وضم ذراعيه على قفص صدره وهدأ كأنه طائر ضخمٌ جثم في عشه بعد رحلة قارية متعبة.

بدأت الأصوات تهدأ والرقاب تلتوي رويدًا رويدًا. ظهرت جهةَ الجنوب سيارةٌ رباعية الدفع تزأر زئيرًا مندفعة جهة الحي. وقفت أمام خيمة العرس بقوة حتى انغرستْ عجلاتها الأمامية في الرمل، وسط دهشة الجميع. ترجّل منها أربعة رجال بدأت ملامحهم تتضح تحت ضوء القمر. كانوا يلبسون زيًّا عسكريًّا. كفّت كل شفة عن الضحك، وسكنت كل يد عن التصفيق... هذه أول مرّة يأتي فيها عساكر إلى الحيّ منذ سنوات. كانت آخر مرّة أتوا فيها يوم ضربتْ عْويْشة زوجَها بمهراس على رأسه بعد اكتشافها زواجه سرًّا من جارتها الأرملة.

- السلام عليكم!

قالها شرطي بصوت منكر وقد بدا عليه التجهّم. ثم أردف:

- أين جاسم؟

بدا على الجميع حالة من الضيق كأنما انحبس الهواء عنهم.

وقفز جاسم:

- أنا جاسم... وايش تبون؟

تقدّم الشرطي الأسمر النحيل خطوتين:

- عادي، لعل ثمة اشتباهًا في أمر ما... تعال شرفنا في المخفر.

في هذه اللحظة طار غراب ضخم كان جاثمًا فوق الشجرة الباسقة التي تتوسّط أحواش الطلاب. مع إعلان الشرطي أنه على جاسم أن يذهب معهم إلى المخفر. راحت خواطر الخوف تجوس عقول البنات. فتذكّرت مريم تعليق إحدى بنات عمها أن رقية مشؤومة وسيكون زواجها شؤمًا على الحيّ كلّه. وتذكّرت رقية أنها مشت فوق كمّية كبيرة من المشاقّة والدم المسفوح قبل زواجها بأسبوع.

تقدّم الشيباني:

- أنا آتي معكم بدله.. هذا الرجل عريس وضيف.

قال الشرطي بلهجة حازمة:

- لا يمكن... يأتي هو فقط. ونريده وحده.

اقترب منه الشيباني:

- لا، هذا غير مقبول... لا بد لي من مصاحبته على الأقل.

وتدخّل جاسم:

- الشيباني، عادي.. لا شك أنه اشتباه في الأسماء. أنا سأذهب وأعود على الفور إن شاء الله.

تذكّر جاسم أن أقرب مخفر للشرطة يقع على بعد خمسين كيلو مترا، وأن الطريق وعرة لا تسلكها إلا السيارات الرباعية الدفع. انحنى وقبّل

هامة زوجته، فرفعت فيه عينين مترعتين بالأسى والحيرة والخوف... وانعقد لسانها بين الحياء والخوف والدهشة، فلم تنبس.

كانت فتاة بدوية غريرة لا تفهم دور الشرطة، بل تسمع فقط وعلى نحوٍ غامضٍ بشيء اسمه الدولة. امتلأت جوانحها بالخوف المشوب بالشفقة على ذلك الرجل الغريب الذي غدا زوجها منذ قليل. كانت لا تستطيع التمييز بين عاطفة الانجذاب وعاطفة الحب، وعاطفة الشفقة وعاطفة الفضول. ثمة شيء ما يشدّها إليه! لكن ها هو فجأة يذهب... يتبخّر من بين يديها قبل أن تتعرّف إلى أثره في ثنايا روحها الطُّلَعَة.

راقب الجميع بخوفٍ جاسمًا والشيباني يختفيان داخل سيارة الشرطة التي انطلقت مختفية في الأفق تحت ضوء القمر الذي بدأ يميل جهة الغروب.

***

# 13

ورب امرئٍ كالنسر في العزّ والعلى

هوى بســهامٍ؛ مثل قادمة النســرِ!

**المعرِّي**

ما كاد الليل يجنّ حتى سرت في أكناف الحي عشرات القصص المختلفة حول سبب اعتقال جاسم. قيل إن سبب اعتقاله وشاية من عبد الله ولد أحمد، ذلك الشاب الهزيل الذي كان يهيم برقية لكنها كانت تكرهه. فقد كان يترصّدها عند عيون الماء، وينتظرها لدى منعرج الوادي ليبثّها عشقه، وهي تنهره وتسبّه.

لكن القصّة الأخيرة التي اتفق عليها الناس أن الشرطة ظنّت جاسمًا شابًا جزائريًّا كانت تبحث عنه، وأن عبد الله حاول إفساد العرس، فأبلغ الشرطة أن جاسمًا هو الشاب الجزائري متخفّيًا باسم مستعار. وانتشرت في الحي أبيات موجّهة لرقية، نسجها عبد الله يسخر فيها من العروس، متحدّيًا إياها بأنه أفسد مزاجها انتقامًا منها لإعراضها عن حبّه.

بعد صلاة العصر بنصف ساعة في اليوم الموالي، يَعَرتْ الشاة الوحيدة التي تملكها رقية، فهي كل ميراثها من أمّها. كانت مربوطة بوتد في طرف الخيمة. لم ترفع رقيّة بصرها لانهماكها في قتل الصؤاب والقمل وهي تفلي بنت أختها، كما كان ذهنها مشغولًا بالتفكير في جاسم خاصة بعد أن سمعت القصص التي تتحدّث عن الوشاية التي كانت وراء اعتقاله. غير أن صرخة آتية من جهة خيمة مسعود أيقظتها:

- لقد عادوا مع العريس!

عاد جاسم مع المرابط ووالدِ رقية. فقد كان المرابط ووالد رقية خرجا من الحيّ صباحا بعد أن علموا أن الشرطة أخذت جاسمًا.

عاد جاسم إلى رقيّة. لكن الحي انشغل بقصّة أخرى.. قصة الشيباني الذي لم يعُد مع جاسم.

أثناء قيام الشرطة بكتابة المحضر للإفراج عن جاسم، بعد أن تبينت براءته، خرج الشيباني لشراء بطاريات لمصباحه اليدوي. دخل الدكان الذي يستخدمه أهل القرية نقطة بريد. نظر إليه الشاب الواقف وراء النضد وقال:

- هل أنت من طلاب محظرة عيون الخيل؟

- نعم...

- هل يمكنك أخذ رسائل الطلاب معك... خذ تلك الظروف الأربعة من فوق خنشة الأرزّ.

التفت الشيباني جهة الظروف فلمح اسمه على أحدها.

تناول الرسالة مستغرباً! من سيكتب له هنا؟ من الذي استطاع معرفة عنوانه هنا وكتب له؟. أخذ الرسائل وخرج ينتابه قلق وفضول. جلس أمام الدكان غير بعيد من الشارع الرئيسي. رمى بجسده المتعب من السهر على عجلةٍ مهملة وفتح الرسالة وبدأ يقرأ.

الأخ ولد الشيباني، السلام عليكم ورحمة الله،

وبعد،

أتمنّى أن تصلك هذه الرسالة وأنت في خير وعافية. أحببت التأكد

من أنك لم تفهم العلاقة بيننا فهمًا مغلوطًا. لقد سببتْ لي صداقتنا مشاكل بيتيةٌ جمة كانت تتمظهر في مظاهر خاطئة. كنت متوترة ولا أعي ما أقول بسبب تلك المشاكل الأسرية. لم أكن كذلك أعرف من أنت ولا من أي خلفية اجتماعية جئت. كنت أحترمك بوصفك طالبًا مثقفًا، لكني لم أفكر - لحظة - في أنك أهل للحب أحرى الزواج. إن مركزي الاجتماعي يمنعني من التفكير في مثل هذا الأمر، والعادة عندنا أصلًا أن نساءنا لا يتنازلن للزواج من رجال من طبقات اجتماعية معينة، بل لا نتغطّى عنهم باعتبارهم ليسوا رجالًا.

أردت التنبيه فقط حتى لا يكون ذهنك شرد بعيدًا، أو أبعد خيالك النجعة، فقد عهدتك صاحب خيال مجنّح. فلا تذهب بعيدّا.

كان يقرأ ويحسّ أن عالمه ينهار مع كل حرف، وأن كل أحلامه ليست سوى أوهام. وأكثر ما آلمه الخاتمة التي قالت فيها:

ولعلك تذكر ذلك الأعرابي الذي خطب عنده رجل دون طبقته الاجتماعية فسهر حزنًا على هذا التطاول، ثم أنشد أبياتًا منها:

فلا تطلبنْها - يا بنَ كوزٍ - فإنه

غذا الناسُ مُذْ جاء النبيُ الجواريا!

زميلتك، سلمى.

سيطر الغمّ على الشيباني وغرق في لجة من الألم. استيقظ على دمعة تسيح من خده لتقع أسفل الورقة التي بيده. طوى الرسالة بكلتا كفيه ووضعها في حجره. كانت أفكاره تأخذه إلى تلك الليالي الطويلة التي سهرها وهو يحلم بساعة اللقاء بمحبوبته، وأن يضمهما بيت واحد وسرير واحد.

ها هو الآن يفكّر كيف يمكن أن يكون الإنسان تافهًا ومحدودًا إلى هذا الحد؟ كيف سمح بأن تصبح قيمته عند نفسه نابعة من نظرة شخص آخر له؟ هل يمكن أن يبلغ الإنسان من السذاجة حدًّا يضع فيه مصيره وحياته بين يدي فتاة تقلبه كيف تشاء؟

شعر بذلك الألم الخفيف الذي يشقّ جمجمته.. كانت آخر مرة يشعر فيها بهذا الألم يوم اصطدم بالحائط في منزل جدته في ملَّح، بنواكشوط.

مرّت ساعتان وهو يتأمّل شريط حياته في قرية الكدية، ثم في نواكشوط، وصولاً إلى لحظة قراءة تلك الرسالة. أخيرًا اتّخذ قراره وقرر إزاحة كل هذا الشريط. وعندما اتخذ هذا القرار انفرجت شفتاه عن ابتسامة وأحسّ بأن حياته قد عادت إليه وأن ما يصيبه يتوقّف على قراراته وليس على أي اعتبارات أخرى. عاد إلى صاحب الدكان، وأخذ منه قلمًا وورقة وترك رسالة لجاسم وأخرى للمرابط.

اختلفت الآراء في الحيّ حول قصّة الشيباني. لماذا لم يعد مع جاسم؟ ما طبيعة الرسالتين اللتين تركهما.

خلال السنوات الآتية ستصل إلى «عيون الخيل» قصص غريبة عن شاب شبيه بالشيباني يعيش في السنغال باسم مستعار يتاجر بالأغنام، ويتزوّج شابة سنغالية كل بضعة أشهر. كانت التفاصيل التي تأتي تتضافر كلّها على أنه هو. فقد أقسم ابن أبّاه في مسجد الحي أنه رآه في سوق الغنم بدكار وأنه كان الشيباني شحمًا ولحمًا بأطواره وحركاته وطريقته في الحديث. فقد كان يقف وسط سوق الغنم حيث لا يوجد من يتكلّم العربية ثم ينشد بصوت مرتفع:

فلو تسأل الأيامَ عنّيَ ما درَتْ وأين مكاني ما عرفنَ مكانيا!

عندما سيلتقي الشيباني بجاسم بعد سنوات من الفراق سيجد صعوبات كبيرة في فهم ذلك العالم الذي ابتلعه منذ افترقا في ذلك اليوم الشاتي داخل مفوضية الشرطة.

سيجد جاسم صديقه الشيباني قد تحوّل إلى صندوق مليء بالألغاز... أكثر مما كان.

***

# 14

وقلـت: الشـمسُ بالبيـداء تبـرٌ!

ومثلـكَ مـن تخيّـلَ... ثـم خـالا!

**المعرِّي**

التحفت السماء رداءً رماديًّا قشيبًا، وتلبّدتْ نواحيها بالغيوم بعد ليلة ماطرة من الليالي النادرة التي تجود فيها السماء بسخاء على الدوحة. كان الوقت لا يزال مبكرًا في سوق واقف، فالصوت الواضح الوحيد في جنباته هو صوت الرذاذ المتساقط من أعلى السقوف على الأرضية المبلطة.

كان الشيباني يكاد يطير خفّة وصبابةً وهو يخرج من غرفته الواقعة فوق المكتبة، بعد ليلة نام فيها جيّدًا إذ غفا بعد أنْ جال طويلًا في دواوين العشاق. قرر التمشّي في السوق قبل ازدحامه، فلحظات ما بعد المطر تلهب خياله فتبدو له الأرض قريبةً من السماء، كأنها اغتسلت من أدرانها وآثامها وتجمّلتْ لاستئناف حياة جديدة.

تلعب الصباحات الماطرة بذاكرته وخياله لتعيد إليه عطر الأمسيات في مرابع طفولته في الشرق الموريتاني، فيستعيد لحظات الشروق والمغيب، وتعبق أنفه برائحة الأشجار الصحراوية غِبَّ المطر، والعشب المبلل، وعبير البَشام، ويضج ذهنه بأصوات الشروق التي تحمل في أذنيه دائمًا: أصواتَ حنين الإبل وثغاء الماعز الذي يعيش بين البيوت مختلطًا بأصوات قراءة القرآن تُهَمهِمُ بها الحناجر عند

الفجر.

مشى وسط سوق واقف بخفّة، رافعًا بصره إلى السماء وهو يردّد بصوت مسموع:

الغيمُ رطبٌ ينادي يا نائمين الصَّبوحُ!

فقلتُ أهلًا وسهلًا إن كان في الجسم روحُ!

كانت يده اليمنى في جيب بنطاله، وهو يرفع وجهه متأملًا الأفق الغائم، مستمتعًا بالأخيلة اللاهبة التي يخلفها تَردادُ ذلك البيت في ذهنه، على وقع صوت الرذاذ الذي يداعب وجهه. يوقظ البيتُ في خياله صور حانات البصرة في القرن الثاني الهجري، وخانقاهات الصوفية في القرن الرابع في بغداد وحلب وسمرقند، فيتخيّل عشرات المتصوفة الذين يعرفهم كأنهم أصدقاء. يتخيلهم، بل يظن أنهم أحياء يدورون في جنبات سوق واقف. غاب في خياله ليزوغ عن هذه الدنيا ويسمتع مع أصدقائه بهذا الجمال الذي يتساقط من السماء فيغسل الأرض ويغسل فؤاده ويذهب به بعيدًا. فهذا ابن الفارض يمشي بجبة داكنة خارجًا من دكان في طرف السوق حيث يقف مكان بيع الطيور. يتبعه الشيباني مسرعًا في الأزقّة الضيّقة، يسرع ابن الفارض، لكن الشيباني يسرع وراءه وينشد:

الغيم رطبٌ ينادي يا نائمين الصبوح!

يلتفت ابن الفارض، بوجهه الأسمر ورأسه الأشيب، ويتبسّم ويكمل بصوتٍ شجيّ:

فقلتُ أهلا وسهلا إن كان في الجسم روحُ!

ثم يغيب في جنبات السوق الغافي.

يذرف الشيباني دمعة تنهمر على خدّه، فتندفع رابعة العدوية خارجة

من دكانٍ لبيع القماش الفارسي وهي تقرع دفَّها ساحبةً وراءها عباءة مخرقةً بالية وتغني:

إذا كان هذا الدمعُ يجري صَبابةً على غير ليلى، فهو دمعٌ مُضَيَّعُ!

امتلأت اللحظة بالصبابة الحارقة والوَجد المُفْني، وتحوّل الهواء إلى مادة مخدّرة من عالم متأرجح بين الغيب والشهادة. انحبس لسان الشيباني، وانهمرت دموعه، وما كاد ينفلت لسانه ليعبّر عن شجنه حتى سمع:

- أششْشْ!

رفع بصره فإذا بالحلاج واقفًا على حافة سقف دكان يحمل صليبه معه، وينفض جبته، وتُظلّله بومة ضخمة ذات قرنين.

كان يضع سبابته على شفتيه، وصلعته تلمع تحت خيوط الشمس التي تتسلّل آتية من جهة المشرق كأنها ترقب اللحظة باهتمام. سدَّد الحلاج نظرَه إلى الشيباني ومدّ سبّابته في إشارة تهديد:

- مَـنْ أطلعـوهُ علـى سـرٍّ فَنَـمَّ بـهِ

فـذاك مِثلِـيَ بيـن الناس قد طاشـا!

قالها الحلّاج بصوتٍ متهدّج، ثم رفع بصره إلى السماء نافضًا طرف جبّته مكرِّرًا:

- قد طاشا! قد طاشا!

طارت البومة، وأقلع الحلاج وراءها، وبدا خيالهما واضحًا وهما يغيبان اتجاه الأبراج الإسمنتية التي تملأ أفق منطقة الدفنة.

شعر الشيباني بقشعريرة تجتاح بدنه. ثم رأى بعين خياله رابعة تشير إليه بيدها، مشتْ أمامه في زقاق ضيّق تجرّ عباءتها البالية حتى وصلا إلى دكان لبيع المجوهرات. فتحت الباب دون عناء، ومدّت يدها إلى

الذهب هامسةً:

- احذر الشراك!

ثم ضحكت وأخذت الدفّ وجلست القرفصاء وبدأت تضرب الدف وتغنّي:

- إذا كان هـذا الدمـعُ يجـري صبابـة

علـى غيـر ليلـى فهـو دمـع مضيَّع!

خيل للشيباني أنها تحولت إلى مريم، تلك الفتاة التي كانت مغنّية الحيّ أيام طفولته في الكدية. ها قد بُعثت في صورة رابعة، جالسة القرفصاء تغنّي. ثم تخيلها الفتاة التي كانت تغني مع الشيخ الأمين في تلك الأمسية يوم جاء أهل الفيضة إلى قريته. وفهمت رابعة ما يدور في خلده ففاجأته:

- - هل تذكر النانة السلالة؟ تلك السيدة التي كانوا يتهمونها في قريتكم بالسّحر؟ إنها من الصالحات العابدات!

انتابته قشعريرة لذيذة أغرقته في عالمٍ تمنّى لو يستطيع أن يبلغه.

أفاق من تخيّلاته بشعور أن كل غمٍّ قد غاب. فراح يردّد بصوت مرتفع:

مـنْ أطلعـوه علـى سر فنَـمَّ بـهِ

فـذاك مثلـيَ بيـن الناس قد طاشـا!

وظلّ يردّدها عائدًا إلى مكتبته.

لم يكن في السوق سوى عاملين من عمال النظافة. سكنتْ أيديهما عن فرك أرضية السوق مشدوهَين ينظران إليه وهو يردّد البيت بصوتٍ مسموع.

مال العامل الهندي على رفيقه وقال:

- هذا نفرْ مالْ كتب، مجنونْ واجدْ!

استيقظ من تخيّلاته وبسمة على وجهه مما سمعه. كان على بعد خطوات من باب مكتبته وعيناه نديتان من الدمع. التفت يمنة ويسرة فرأى بعض الدكاكين تفتح أبوابها، والسوق تتململُ لتستيقظ بعد أن أطالت الرقاد. ورأى محمودًا قادمًا في الزقاق الرئيسي، فتخيّله تجسيدًا للواقع المثقلِ بالمادية الحَمِئَة.

التقيا عند باب المكتبة، وتبادلا السلام. ولاحظ محمود بقيةَ دمعٍ في عيني الشيباني فسأله:

- خيرًا إن شاء الله؟!

دارى الشّيباني ما به بمزحة متكلّفة:

- من يفتح مكتبة في عالم اليوم ينبغي أن يبكيَ بعينيْ عُروة بنِ حزام!

سكنت روح الشيباني وخمدت خيالاته وهو يلقي بجسمه النحيف فوق مقعده خلف النضد. كان محتاجًا لساعة من الجلوس الصامتِ حتى تهدأ الزعازع التي كانت تعصف بين جوانحه.

ثم سرَّح عينيه مع الزقاق ملاحظًا دبيب الحياة المتدرّج في أطراف السوق.

أعاد نظره إلى الرفوف المملوءة بعناوين الكتب المختلفة، فشعر بسعادة غامرة متسائلًا كيف يمكنه العيش عيشةً هنيئة لولا هذه الكتب والرفوف والأوراق التي تمنحه هذا العالم من الخيالات... فما أصعب الواقع المجرّد من الخيال!

بل ما قيمة الحياة المجردة من الخيال؟

خطر له أن كل القضايا الجادّة في عالمنا مُشيّدة من أهرامات

الخيال. ما الوجود المادي الحقيقي للدين؟ وما الوجود المادي للسعادة، وللحب؟ إننا نتخيل أننا نحبّ، ونتخيّل أن المعشوق يبادلنا حبًّا بحبٍّ... إننا نبيع ونشتري بناء على الخيال... فلا قيمة للنقود في ذاتها؟ هي وسيلة نبادل بها. إننا نتخيّل أن الطبيب الذي نمنحه أجسادنا ليعبث بها طبيب عارف، وأن ملّاح الطائرة التي نصعد إليها ملاح ماهر... لكننا لم نمتحن أيًّا من الطبيب أو الملّاح... لم نمتحن من نعطيهم أجسادنا فكيف نمتحن من نعطيهم قلوبنا؟ وانتزع نفسه من تلك الخواطر التي تعتمل في جمجمته الضخمة وهو يمسح العرق عن جبهته. طرد تلك التساؤلات حتى لا يسرح خياله إلى سلمى وحبه لها.

قال لنفسه: نعم «أنا نفر مال كتب مجنون واجد»!! وابتسم.

مد يده إلى كتاب وفتحه ودس أنفه الأقنى داخل أوراقه مستنشقًا رائحته.

كان كتاب «صفة الصفوة» لابن الجوزي. وما كاد يغرق في مطالعة الكتاب مستمتعًا حتى تذكّر كيف روتْ له جدته أن أباها كان يقول:

- أطيب الطيب رائحة الكتب، وأجمل النساء تلك التي لا تَعرِف!

كان يتأمّل العبارة مفكّرًا في أنه يقرّ بأن أطيب الطيب رائحة الكتب، فهو يعشق تلك الرائحة ويميّز أنواع الورق من خلال الرائحة. لكن هل أجمل النساء فعلاً تلك التي لا تعرف؟ فكّر في العبارة فلاحت صورة سلمى في خياله. لاحت جميلةً واعدةً.. ومتمنعة. صرفها من ذهنه حتى لا يخسر المتعة التي عاشها هذا الصباح وما زالت تملأ جوانحه.

كان ينظر إلى الخارج وذهنه يدور متأمِّلًا حياة أولئك الشعراء والعشّاق الذين التقاهم خياليًّا هذا الصباح. تمثّلت له الحوادث والأحاديث التي اشتركها معهم على أنها واقعٌ صلب. ثم استيقظ من

كل ذلك وهو يلمح مالك المكتبة يُعدّل عقالَه على هامته واقفًا أمام الباب.

شعر بضيق شديد من وجود جاسم في مثل هذه اللحظات، فلعلّه سيفتح معه باب الحسابات بعد أن كان قبل لحظات يعيش بكامل قواه التخيلية، تاريخًا لم يحدث قط، متجوّلًا في سماوات لم يخترقها جناح طائر قط... فكيف يهبط فجأة إلى حساب الريالات؟!

- كيفك يا شيباني؟!

وقف الشيباني بساقين متثاقلتين ولسان خدِر وقال:

- يا هلا جاسم!

- كيفك وكيف الأهل؟

- أبشّرك، تمام!

رفع جاسم وجهه متأمّلًا عينيْ صاحبه. لمح فيهما حزنًا عميقًا، وذبولًا وانطفاءً. خيّل إليه أنه قادم توًّا من سفر طويل. تذكّر أن هذه الملامح كانت تظهر عليه أحيانًا في صباحات محظرة عيون الخيل عندما ينشد الشعر لساعات طويلة ويتنابه الوجد.

عدل جاسم الغترة على مفرقه وقال:

- هل نمت البارحة؟

- جدًا.

- طيّب، أبي أشوف الحسابات!

- يا أخي خلينا من الحسابات الآن!

ألقى جاسم بجسمه على الكرسي البلاستيكي المحاذي للنضد، وقال مبتسمًا:

– كأنك اليوم عندك دورة من دورات الجنون؟ فاقد عقلك؟

هنا انطلق لسان الشيباني، بعد أن كان خدرًا:

– من قال إن الجنون غياب العقل؟ فقد يكون الجنون لحظةً من لحظات إمساك الخيط الواقعي للحياة، وفهمها فهمًا دقيقًا بعيدًا عن الأوهام الدارجة، والتصنّع الغافل. ولعل ذلك ما يفسّر جرأة المجنون وثقته المطلقة وهو يواجه مجتمعه كاملًا. ولعلّه أيضًا يفسّر ضحكات المجنون الساخرة من الناس، ووقوفه وحيدًا على شارع عام، ساخرًا من حشد الأغبياء الواقف أمامه، والكتل البشرية المائجة الذاهبة في كل اتجاه، وهي تأخذ الحياة بجدّية غبيّة. يضحك منهم حين يرمونه بالحجارة، ويسخر من حماقاتهم حين لا يفهمون كلامه الجارح عن حقائقهم المتوهّمة، وتخلّصه الواعي من الملابس التي يسترون بها قبائحهم جبنًا عن التعرّي الواثق.

وفهم جاسم أن صديقه ليس جاهزًا لمناقشة الحسابات، وهو الذي يعرفه جيّدًا حين خبِره قبل سنوات طويلة في عيون الخيل. تذكّر أطواره الغريبة، وتلك الحالة التي تعتريه من اختلاط الواقع والخيال في ذهنه أحيانًا. وقف يتأمّله مستعيدًا الجهود المضنية التي بذلها لينقذه من فترة اختفائه الطويلة في السنغال، وكيف كافح حتى استصدر له جواز سفر وتأشيرة عمل حتى يأتي به إلى هنا. ثم تذكّر بامتنان إصرار الشيباني على مرافقته إلى مخفر الشرطة ليلة احتجازه ليلة العرس.

اجتاحت جاسم موجة عطف ورقّة لصديقه. وضع الدفتر جانبًا، واحتسى كأسا من الماء كان على الطاولة، ثم وقف ناظرًا نظرة مشفقة:

– سأعود لك لاحقًا... اليوم من أيامك؟

ابتسم الشيباني ابتسامة فاترة حائرة بين الامتنان لتفهّم جاسم،

والعالم الساحر الذي يسكن خياله. وقبل أن يفتح فمه قال جاسم:
- سأمر بك الليلة للعشاء في مجلس صديق... شكللكْ محتاج تشوف ناسْ حتى لا تفقد عقلك وأنت مدفون بين هذه الكتب.
هزَّ الشيباني رأسه موافقًا دون أن يعلم طبيعة ما سيقدم عليه.

***

## 15

كلمتُ باللحن أهلَ اللحنِ؛ أونِسُـــهمْ

لأن عيبــيَ عنــد القــوم إعرابــي!

المعرِّي

يجلس جاسم وراء مقود سيارته التي تنهب الطريقَ الدائري على حافة الكورنيش نهبًا. بدا الخليج بحيرةً هادئة في قصر عباسي، أو جدولًا رقراقًا في رستاق أندلسي. إذ كانت العمارات الرشيقة المطلّة عليه تنعكس في مياهه الزرقاء، وصوتُ موسيقى بدوية يأتي من مركبٍ يمخر مياهَه بهدوء، وأسرابًا من الحمام تحلِّق آتيةً من جهة المتحف الإسلامي.

ضغط الشيباني على زر فتح النافذة ليستنشق العبير وهو يفكّر في أن بلاد فارس ترقدُ على الضفة الأخرى لهذا الخليج. ملأ رئتيْه هواءً، وتخيّل أنه استنشق رائحة من مزارع شيراز، وعطورًا من أرْدَانِ حسناوات الريّ، ورائحةَ أزقةِ العلم الضيقة في طوس ونيسابور قبل ألف عام.

التفت إلى جاسم:

– هل تعلم أن ابن بطوطة رغم زيجاته الكثيرة من جوانب الأرض، لم يُثنِ إلا على الفارسيات... ولم يستطع الصبر فصرّح بذلك رغم تحوّطه؟!

رفع جاسم يده عن المقود:

- يا رجل، خْرطي! كلهنَّ سواء!

- وهل تعلم أن ابن عربي إنما كتب الفتوحات الإلهية لفتاة فارسية مكّية؟

- خرابيط شعراء! وأنا أذكر جيدًا كلام زكي مبارك عن ابن عربي. ومنذ قرأته لم أستطع احترامه ولا النظر إليه كما ينظر إليه الناس اليوم.

ضغط الشيباني زرَّ إغلاقِ النافذة حتى لا يضيع الصوت في تيار الهواء المندفع، وقال وهو ينظر نحو جاسم:

- ماذا قال زكي مبارك عن ابن عربي؟

- أورد قوله في «الفتوحات المكية» إنه رأى في النوم أنه تمكّن من كل كواكب السماء فنكحها كوكبًا كوكبًا ووجد لذلك لذة لا توصف.

- أيوه! وبماذا علّق على هذا القول؟

- علق زكي قائلًا: ما هذه الرؤية البهلوانية؟ شتان بينها وبين رؤيا يوسف: إني رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين!

مال الشيباني وضرب طرف الكرسي ضاحكًا، ونظر إليه جاسم بغبطة شاعرًا بسعادة لأنه انتشله من المزاج الغريب الذي كان يتلبّسه صبيحة اليوم.

وبعد ضحكة ممتدة قال الشيباني:

- كل من تستهويه امرأةٌ فيضعف أمامها أحمق، والرجل العاقل ينظر إلى المرأة نظرة وظيفية، يتمتّع ويسير!

- الله يهديك، ساعة تمدح النساء، وساعة تشتمهنّ؟!

كانت السيارة قد وصلت إلى منطقة الغرافة، وتوقّفت أمام منزل

له بوابة واسعة، يظلّل النخيلُ مدخله، في حي هادئ رباعي التخطيط. ترجلا فاستقبلهما شبان يعتمرون شماغات ملونة وهم يرحّبون، وقادوهما إلى مجلس مستطيل واسع.

دخلا، فلمحا الشيخ صاحب المجلس جالسًا في الركن، وقف الجميع بدخولهما، وقال الشيخ:

- هلا جاسم، هلا والله!

بعد السلام أفسح رجلان لهما ليجلسا عن يمين الشيخ.

بدا الشيخ هادئ النظرات، قمحيَّ اللون، ذا عارضيْن خفيفين وأنف متوسّط الحجم. انحنى الشيخ نحو الشيباني:

- يا هلا بأخينا الشيباني! بو فهد حدّثنا عنك كثيرًا.

انحنى الشيباني انحناءة امتنان:

- أكرمكم الله يا شيخ، هذا من كرمه وكرمكم.

وعاد الشيخ يروي قصّة كان يحكيها قبل دخولهما.

رفع الشيباني عينيه في السقوف الذهبية المزركشة، والجدران الطويلة، والأقواس الأنيقة. وخطر له أن هذا أفخم مجلس يدخله منذ وُلد.

ثم تذكّر مكان عيش جدّته، وتخيّلها والمسبحةَ بيدها غارقة في ظلام كوخ بحيٍّ شعبيٍّ بائسٍ في نواكشوط. وخطر له أن كل باب ونافذة في هذا المجلس تكلّف أضعافًا راتبه.

وأفاق على الشيخ وقد وصل إلى ذروة قصّته:

- ولما وصلنا إلى القرية البريطانية، كلّمني الشباب وقال: بنتك ستتزوّج بعد يومين! وتصدّقون أني كنت ناسي الموضوع، فأخذت

الطيارة ورجعت!

ضج المجلس ضحكًا، ومسح رجال لحاهم مجاملة ومُصانعة.

دخل القهوجي وراح يوزّع الفناجين، وعندما وصل للشيباني أخذ فنجانه ورشفه رشفةً واحدة، لكنه لم يستطع ازدراد القهوة فأمسكها في فمه كأنه طفل ابتلع دواءً مرًّا. ثم أدار بصرَه باحثًا عن علبة المناديل.

ضع عدة مانديل بين يديه وصب حسوة القهوة فيها. رفع وجهه مكفهرًّا، وقال:

- شديدةُ المرارة! كيف تشربونها؟

ترامق الجالسون، وتحرّكت جفون، وتراخت شفاه، وتحركت أيدٍ، وتزحزح جالسون في مقاعدهم. وساد صمتٌ حادٌّ، ولُوحظ الانزعاج في وجه الشيخ، وسُمع صوت منبّه سيارة خارج المنزل. تدخّل جاسم كمطفئ حرائق محترف:

- يا شباب، ما عليكم، أخونا الشيباني لا يعرف هذه الأمور، ولا يقصد شيئًا... متعوّد على الشاي الأخضر حقتْهم... اللي نصفه سكر!

وجاء صوت رجل قصير يشبه وجهه وجه أرنب:

- كيف؟ أهل موريتانيا أهل الأصول وعادات العرب!

وضع الشيباني الكأس وقال:

- ما الأمر؟ هل أتيتُ أمرًا إدًّا... أو كما قال المعرّي: هلُ ضربتُ لهم ظهورًا أو احْتجَنْتُ عنكم أموالًا؟!

انزعج الجميع من تعكّر مزاج الشيخ، ومن لغة الضيف الغريب. وتطوّع الرجل القصير في طرف المجلس مرة أخرى:

- ما تعرف علوم الرجاجيل ولا سُلُوم العرب! أما تعلم أن العرب

كانت تدخل الحروب بسبب طريقة معاملة القهوة؟ فإذا جاء ضيفٌ ورفض شرب القهوة أعطي الأمان؟ وإذا شربها وقلبها فتلك إشارة لأمر آخر. تأتي أنت وتتقيأ قهوة الشيخ أمامنا، ثم تقول إنها مرّة؟

لاحظ الشيباني من لهجة الرجل أنه متخلِّجٌ كسْبًا لا منبتًا. وهي فئة يحتقر الشيباني الكثير من أخلاقها، فقال بهدوء:

– حسناً، إذا كنتُ أنا لا أراعي الآيينْ (أعني البروتوكول) فأنت من أهل النفاق. والقدرُ الذي ينقصني من الآيين فيكَ أضعافه من النفاق. فهذا الآيينُ وهذه التفاصيل ليست بأرض قومِك! فلمَ تجعلها نهاية التاريخ ومعيار الرجولة؟!

حدّق الشيخ بعينيه الواسعتين في الشيباني وهو يغلظ القول للرجل، فأعجبه صدق لهجته ولا مبالاته العفوية. فرفع يده وقال:

– حصل خير، ما جديد الناس؟ وايش العلوم.

وأعلن بذلك نهاية واقعة القهوة التي ستكون مجال تندّر في آتي الأيام.

وطاب المجلس بعد ذلك. واندفع كل يروي مواقف اتفقت له في مسارح الحياة. وانتهى الحديث إلى قوة الحفظ التي عرف بها الشناقطة. فرفع الرجل القصير يده:

– كنت مرة في الثانوية، وكانت عندنا مسابقة. وكنت يومها أحفظ بشكل عجيب. ووقف القارئ وقرأ جزءًا من القرآن. فسمّعتُه لأصحابي ونحن في طريقنا إلى البيت، ولم أخرم منه حرفًا، مع أني لم أسمعه قط.

وانتظره الشيباني حتى أنهى، فقال بلهجة مسترخية:

– عجيب، وأنا عندما كنت صغيرًا وقع حادث عجيب في قريتي. سقطت طائرة يابانية قرب بيتنا، ووجدت داخلها كتابا تفصيليا عن

طريقة صناعتها. ومع أن الكتاب مكتوب باليباني، فإني اعتكفت عليه بمنزل أهلي حتى فككت حرفه واكتشفت منطق لغته. ثم جمعتُ الحديد والأسلاك الموجودة في قريتي وصنعت منها أخيرًا طائرة من دون طيار. كنتُ أمتطيها لرعي إبل الحي وأبقاره، ولاختطاف الدجاج في الأحياء القريبة المعادية. ومن يومها لم تضلّ لنا ناقة ولا ضاع لنا جمل، ولا احتجنا إلى دجاج. وكانت الجدات يستخدمنني في مشاويرهن، فهذه ترسل لصديقتها مسبحة، وهذه ترسل قطعة من الجبنة وشيئًا من الزبدة لحفيدها في المدرسة. وهكذا غيرتْ طائرتي تلك أسلوب الحياة في قريتنا.

سكت الشيباني، وخيم صمت بلا أوكسيجين.

رفع جاسم عينيْه في وجوه الحاضرين فوجدها واجمة حائرة مستنفرةً بين الضحك سخريةً، والانقباض احتقارًا. انقطع الصمت بضحك جاسم، لمعرفته بطريقة صاحبه. وحاول استئناف الحديث، لكنه لم يستطع لقهقهةٍ نفرت من بين شفتيْه.

جاء صوت الرجل القصير:

- لكن هذا ليس معقولًا!

- وهل تظن أن ما قلتَه معقول؟ أنت تروي الغرائب منذ الصباح ولم يكذّبك أحد، فنروي غريبة واحدة صغيرة تكذّبها؟!

استظرف الشيخ طريقة الشيباني، في الرد. فرفع يده قائلًا:

- أعجبتني طريقة الرد يا بو...

ولم يكمل، فقد غلبه الضحك، فرفع طرف غترته ووضعها على عينيه وضحك ملء شدقيه.

ونودي للجميع على العشاء في مجلس مجاور. وقف الرجال في

صفّ كلٍّ منهم يدعو الواقف بقربه للتقدّم. والتأموا حول مائدة واسعة عليها أربعة خرفان مدفونة في كثبان من الأرز الدسم. وشُمّرتْ أكمامُ الآكلين عن سواعدهم، وخفتَ الكلام، وارتفعت أصوات اللقم والقضم والخضم. وجاء صوت الرجل القصير، ولسانه يندفع بصعوبة بين فكّيه الممتلئين بلحمة كتف:

– هذا اللحم طيب، يذكّرني باللحوم التي في الريف، تلك اللحوم النقية التي لم تأكل حيواناتها الأعلاف.

حدّجه الشيباني وهو يبعد يده عن فيه ليقول له كلمة، ثم فضّل أن يسكت.

مرَّ وقتٌ صامت، وهدأت الأنفس ورُفعت سفرة العشاء، وعاد المدعوون إلى المجلس الكبير. جلسوا في الغرفة ذات الألوان الذهبية الزاهية، والمفارش التقليدية الفاخرة. واستند الشيخ إلى مسندة في زاوية مجلسه وهو يقول بنفَسٍ متقطع بعد أن امتلأ بطنه حتى العنق:

– يا هلا، يا هلا.

تطوع أحد الجالسين وسط المجلس وقال:

– ما دام معنا هذا الشنقيطي، فأقترح أن يسمعنا شيئًا من شعر بلاد المليون شاعر.

وجاء صوت الرجل القصير، ذي الوجه الأرنبي:

– نعم فكرة جيدة، لكننا نريد شعرًا حقيقيًّا لا أنظامًا فقهيّة.

تظاهر الشيباني بعدم الاكتراث، وهو يرفع عينيه في سقف المجلس وأرضيته متأمِّلًا المساند المرصوصة، ودلة القهوة الموضوعة بأناقة على طاولة ذهبية في طرف المجلس.

تنحنح الشيخ ثم قال:

- أيه يا شنقيطي، أنشدنا من أشعاركم.

التفت الشيباني إلى صديقه جاسم، فأشار إليه مشجعًا على الإنشاد. اعتدل الشيباني في جلسته، وقال:

- سأنشدكم من شعر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا.

ثم تنحنح قليلًا وبدأ:

ما للمحبّين من أسْر الهوى فادِ

ولا مُقيدٌ لقتلاهم ولا وادِ

ولا حَمِيمٌ وَلَا مَوْلَى يَرِقُّ لَهُمْ

بَلْ هُم بوَادٍ وَكُلُّ النَّاس في واد

يَا رَحْمَتى لهمُ مَا كَانَ أَصْبَرَهُمْ

عَلَى مُعَانَاةِ جَمْعٍ بَيْن أضداد

وَالنَّاسُ أَلْبٌ عَلَيْهمْ وَاحِدٌ فَلِذَا

مَا إِن تَرَى مَنْ يُوَاسيهمْ بإِسْعَادِ

إمَّا عَذُولٌ، وَإِمَّا ذُو مُرَاقَبَةٍ

أَوْ زَاعِمُ النُّصْح، أَوْ سَاعٍ بِإِفْسَادِ

أمسك فجأة عن الإنشاد، وصفّق أحد أبناء الشيخ قائلًا:

- صح لسانك! صح لسانك!

رفع ذو الوجه الأرنبي يده ومسح بها طرف لحيته:

- ألم أقل لكم إن شعرهم كلّه أنظام فقهاء؟

ارتفع الدم في وجه الشيباني:

- كيف يعني؟

– شوف أنا درست على المشايخ الشناقطة في المدينة وأعرف أشعاركم... والكتاب هذا «الوسيط» قرأته كاملًا.

– بس كيف أنظام فقهاء؟

– انظر إلى الأبيات التي قرأت. الشاعر يتحدّث عن «القَوَد» والدية» وهذه مصطلحات فقهاء... وبعدين هذا التشقيق المنطقي: «إما كذا وإما كذا»..

قال الشيخ بهدوء واثق:

– أيه، كله أنظام فقهاء!

مسح الشيباني رأسه من الخلف مفترسًا الشيخ بنظراته، وهي الحركة التي يقوم بها عندما يكون في لحظة استفزاز، نظر إليه جاسم نظرة استعطاف يطلب منه ألّا يتحدّث، لكنه قال:

– ما هذه الاتهامات؟ وما هذا الاستخفاف؟ لا تنسَ أن الحكم على الشعر يستلزم فهمًا له، وتمكّنا من اللغة، وملكًا للحاسّة الفنّية.

سكت الشيخ، وانعقد لسانه. فقد علّمه مركزه الاجتماعي ووفرة أمواله ألّا يُناقَش، فكيف بأن يُغلظ له القولُ من غريب في بيته.

ساد صمتٌ. كان التاجر يجاهد نفسه ليستمر صامتًا، أما جاسم فقد ظلّلته سحبٌ من الخجل والندم، لكن ذهنه انصرف لمحاولة إدارة اللحظة حتى لا يتفاقم النقاش. وأما الشيباني فكان لا يبالي، بل قفز من مكانه وأخذ تمرة من التمر المرصوص قرب القهوة وصبّ كأسًا من الشاي الأحمر.

ازدادت وطأة الصمت. وأًصبح الصوت الوحيد المسموع صوت فكَيّ الشيباني وهو يتمطّق، أو يرشف شايًا.

لحظه التاجر بنظرة ازدراء، وخيّل إليه أنه كائن غريب هرب قبل

قليل من حديقة الحيوانات بمنطقة الوعب. أو كائن إنسانيّ شائه هرب من المختبر بينما كان علماء الخلايا الجذعية يلعبون لعبة الجينوم.

لم ينقذ الموقف إلا اتصال مطوّل على الشيخ. فانتهز الاثنان انشغاله بالهاتف وودّعاه.... فأشار لهما بيده.

في السيارة، انطلق جاسم يعنف صديقه لمدة دقائق. كان يزاوج فيها بين التشبّث بمقود السيارة، وتحريك يديه في الهواء.

كان الشيباني غارقًا في عالمه عن كلام صديقه، مشغولًا بالمقارنة بين جلسات المحظرة، حيث الكلام الحرّ وإبداء الآراء دون تحفّظ حتى من طالب ضد شيخه، وبين هذا التكاذب المتصنّع الذي يخلو من الصدق في هذه المجالس التي يأتي إليها الناس مقيدين سلفًا بالتصرّف والكلام وفق مزاج الشيخ كأنهم روبوتات منافقة.

غاص في ذكرياته، بينما انشغل جاسم بلومه على إهانة الشيخ، وأن ما قام به غير مقبول. ثم التفت إلى صاحبه ليرى وقع كلامه عليه، وهل بالغ في لومه حتى صمت كل هذا الصمت. لكنه ما إن التفت إليه ليعتذر حتى وجده يغطّ في نوم عميق. لكزه بيده ضاحكًا:

- الله يقطع إبليسك... إيش نسوّي معاك!

***

# 16

ولــي منطقٌ لم يرض لي كنه منزلي

على أننــي فوق الســماكين نازل!

المعرِّي

أخرج الشيباني رأسه من باب المكتبة مؤشرًا على عامل في المقهى المقابل، قائلًا بإنكليزية مكسَّرة:

- عمر بن أبي ربيعة، تعال!

جاء شاب كيني أسمر نحيف يركض، فطلب منه أن يحضر شطائر وفطائر، وعاد إلى داخل المكتبة وهو يفرك كفَّيْه مرحِّبًا بمالك المكتبة التي يعمل فيها:

- يا أهلًا وسهلًا بجاسم!

ابتسم جاسم إبراهيم عن أسنان زجاجية، قائلًا بلهجة قطرية:

- ليش تسمي هَا الكيني المسكين عمر بن أبي ربيعة؟!

وقع السؤال من الشيباني وقوعَ الماس من خزنة البخيل:

- حدّثني طويلًا عن قريته في كينيا، وعن العشق والصبابات التي تجري فيها، وحدّثني عن قصصه مع فتاته التي كان يرعى معها البقر، وترجم لي بعض الأشعار التي كان ينشدها بلغة قبائل الكيكويو في كينيا، وعن غزواته الغرامية.

مدّ جاسم يده لينزع العقال الذي يضغط جمجمته وقال بتلهّف وهو

يهم بالجلوس:

- أيوه!

حكّ الشيباني أسفل ذقنه، وقال لمحمود، القابعِ في ركن المكتبة على مواعين الشاي:

- جيبْ كاسْ بالعجلة!

والتفت إلى جاسم، المتوثّبِ أبدًا إلى حديثه:

- حكى لي عن مغامراته العاطفية عندما يذهب إلى الكنيسة لرؤية معشوقته. وحدّثني أن أول قُبلة نالها منها كانت أثناء قُدّاس الأحد، فوجدتُ روحه تشبه روح عمر بن أبي ربيعة. فمعظم مغامراته كانت غير بعيدة من الصفا والمروة، وفي عرصات مِنى.

- والله إنك تبالغ! وتخترع قصةً تجعلها تتشابه مع قصة عمر بن أبي ربيعة. لكن هل صحيح أن عمراً كان كما يُروى عنه؟

ضحك الشيباني وهو ينظر في عينيّ جاسمٍ تلمعان استزادةً من الحديث عن عمر بن أبي ربيعة، فواصل:

- شوف يا سعادةَ الكفيلْ! وانظر إلى عمر بن أبي ربيعة يمشي ملتحفًا جبة مكّيةً بيضاء، ورأسه مفروق من الوسط، وتفوح رائحة الطيّب من أعطافه. يقترب من الكعبة، فيلمح فتاة بيضاء مجْدُولَةً تقترب من الحجر الأسود كأنها صَدَفَةٌ مكنونة. يقترب منها، ويكلّمها فتعرض عنه. ثم تمشي - مشيةَ عروسٍ - إلى زمزم، فيتلقّاها هناك. ترفع الفتاة عينيها وترشّه برذاذ من ماء زمزم وتقول ضاحكة:

- لقد أفسدتَ حجّك أيها الفتى!

واصل الشيباني الحديث مغمضًا عينيه، واصفًا عمر ومحبوبته كأنه يراهما في جنبات الكعبة. كان جاسم فاتحًا عينيه وهو يستمتع بتفاصيل

المشهد، وبلغة صاحبه الفصيحة. ما إن أنهى القصّة حتى رفع الشيباني صوته مترنّماً بطريقة غنائية بدوية:

قفْ بالطواف ترَ الغزالَ المُحرِما حج الحجيجُ فعاد يقصِد زمزما

– وهل كان المسلمون يتقبّلون فكرة التغزّل في مواقيت الحج؟

– لقد هجر المسلمون هذه السُّنة، سُنَّةَ الغزل عند البيت العتيق، كما هجروا تلك الحاجات التي كانت تميّز أيام الحج منذ أن اندثرت أيام السماحة التي ميّزت حياة المسلمين.

أفلتتْ ضحكة من جاسم، أرجعت عينيه عينيْ طفلٍ غرير مبلّلتين بالدموع.

وساد صمت، قطعه صوت الشيباني، آتٍ هذه المرة وكأن حباله الصوتية قد تغيّرت:

– كان عمر أحمق! إن المرأة لا تستحق أن يهيم الرجل بها، ويسعى خلفها.

– الله يقطع إبليسك! ها أنت تعود إلى كلامك المتناقض؛ فساعةً تمدح المرأة باعتبارها أجمل لوحة في الكون، وتجزم بأنها بلغت من المعرفة والثقافة ما يتجاوز الرجال هذه الأيام، وساعة تهجوها هجاء مقذعًا؟ فكأني بك تهجو امرأة بعينها لا كل النساء.

هذا الرد أغرق الشيباني في حالة من التوتّر، فقد لامس شيئاً عميقاً في نفسه يحاول أن يهرب منه فلا يستطيع. ثم قال بعد لحظات صمت:

– يا أخي عندما يرتضي الرجل بأن يمنح إحداهنّ قلبه فإنه يكون قد سار في طريقٍ محروث بالأشواك السامّة.

لم يجب جاسم، فهو يعرف موقف صديقه من المرأة. ذلك الموقف المتناقض في حدّته الذي لاحظه منذ استقدمه للعمل في الدوحة بعد

فراق دام سنوات طويلة. أدار محمود كؤوس الشاي الأخضر، ورشف جاسم الكأس رشفتين وهو يقول:

- يا سلام! كان أستاذنا المصري في الإعدادية يقول: الشايُ خمر المؤمنين، ولو ذاق شايكم هذا لقال إنه كوكايين الصدِّيقين.

وانطلقت ضحكة زبون، كان واقفًا في طرف المكتبة الشمالي قرب قفص يتربع فيه الببغاء الرمادي الصامتُ صمتَ الفيلسوف.

التفت الشيباني إلى جاسم وهو يمدّ يده جهة القفص المنصوب في طرف المكتبة:

- هل سلَّمتَ على أبي تمام؟

- ما شاء الله! ما شاء الله!

- هذا أبو تمام الشاعر!

اقترب جاسم متأمِّلًا الببغاء الرمادي المنتصب داخل القفص وعيناه تبرقان كأنه يريد أن يقول شيئًا. التفت إلى صديقه:

- متى اشتريته؟

- يا رجل!

- إيش؟

- احذر أن يغضب منك! وهل يباع أبو تمام أو يُشرى؟

- أيه، عفوًا، متى جا شاعرنا للديرة؟ متى شرّفْ، يعني؟

ابتسم الشيباني:

- وصل الشاعر قبل أيام.

وأدار جاسم عينيه في القفص الحديدي، متأمِّلًا الببغاء. كان رمادي اللون حادَّ المنقار رشيق الأعضاء، وعيناه تدوران كأنهما لسان ناطق.

والتفت إلى صديقه:

– حدّثتني من قبل عن حبك للطيور، وأذكر كيف كنت تذهب للبطحاء ونحن في المحظرة لتستمع إلى تغريدها على رؤوس الأشجار. لكن ما كنت أظنّك أصبحت خواجة تربّي الببغاوات؟

انطلق الشيباني كأنه محامٍ في محكمة:

– من قال بأن الاهتمام بالطيور وإسكانها في البيوت من اكتشاف الخواجات؟ اقرأ كتاب الحيوان للجاحظ تعرف!

– ما تْقولْ لي! لا تقل إن الجاحظ كان عندهْ ببغاء بْسوقْ واقف بعدْ!

وجلجلت ضحكته. تأمّل الشيباني عيني صديقه البرّاقتين وهو يقول:

– لا، أيها الكفيل العظيم، إن..

وقاطعه جاسم خافتا:

– بالله، ما حدا يسمعك تناديني الكفيل.

وقف الشيباني وتوجّه يتفحّص رفوف الكتب. وعاد بكتاب يقلب صفحاته:

– اقرأ هنا كلام الجاحظ عن تربيته للطيور، وكثرتها في البصرة، ووجود مدرّبين محترفين خاصّين بها.

ترك الكتاب بين يديْ صديقه وقام يبحث عن كتاب آخر، أحضره ثم فتحه قائلًا:

– وهذا كتاب «حياة الحيوان» للدميري، وهو مكتوب في القرن الثامن الهجري. اسمع حديثه عن الببغاء: «هو حيوان دمِثُ الخُلُقِ، ثاقبُ الفهم، له قوة على حكاية الأصوات وقبولِ التلقين. يتخذه

الملوك والأكابر لينمَّ بما يسمع من الأخبار. ويتناول مأكولَه برجله، كما يتناول الإنسانُ الشيءَ بيده».

ثم قلب إلى صفحة أخرى كان يعرفها، ونظر مباشرة في عيني صديقه وقال بحماسة طفل:

- ليس هذا فقط، بل يذكر هنا أن الفقهاء حرّموا أكله لجماله، ومن رآه في النوم فسيرى فيلسوفًا.

جاء محمود ووضع كأسين أخريين من الشاي على الطاولة، فالتفت الشيباني إلى جاسم:

- كيف تُقيّم هذه الدورة من الشاي؟

- ممتازة، ومحمود شكله خبير بعد!

رشف جاسم من الكوب الزجاجي الصغير وأردف:

- تعرف ويش إسهام الموريتانيين في الحضارة الإنسانية؟

وبرقت بارقة تطلعٍ وتوثُّبٍ في عيني الشيباني:

- ما هو؟

- تحضير الكابوتشينو بحليب الإبل!

لم يستعذب الشيباني النكتة، فتظاهر بالانشغال بتصفّح كتاب الحيوان الموضوع على الطاولة إلى جانبه. وانطفأت الضحكة التي كانت على شفتي جاسم وقال مغيّرًا الموضوع:

- ترى لازم تغيّر الجو، وتخرج لك كم يوم غارق في عالم الكتب هذا.. لا بد أن تحطّم أسوار العزلة. ترى أنا ما جرّيتَك جَرّ من السنغال للدوحة عشان تظلّ معزول ومدفون بين الكتب!

- ومن قال إنني في عزلة.... بل الذي يقضي ليله ونهاره يفكّر في

كيفية جمع المال هو الذي يتردّى في غيابات العزلة!

وجاء محمود يحمل قنانيَ من الماء البارد، وضعها على الطاولة وهو يدندن بأغنية بدا لجاسم أن لحنها خليجي.

- ايش محمود، صرت تغنّي خليجي؟.

ضحك محمود خجلاً، فقال الشيباني:

- لن تصدق إذا قلت لك إني أمضيت يوم الجمعة الماضي عشر ساعات بين دور الغناء في الحجاز.

ضحك جاسم وهو يقول:

- يا رجل، قل في باريس أو بيروت على الأقل!

- لا يا سعادة الكفيل! لستُ أطمح إلى هذا، وليس جرُّ الذيل في تلك البقاع من طموحي.

مشى جهة ركن في المكتبة، واستل مجلّدًا من كتاب الأغاني وبدأ يبحث عن صفحة وهو يقول:

- كنتُ مع مغنّي أهل مكة أبي مروان عبد الملك المشهور بالغريض.

تحرّك جاسم في مقعده متضايقًا:

- أهل مكة كان عندهم مغنٍّ!

- شوف يا سعادة الكفيل، اسمع ماذا جاء في كتاب الأغاني: «قال إسحاق وأصلُ الغناء أربعة نفر: مكّيان ومدنيان. فالمكيان ابنُ سريج وابنُ محرز، والمدنيان معبد ومالك».

وما إن فتح فمه لتقديم المزيد حتى رأى الرجل السوداني ذا الأكمام الواسعة واقفًا بالباب، وصوته يجلجل:

- السلام عليكم يا إخوانّا؟

وقف الشيباني فاتحًا ذراعيه:

- يا أهلا وسهلا... كيفك يا زول؟

- تمام الحمد لله.

وما كاد دفع الله يجلس حتى قال الشيباني:

- يا أستاذ دفع الله، هذا صديقي جاسم... سعادة الكفيل...

امتعض جاسم من خلال سحابة بنّية غطت تقاسيم وجهه وهو يقول:

- الله يقطع إبليسك!

واصل الشيباني:

- أخي جاسم، دفع الله مش غريب... فقد صار صديقي منذ قبض عليَّ وأنا أُروّج البندورة أمام المكتبة.

دوت ضحكة دفع الله وهو يستعيد مشهد الشيباني وسط زحمة السوق، فقال:

- البندورة ما تِرْكَبْ عليكْ يا شنقيطي!

أعاد الشيباني الحديث إلى سياقه:

- صديقي جاسم يستغرب أن حرفة الغناء كلّها جاءت من الحجاز.

رفع دفع الله كلتا يديه وشبك أصابعه، ومال بعمامته الضخمة البيضاء إلى الوراء قليلًا وقال بصوت واثق:

- شوف يا زول، كل شيء في تاريخنا خرج من مكة والمدينة. هذه الحضارة تتميّز من بين حضارات العالم بأنها بنتُ الدين. فالرياضيات عندنا وليدة علم المواريث، ويمكنك التأكد من ذلك من مقدمة كتاب «الجبر والمقابلة» للخوارزمي، وعلم الفلك وليد مواقيت الصلاة،

والنحو والبيان والخط أولاد القراءات.

في هذه اللحظة اقترب محمود يهمّهم بأغنية موريتانية حاملًا كؤوس الشاي. أخذ دفع الله كأسًا رشف منها بسرعة، ثم جاء صوت جاسم:

- يا شنقيطي، ما عرَّفتنا أكثر على الأستاذ.

- هذا الدكتور بابكر دفع الله، جرّاح في مستشفى حمد.

- أخوك جاسم إبراهيم.

قطع الشيباني الحديث مشيرًا إلى جاسم بلغة مسرحية:

- سعادة الكفيل! مالك المكتبة أو الشريك فيها على قوله!

ضحك ثلاثتهم، وساد صمت، قطعه صوت محمود يهمهم بأغنيته الموريتانية:

- رقيّقْ مَحزمْها وزْويناتْ أيديها!

قال جاسم:

- صاحبك يغنّي بشكلٍ جميلٍ... وش معنى كلامه؟

فقال الشيباني:

- يا أخي المفروض تكون لهجتك الموريتانية أقوى من لهجتي! هذا يردّد كلامًا لأحد الحمقى يتغزّل بامرأة، يا سيادة الكفيل.

وانتقل الحديث ليدور بين الشيباني ودفع الله حول آخر ما قرأه كل منهما.

فكّر جاسم في حال صديقه وحال هذا المشروع الذي استثمر فيه أموالاً على أمل أن يكون مشروعاً ناجحًا، أو على الأقل لا يتسبّب بخسارة، وينقذ صديقه ويؤمّن له عيشًا كريمًا. لكن الشيباني غارق في عالم الكتب ولا يبدو أن نجاح المشروع أو فشله من أولوياته. وخطر

لجاسم أن فشل المشروع سيحرمه من إنقاذ صديقه الذي يعلم حاجته، لكنه لا يستطيع مصارحته حتى لا يغضب. رفع عينيه في رفوف الكتب، وفكّر في ضرورة مصارحة صاحبه باستحالة تحقيق أرباح من الكتب بطريقة إدارته هذه في زمن هجران الناس للقراءة وللكتب الورقية.

ثم قرّر جاسم أن يؤجّل الحديث في موضوع المكتبة. فوقف وتوجّه بحديثه إلى دفع الله:

– تشرّفنا يا دكتور، أنا مضطرٌ للذهاب وإن شاء الله يكون لنا لقاء في وقت لآخر.

– أنا أيضًا مرتبط بدوام في المستشفى، ويسعدني أن نلتقي. وهذه بطاقتي وعليها عنواني وهاتفي.

ما إن خرج الصديقان حتى رنّ هاتفُ الشيباني.

كان اتصالًا مقتضبًا لم يدم أكثر من 45 ثانية بالضبط. لكنها كانت سلمى بكل جلالها وجمالها وسحرها وهمسها. كيف يمكن أن تضيّع كل سنوات التجلّد ومحاولات النسيان تلك؟ هل يعقل أن يتداعى بنيان بناه رجلٌ طيلة عشر سنوات بكلمة واحد من فتاة على بعد آلاف الأميال؟

كان ذلك الاتصال المقتضبُ كفيلاً بأن يحوّل حياته الغافية إلى سهر مرهق، ويرميَه – وهو مكبّل اليديْن والساقيْن – وسط غابات من الأوجاع والأحزان كان يظن أنه دفنها في غفلة من الليالي المتربّصة، والأيامِ التي لا تكف عن طلب ثاراتها منه.

انتبه وهو يردّد:

تَسَلَّى بأخرى غيرِها فإذا التي تَسلّى بها تُغري بسلمى... ولا تُسْلي!

***

# 17

بدءُ السـعادةِ أنْ لمْ تُخلَـق امرأةٌ!

فهـلْ تَـوَدُّ جُمـادى أنهـا رجَبُ؟!

**المعرِّي**

قطع الشيباني الساحة المتاخمة لقهوة عشيرج – مفكّرًا في تاريخ السوق – وهو يتأمّل أسراب الحمام القمري الذي أَلِف المتسوقين وأَلِفوه؛ حيث ينهمك عاملٌ من عمال السوق في إطعامه من القمح والذرة والحبوب المختلفة.

بدا له السوق في هذه الساعة من صباحات يناير قطعة خارج مجالها الجغرافي. فالسماء الزرقاء تحتشد بالسحب البيضاء، والأفق ملبدٌ بسحب تكاد تحجب الرؤية، والرذاذُ يداعب أرضية السوق التي تستقبل زخّات من أطراف الدكاكين المرهقة.

تداعب قطرات المطر أبواب الدكاكين التي على يمين الداخل إلى السوق من الساحة الواقعة أمام قهوة عشيرج، حيث المفروشات التقليدية والخيام والسجّاد والمقتنيات التراثية كالمباخر ولوازم الفرسان، والمصنوعات الجريدية من أقفاص وكراسٍ.

تجلس أمام تلك الدكاكين مجموعة نسوةٍ منقّباتٍ يبعن على بسط، وكأنهن صورة من جدّاتهنّ قبل ألف عام. على مقربة من السيدات الملتحفات بالعباءات السود، والبراقع الرمادية التي تطلّ منها العيون الشرسة، توجد عدة سفن من سفن الغوص معروضة على الرصيف

تؤرّخ للحظة مرتْ بهذه البلاد... وانقضت.

يوجد قرب سفن الغوص المعروضة نقشٌ يؤرّخ لتاريخ الصيد في الخليج عمومًا، فيعطي أرقامًا محدّدة عن أعداد البحّارة والسفن في البحرين وعُمان وقطر قبل مائة عام.

أزاح الشيباني نظراته عن السفن المعروضة مفكِّرًا في أن السوق يكاد يكون المكان الوحيد الذي يحتفظ بذاكرة البلاد، ويختزن لمحاتٍ من أوجه الحياة الاجتماعية القديمة. فقد تعرّضت الدوحة لتدمير عمراني تحت وطأة الوفرة النفطية، وغدا سوق واقف المكان الوحيد المنتمي للماضي في مدينة بلا ذاكرة. خيل إليه أن السوق يشبه الناجين من المجازر الكبرى، والمقاتلين العائدين من ساحات الحروب بجراحهم الغائرة، وأعضائهم المبتورة، وقصصهم المخيفة والملهمة. فكّر وهو يتأمّل تشقّقات الجدران في أن السوق يحمل قسماتِ الناجين من الأوبئة، وملامح المنفيين الذين يتحدّثون عن بلاد غريبة عاشوا فيها قديمًا. ومع الوقت المبكّر نسبيًّا فإن السوق بدأ يكتظ بزائريه. فطفحتْ بوابات المطاعم بالفتيان والفتيات من جنسيات مختلفة، يتحلّقون حول سفرة الصباح، ولفظتِ المقاهي - رغم الرذاذ - طاولاتِها أمام عتباتها في هذا الجو الباكر البهيج.

يكتظ السوق بكافة الألوان والسُّحَنِ، من عرب وأوروبيين وآسيويين وصينيين ويابانيين. ويمتلئ فضاؤه بهمسات الألسنة المختلفة واللهجات الغريبة. يُلخّص السوق قصة انفتاح الخليج، فهنا يتجاور العالمُ دون أن يتعارف، وتلتقي الألسنةُ دون أن تتحاور، وتتقارب الدماء دون أن تتمازج.

يستقبل سوق واقف الأثرياءَ النازلين إلى عالم السوق بحثًا عن لذائذ الفقر وجمال البساطة، بحثًا عن لحظات يقتربون فيها من وجوه

الحياة الطبيعية، كالجلوس في مطعم شعبي بعيدًا عن المطاعم الفخمة والفنادق الباذخة في مناكب الدنيا.

يصعد العمال الآسيويون إلى السوق كأنهم يخرجون من القبور، بحثًا عن صور الحياة الطبيعية التي يفتقدونها منذ تطأ أقدامهم أرض الخليج. يأتون للسوق بحثًا عن تفاصيل حياة يفتقدونها فيجلسون مع أبناء جلدتهم يتكلّمون لغتهم ويأكلون طعامهم... هنا ترى أمًّا تكلّم وليدها وتناغيه، أو فتاةً تضحك بغنج منفلت.. ثم تنتبه للعيون المتفحّصة فتخفض نظراتها. وترى أمًّا وأبًا جالسين إلى طاولة واحدة مع أطفالهما يأكلون ويضحكون... ويتعاركون.

تجاوز الشيباني مطعم باريسا الإيراني فلمح عشرة عمال آسيويين آتين من الجهة الجنوبية للسوق، يدخلون إلى المكان وكأنهم يمشون بخطى متهيبةً متردّدة حتى لا يدنسوا المكان. يخيل للناظر إليهم أن كل خطوة من خطواتهم لا تأتي إلا بعد تفكير كبير وتفحّصٍ متأنٍّ للأرضية. نظراتهم زائغة، وملابسهم رثّة، وضحكاتهم صادقة تنتهي بتوقّفات مفاجئة، ولا تكاد أي من ضحكاتهم تكتمل. فمجرد نظرة من متسوّق، أو حارس أو أي عابر كفيلة باغتيال الضحكة وإطفائها على شفاههم حالاً.

كانوا ينظرون بافتراس لكل شيء، يتأمّلون الأطفال الذين يركبون الأحصنة للترفيه، ويتملَّوْن الفتياتِ الجالسات يُدخّنَّ في المقاهي. يتلمّسون الملابس المعروضة... ويفكرون في موعد الخروج من هذه البلاد بعد أن يجمعوا ما يمكّنهم من شراء هدية لأمّ أو لولدٍ أو حبيبة... ينتظرون يوماً يستعيدون فيه حياة مؤجَّلة.

تذكّر الشيباني وهو يتأمّلهم أنهم يعيشون في معسكرات معزولة عن الحياة... يستيقظون للذهاب إلى أعمال قاسية، ويعودون مساء

إلى معسكراتهم التي تختلف كثيراً عن حياة مدينة عامرةٍ مليئة بالللذائذ والمشتهيات يشيدون شروطها بسواعدهم، لكنهم لا يرون من تلك المدينة إلّا الطرق التي تشقّها معاولهم ولا يسيرون عليها، والأبنية الشاهقة التي تبنيها سواعدهم ولا يسكنونها. فالدوحة - كأي مدينة خليجية - تُشبه أثاث المتاحف القديمة. كل مبنى منتصبٌ في الشارع، وكلُّ مصباح واقف يضيء هو تمثال لتخليد ذكرى عامل غريب دفع جزءًا من حياته كي يبنيه. فكل نافذة من نوافذ تلك العمارات، المطلّة بجبروت على صفحة الخليج، مشعلٌ لتخليد ذكرى عامل آسيوي أو افريقي هجر قريتَه وقبّل خطيبته بين عينيها، واعدًا إياها بالعودة بعد عام للزواج. لكنّه لم يستطع، فقوانين العمل تمكّنه من قرار القدوم، وتحرمه من قرار العودة... فظلّ يعمل مقهورًا حتى سقط من فوق آخر طابق في البناية التي كان يبني.. سقط يومًا واحدًا قبل يوم الزواج الموعود. وبعد لحظات من سقوطه على الأرض تمتم بوصيته لأحد رفاقه:

- إذا عدت إلى قريتنا الخضراء، وعادتِ الماشية من المراعي مساءً، ورجعت الطيور إلى أعشاشها تزقزق بعيد الغروب، فقل لخطيبتي إني تركتُ لها هذا البرج ذكرى لحبّنا الأبدي.

وخطر للشيباني أن المدن الكبيرة مثل الحقيقة... لها ألف وجه. تتشابه مداخل الدوحة ومخارجها، لكن لها ألف وجه وذكرى. ذاكرة بنات شرق أوروبا عن أماسٍ ناعسة، وغرف مشرّعة على خليج هادئ، وأغانٍ صادحة، وكؤوس تتقارع.... وزوايا فنادق حالمة. وذاكرة العامل الطافحة بصور الإسمنت المسلح، والخرسانة الحزينة، والغبار الكريه، وصرخات مسؤولٍ يستحثّ، وطابور باصات يقف قرب عمارة قيد البناء.... وآلاف الشخوص بملابسهم التي تشبه ملابس المحكومين بالإعدام يتراكضون عند المساء للعودة إلى الجحور التي ينامون فيها

ليلًا، ثم يبعثون صباحًا للدخول مرة أخرى إلى مدينة لا يتمتّعون بشيء من مفاتنها.

استيقظ الشيباني من تلك الخواطر وهو جالس على كرسيه البلاستيكي الأبيض داخل مكتبته. رشف من كأس الشاي الأخضر، ونظر إلى ساعته ملاحظًا ازدحام المطاعم. لم يملك إلا أن يمارس هوايته المفضلة في إحصاء أعداد الداخلين إلى المطعم المقابل. وانتبه محمود إلى الأمر، فبادره:

- السوق اليوم ميت!

التفت إليه مُغضِّناً جبهته:

- الميت من السوق جانبُنا فقط، أما باعة الأعلاف فأنشط من الشيطان، وأكثر زبائن من شركات الاتصالات، وأوفر مالًا من جيف بيزوس.

ثم أشاح ببصره إلى الزقاق متأمِّلًا المارة.

لمح فتاة في ملحفتها الموريتانية مسرعةً حيرى تبحث عن طفل، فسكنتْ نظراته الزائغة.

كانت مسرعةً وملحفتُها تنحسر قليلًا عن مقدِّمة رأسها، بينما تُمسك وسط ثوبها بيدها، وهي تسأل شرطي المخفر بأنفاس متقطعة:

- هل رأيت طفلًا يلبس قميصًا أبيض، وسروالًا أسود؟

طمأنها الشرطي بأنه موجود. وخرج الطفل من وراء الشرطي بفرك عينيه باكيًا، وابتسمت الفتاة شاكرة.

كان ذلك المشهدُ السريع العادي رصاصةً استقرّت في قلبه.

اختنق قلبه بدمائه، وضاقت مناخيره عن نفَسه. لقد أيقظت رؤيتها ذكرى ظنّها ماتت. رفع يده متلمِّسًا جدار المكتبة، فلاحظ محمود

الأمر، فتلقّاه وأسنده وهو يصرخ:

- ما لك؟ خير؟ هل أتصل بالإسعاف؟

- لا أبدًا، لا شيء!

استعاد الشيباني القدرة على الوقوف، وجبينه يتفَصَّدُ عرقًا، وقلبه يقرع قفص صدره، وذهنه ضاج بآلاف الصور والكلمات والذكريات المفعمة بالمشاعر الجياشة.

كان يظن بأن فراشات قلبه قد كفّتْ عن التحليق، وذاكرته قد تحرّرت من أوحالها، وعقله قد تجاوز ذلك العالم المرهِق الذي لفظه ليدور في عوالم يصعب عليه التآلف معها.

كان يحسب أن الجرح الغائر الذي أنفق آلاف الساعات لعلاجه قد اندمل، وأن جراح الروح قد التأمتْ ونبتت مكانها أشواك حديدية. لكن وجه تلك الفتاة كان هاتفًا فردوسيًّا آتيًا من مدنٍ وردية بعيدة، وتَذكارًا من أوقاتٍ سحريّة بيضاء، وصوتًا مُضَمَّخًا بعبير الذكريات العزيزة، والضحكات العميقة لأكثر الأمور صبيانية.

كان صوتًا قادمًا من عالم لا سلطان للزمن عليه، عالمٍ كان قبل تكوُّنِ التاريخ، وتكوّر النهار على الليل. يحاول التخلّص منه فلا يملك أن ينساه.

جاء صوت محمود مكررًا:

- هل أنت بخير؟

دخل الشيباني إلى المكتبة يجرّ ساقيه، دون أن يرفع وجهه، وهمس:

- اعطني كأسًا من الماء!

تكوَّمَ على كرسيه وراء النضد، ضعيفًا مشتتًا كأنه كبِرَ عشر سنوات. عيناه مترعتان بالدموع وذهنُه مشدودٌ إلى أمسيات متأرجحة بين

الرغبات والذكريات، بين الواقع والحلم.

منظرُ الفتاة الموريتانية أعاد إلى ذهنه الاتصال الغريب الذي تلقّاه أمس عدة مرات. كان هاتفه يرن، فإذا أجاب لا يسمع أي همس. بل يظلّ الطرف الآخر ممسكًا بالسماعة، تُسمع أنفاسه بوضوح فقط.

خيل إليه أن ذلك النفس يرجع لذلك الصوت الذي يعرفه جيّدًا. جلس مُتكَوِّمًا في مكانه ووجهُه يَرْفَضُّ عرقاً، حتى ذاق طعمَ امتزاج دموع العجز بعرق الخوف على طرف لسانه، كأنه طفل عاجز حتى عن تنظيف نفسه.

جلس ساعات مشدوهًا يسمع قرعَ قلبه لقفص صدره... ويجد مرارة الدمع على طرف شفته.... يتذكّر ذلك الهمس الذي سمع عبر الهاتف:

- تعال، ارجع حتى تُثبتَ لهم أنكَ لست كما يزعمون!

***

# 18

لو حــطَّ رَحْلِيَ فــوق النجمِ رافعُه

ألفيــتُ ثمَّ خيــالًا منــكِ مُنتَظرِي!

المعرِّي

– يا سلام! عليك الله من وين تجيب هذي الكتب؟

قالها بابكر دفع الله، بنصف ابتسامةٍ وهو يجلس على الكرسي أمام النضد، والشيباني وخميس يُغرقانه تَرحاباً. التفت الشيباني نحو محمود، القابع في الركن على مواعين الشاي:

– جيبْ كاس بالعجلة!

وأعاد نظره إلى دفع الله:

– آتي بالكتب من نفس الأمكنة التي تُطبع فيها ببيروت، لكنّي أنتقيها انتقاءً! والانتقاء مما تقذفه مطابع بيروت في أيامنا هذه أمر صعب. ولذلك كان أحد المثقّفين في بلادنا يقول إن الحسنة الوحيدة للحرب الأهلية في لبنان أنها أوقفتْ سيلَ العفونات التي كانت تتقيأها مطابع بيروت.

– يا سلام! هذي أول مرة أرى نسخة من «العقد الاجتماعي» بترجمة سمُّوح فوق العادة. بحثت عنها عشرين عامًا.

تردّدت يد خميس بين ركبته وغترته وقال:

– وما قيمة هذه الطبعة بالذات؟

ونزع دفع الله نظارته بسرعة:

- شوف يا أخينا، إن ترجمة سموح أفضل ترجمة لكتاب روسو. فقد أُنجِزت في ستينيات القرن العشرين، قبل استعجام العرب وتدهور تعليمهم بسبب ولعهم بالمدارس الأجنبية.

نظر الشيباني إلى حركة عينيْ خميس، منتظرًا ما سيقول.

ولم يتأخر خميس، فقد أعاد ضبط غترته التائهة على هامته وقال:

- وش قيمة الكتاب كلّه أصلًا!

قال دفع الله بانزعاج مستغربًا ما قاله خميس:

- قيمته أنه يقدّم مبادئ عن طريقة إدارة البشر لخلافاتهم السياسية. إنه نص مؤسّس في الفكر السياسي.

أدار خميس بصره في السقف المكوّن من الإسمنت والأخشاب العنابية وقال:

- والله ما نحتاج لهذا النوع من الكتب.

كان دفع الله مسترخيًا في كرسيّه البلاستيكي، ويداه تُرتبان عمامته البيضاء الكبيرة، وهو يتأمّل خميسًا. عدّل من جلسته، ووضع رجلًا على أخرى وقال:

- لا قيمة لأي كتاب لا يُعرّف الناسَ كيف يديرون دنياهم، وكيف يحاسبون حكامهم. أما تدري أن القرآن كتاب في صميم الفكر السياسي؟ ألا تعلم أن نابليون في طريقه إلى مصر كانت معه مكتبة كبيرة، صنَّفها تصنيفًا موضوعيًّا، ثم انتزع القرآن من خانة الكتب الدينية ووضعه في ركن الكتب السياسية... لأنه رجل عاقل يعرف أن القرآن كتاب خطير.

شوف يا زول، قصة الأنبياء كلّهم متمحورة حول إقامة العدل،

ولذلك جاء في القرآن أن كل هذي الحفلة عشان العدل: «ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط!».

حرّك خميس جفنيه فبدت عيناه أوسع من حجمهما قائلًا:

- الله هو الذي يحاسب الحكام في الآخرة، أما نحن فعلينا طاعتهم في الدنيا. طاعة لي الأمر واجبة ولو أكل مالك وجلَدَ ظهرك!

كان كل من الشيباني ودفع الله يتأمل الآخر حابسًا لسانه. لكن دفع الله قال بسخرية:

- لو كان الإسلام الذي تؤمن به هو الإسلام الذي جاء به الرسول لكان أبو جهل من العشرة المبشّرين بالجنة! فما دام الإسلام يأمر الأدنى بطاعة الأعلى مهما طغى فلمَ اعترض عليه صناديدُ قريش وآمن به المستضعَفون؟!

جاء صوت الشيباني ملوّحًا بيده في الهواء:

- دعونا من باب ساسَ ويسوسُ، فلا خير فيه، والخوض فيه لا يقود إلى أي نتيجة. والتفت إلى محمود:

- جيب كيسانْ بالعجلة!

وامتشق هاتفًا أسود متواضعًا واتصل قائلًا بالإنكليزية:

- عمر بن أبي ربيعة، تعال بشطائر وفطائر.

وأنهى المكالمة باسمًا.

قال دفع الله وقد انتقل مزاجُه من التوتّر إلى التطلّع:

- عمر بن أبي ربيعة!؟

اندفع الشيباني يروي القصة بحماسة. وتداخلت ضحكات خميس ودفع الله. وبعد دقائق كانت الفطائر على الطاولة، ورائحة الشاي

الأخضر المختلطة بروائح الطعام تملأ أرجاء المكتبة. والتفت الشيباني إلى دفع الله مائلًا عليه:

– شايف؟ إن السياسة لا تدخل مجلساً إلّا عكّرته، ولا خير في فتح بابها.

هز خميس رأسه موافقاً، لكن دفع الله اعترض:

– لا يمكن للإنسان أن يعيش خارج السياسة... إنها تحاصره، وإنْ تركها طاردته، وأنت مسَيَّسٌ أكثر مني.

– كيف؟

– إن ترك السياسة أعلى أنواع ممارستها. لأنك تترك مكانك شاغرًا لمن لا يشاطرونك أفكارك بملء إرادتك، وتريح مستبدًا بمحض إرادتك، ولا تنصر مظلومًا بمحض إرادتك، والناقص محسوب في الرياضيات، والترك فعلٌ كما يقول علماء الأصول.

ابتسم الشيباني:

– أرجعتنا للسياسة! والله ما ندري، هل أنت طبيب أم عالم بالشريعة؟

وتردّدت ضحكات فاترة، أنهاها دفع الله قائلًا:

– نعوذ بالله من علم لا ينفع!

رن هاتف المكتبة، فتهادى الشيباني بهدوء ووضع السماعة على أذنه وقال بلهجة إذاعية:

– مكتبةُ الشنقيطي تُحييكم وتُبَيِّيكم!

وسمع صوتًا ثقيلَ الأنفاس ما زالت حباله تحتفظ ببقية نوم:

– أبي حبة دجاج مْسَحَّب!

- سَحَبَكَ اللهُ على وجهك في الجحيم! وأطعمك من ردْغَة الخبال.... ويقَصّرْ عُمركْ!

وصكَّ السماعةَ بانزعاج، وعاد ليجلس. افترسته عيون جليسيْه بتطلّع، وتلوّنت وجنتاه بالحمرة وهو يقول:

- كان المتّصل يظننا مطعمًا - لا أطعمَ اللهُ بطنه! - وطلب دجاجًا مُسَحَّبًا!

قال دفع الله مداريًا ضحكة:

- بالغتَ يا زول! هذه أغلاط في الأرقام عادية تقع باستمرار.

- هناك أمور لا ينبغي أن تقع خطأ. هل تدري ماذا حدث لي قبل أسبوع؟ دخلت مسجد السوق، وكنت أرتدي دراعة فاخرة فخفتُ من تطاير الماء عليها أثناء الوضوء فعلّقتها. وعندما خرجت من الميضأة لألبسها وجدت سبعة بنغاليين يتعاقبون عليها بالدور، كلٌّ ينّشف وجهه وذراعه ظانًا أنها منشفة علّقها فاعل خير هناك!

تراجع دفع الله إلى الوراء في مقعده ضاحكًا، وضرب خميس الأرض برجله مقهقهًا. واصل الشيباني غاضبًا:

- تقول لي هذا اتصال بالغلط؟ ينبغي أن يكون الغلط في الاتجاهيْن. وأنا أراهن أن أحدهم لم يغلط يومًا ويتّصل بمطعم فلافل سائلًا عن كتاب «المنقذ من الضلال» للغزالي.

وخطر للشيباني أن خميسًا لن يترك اسمَ الغزالي يمر دون تعليق. ولم يتأخّر خميس:

- والله هذا من الفطرة! فالأفضل أن يأكل الإنسان فلافل تقيم أَوَدَه بدل قراءة كتاب لمؤلّفٍ ضالٍّ لا ينفعه في الدنيا ويُصليه جهنّم في الآخرة.

رفع دفع الله رجله عن أختها محدِّدًا نظراته إلى خميس:

- ما معقولْ يا أخينا! الإمام الغزالي إمام من أئمة المسلمين، وعقل من العقول النادرة في تاريخ البشرية، ورحلته الفكّرية برهان على إخلاصه وصدقه.

- بس، كان صوفياً، وعقيدته مضروبة!

استقام دفع الله في جلسته، وقال بصوت حازمٍ كأنه رجلٌ يملي وصية:

- شوف يا أخي خميس، سلوككم تحكمه نقطتان: محاسبة المسلمين على كل شيء مع سوء الظن بهم، والتغاضي عن أفعال الحكام في كل شيء مع حُسن الظن بهم. وأنا متأكد أن الغزالي لو كان فقيهًا اليوم في بلاط حاكم لما انتقدْتَه بشطر كلمة بحجة أنه يقف إلى جانب «وليِّ الأمر».

- هوِّن عليك يا بو... أبو....أبو مين أنت؟

- تاج السر!

- شوف، يا بو تاج السر، كل ما قلتُه إن عقيدة الرجل سيئة. فما الداعي لكل هذه الخلاصات، كأنك كنت تنتظر الفرصة لتقول أمرًا وقد قلتَه!

- أنا لم أفتئت عليكم.

ثم وجّه الكلام إلى الشيباني:

- يا شنقيطي، هل تذكر فتوى أحد شيوخهم بوجوب طاعة المحتلين الأميركيين في بغداد بحجة أنهم «ولاة أمر»؟!

هنا قرّر الشيباني تلطيف الجو، مستغلاً صراخ الببغاء في طرف المكتبة، فقال:

- صلّوا على النبي! لقد انزعج أبو تمام من كلامكما، واحذرا أن يهجوكما!

ارتطمتْ النكتة الباردة بطبلات آذان جليسَيْه ولم تنفذ.

وقف دفع الله متظاهرًا بالبحث عن كتاب، نصفَ نادمٍ على أنه أغلظ القولَ لجليسيه. وأمسك كتابًا من الرف وعاد ليجلس، وهو لا يرفع نظره عن الكتاب.

وقبل أن يرد خميس، ارتفع أذان العشاء قادمًا من المسجد الواقع في جنوب السوق. صمت الثلاثة، ودخلت مجموعة من الزبائن إلى المكتبة، فبادر الشيباني ومحمود للمساعدة.

تقدّم شاب ذو جسمٍ ضخمٍ وملابس رياضية قائلًا للشيباني:

- حدثنا كثيرون عن المكتبة، وعن اختيارات القيمين عليها. مكتبة جميلة وغنية ما شاء الله.

برقت عينا الشيباني، خاصّة وأنه في آخر لقاء بينه وبين جاسم ظهر أن المكتبة حقّقت بعض الأرباح عندما راجعا الحسابات آخر مرة. وقد لاحظ الشيباني ازدياد الزوّار في الأسبوع الماضي.

ما إن خرج الشاب بعد أن اشترى كمية لا بأس بها من الكتب، حتى رن الهاتف، فرد الشيباني بنفس منشرحة:

- السلام عليكم!

كانت على الهاتف فتاة:

- ولد الشيباني؟

- نعم، تفضّلي.

- أنت داخل المكتبة؟

– نعم.

– أنا أقف في الخارج وعندي رسالة خاصّة جدًّا أود تسليمك إيّاها. هل يمكن أن تخرج إليَّ قليلاً؟

خرج الشيباني مرتبكًا. كانت فتاة منقّبة، مما زاد في إحراجه وإرباكه. دسّت الفتاة ظرفًا في يده. وبعد ثوانٍ عاد يتلمّس الرفوف بيده جارًّا قدميه باحثًا عن مقعد يرمي عليه جسمه النحيل. وارتمى على كرسيه وراء النضد. جاءه صوت دفع الله:

– خيرًا، هل أنت بخير؟

– حمدًا لله، تعبان شوي.

استأذن من جلسائه، وأخذ الدرج إلى غرفته الواقعة فوق المكتبة، وارتمى على سريره وصورٌ كثيفة متسارعة ترهق خياله.

***

لم يفتح المغلّف، فقد كان يخاف أن يرى فيه وجهها. تلك الفتاة المجدولة التي أنفقتْ نساء العرب والبربر عشرات القرون من الولادات الناقصة كي ينجبنها مكتملة. تلك الفتاة التي كان على قبائل متحاربة، وأسر متصارعة أن تتجاوز خلافاتها وثاراتها وتتزاوج حتى تستطيع الأرحام إنضاج جمالها.

استعاد صورتها بعينيْها السوداوين وشفتيها البارزتين، والتفاتاتها السخية، ومشيتها الموسيقية. وشخصت في ذهنه حيّة متحرّكة ملأى بالوعود المغدورة والأماني المجهضة.

قال مرّة لصديقه إنها إذا ابتسمت ابتسامةَ مطلع القصيدة يشعر بالسدود تنهدم، وبالحدود تنمحي.... ويخيّل إليه أن العالم استغنى عن الأوراق الثبوتية، وأن الخرائط أعيد رسمها من جديد... فكيف

يظلّ كلّ شيء كما هو بعد تلك الابتسامة؟ تزاحمت في ذهنه مواقف وذكريات.

يوم وقفا على الشارع العام... أمام مدخل كلية الآداب بجامعة نواكشوط.

وقفا خياليْن من عالم غابرٍ! كانا آخر أميرَيْن من قبيلة انقرضتْ بعد أن مات أجدادها وجدّاتها بوباء الحب. كانا الوحيدين على ظهر الأرض من ذرية أمير وأميرة انتحرا معًا بعد أن حطّمتهما أمواجُ الحب العاتية، فلم يستطيعا الاستمرار في الحياة... فقرّرا الانتحار على ذِرْوة موجة من أمواج المحيط غرب نواكشوط، أيام ظهور المرابطين، وهما ينظران إلى غيمةٍ وينشدان الأشعار.

وقفا هناك، يظلّلهما حبّ مجنون كما لم يقع لحبيبين قبلهما. حب مجنون طليق، انطلق من شرق موريتانيا إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها يسرق أشجار الأنساب، ويصالح بين القبائل، ويقنع شيوخ النسّابين في المساجد بمحكية مغايرة لما يعرفون عن أصول القبائل وأسمائها وألقابها ومياسيمها. حبٌّ لا يعترف بنقاء النسب ولا بكُدُورته... سيل جارف، يجرف الطبقات الاجتماعية والعقليات المستقرّة، والصفات الوراثية البائدة والسائدة، ويقطع أشجار الأنساب.... ويعيد تعريف النطف في مستقر الأرحام.

تذكّر الشيباني كيف وجد نفسه بعد ذلك يدخل مكّة المكرّمة حاسر الرأس يدب في أثواب إحرامه البيضاء، وهامته الضخمة تعلو وتسفُلُ بين آلاف البشر.

كان غارقًا بين آلاف الناس... يسمع أدعيتهم في لحظات يغفل فيها العباد عن ذواتهم فترتفع أصواتهم بأسرارهم في لحظات الدعاء

الكثيفة. سمع من يدعو ليُرزق ولدًا، ومن يتضرّع لربه بعيون زائغة ليشفيه من أمراض قاتلة... ولن ينسى تلك العجوز السريلنكية التي تقول بعربية مُكسرة: «اللهم... إحْفزْ ولدي الوحيد!».

أما هو فكان يتمرّغ بين تلك الجموع طالبًا طلبًا وحيدًا.

يكرّره ولا يمل من تَكراره. يرفع به صوته إذا اقترب من الركن اليماني... «اللهم انزع حبها من قلبي!».

جاءت موجة عاتية من الطائفين فحملته على أكتافها وألقت به وراء مقام إبراهيم... وهناك كانت تقف أمامه... وجهها بين عينيه... كأنها تطارده حتى بين الصفا والمروة. بل خُيِّل إليه أنه هو إساف وهي نائلة... قبل أن يصبحا صفا ومروة. عاشقين... متقاربين.

هناك داخله شك قويّ! هل كان يدعو بأن يُنزع حبّها من قلبه، أمْ دعا أن يشتدَّ أُوارُه في كبده؟ فقد لاحظ أنه كلما أرجع لها الضمير شخصت في خياله.... هي كما هي دائمًا.. بالابتسامة الخجلى... والعينين الناعستين... والغنج الفوّاح، والحركات الموقَّعة.

وتذكّر نفسه يخرج من بيوت الجدّات المعتكفات، يناجيهنّ واحدة واحدة، طالبًا منهن أن يدعين له لحاجة في نفسه كي تُقضى. وكلما خرج من عند إحداهنّ خُيِّل إليه أنها فهمت عكس ما قال.... ودعت بتمكّن ضرام الحب من ذلك القلب الذي اكتظ بماء العشق حتى ضاقت شرايينه واختنقت.

كما تذكّر كيف سافر يومًا وليلة في منطقة جبلية شرق موريتانيا كيْ يزور ضريح جدّه. وقف عند رأسه وحكى له كل شيء.... ثم ختم بأنه زاره لقضاء أمر يهمه. وعندما عاد لاحظ أن ضرام الحب قد اشتدّ، فعاد إلى جدّه وشرح له أنه يريد زوال الحب لا اشتداد ضِرامه.

أفاق الشيباني من كل ذلك فإذا هو هنا في غرفته فوق مكتبته بسوق واقف. وقف متثاقلًا ناظرًا إلى المرآة. لمح وجهًا ممتقعًا، وجبهة واسعة وأنفًا مائلًا وعينين حمراوين. وخُيِّل إليه أنه لا يعرف هذا المخلوق الذي يساكنه داخل غرفته هذه.

عاد وجلس على طرف السرير منكمشًا كسيفًا، ضعيفًا. تقارب منكباه، وتدلى ذقنُه جهة صدره، وتقارب ساقاه، كأنه يختبئ من العذابات التي تملأ قلبه. ذلك القلب الكبير الذي تطوف به مئات الخواطر والقصص والمشاعر والذكريات في ثوانٍ.

نزلت هموم الدنيا على كتفيه. تخيّل العادات والتقاليد قيدًا حديديًّا يُدمي معصميْه، ووحشًا جهنّميًّا يختطف حسناء عزلاء من بين يديه وهي تصرخ:

- أنقذني.... حتى لا تُثبتَ لهم أنك كما زعموا.

جلس في الظلام صامتًا، لا يسمع إلا صوتَ أنفاسه المتقطّعة، ودقات قلبه اللاهث، وضجيجَ أمنياتِ اليأس وذكرياتِ التأنيب. وشخصت في عينيه صورتها حبيسة في مكان مظلم بسببه.

صرخ صرخة مزّقت سكون غرفته، وأفاق منها وهو يسمع قرع نعال محمود قادمًا على السلّم. دقّ الباب بعنف:

- أنت بخير؟ أياكْ ما سمعتْ خبر شينْ؟

- لا بأس، لا بأس... الحمد لله.

وطلب من محمود أن يتركه ويهتم بالمكتبة.

شعر بتعبٍ يسكن كل ذرةٍ من ذرات جسمه وهو يتأمّل سقف غرفته المظلم. شعر بتعبِ من سافر آلاف الأميال، وهبط آلاف الوديان. ظل جامدًا لا يتحرّك مستلقيًا على ظهره. تلك الضجعةُ التي ستقضّها واقعة

قُبَيل الفجر.

***

# 19

على كل شـــيء تهجمــون بجهلكم
وأعياكــمُ يومًا علــى رشَــدٍ هجْمُ!
المعرِّي

استيقظ على رنين الهاتف. مدّ يدًا متثاقلةً لهاتف مدسوس قرب وسادته فجاءه صوت شاب موريتاني زاره قبل أيام في المكتبة:

- اشحالكم أياك لا باس؟
- الحمد لله، أياك الخير؟
- توفّى أحد الشباب ونحتاج مساعدتك!
- أين أنتم؟ في المستشفى؟
- تعال إلينا في أم غويلينة قرب مسجد أبي بكر... نشرح لك ما جرى.

قفز من فوق سريره، يفرك عينيه مردِّدًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وجد نفسه بعد قليل يسير وحيدًا في شوارع موحشة في حي أم غويلينة. انتابه شعور بالندم لرده على الهاتف والذهاب إلى هذا المكان، ثم عنّف نفسه على ذلك الخاطر. فكيف يتردّد في طلب مساعدة من شخص من بني جلدته ولو كان في الأمر مخاطرة كما خطر له.

كان الشاب يتصل به ليصف له شارعًا قرب مسجد أبي بكر. مشى

في شوارع خالية في الحيّ الذي يتشكّل غالبية سكانه من شباب من شرق آسيا وبعض الدول العربية. كانت الساعة نحو الثالثة صباحًا. لاحظ أنه العابر الوحيد في هذه الأزقة. زكمت أنفَه رائحةُ الأطعمة الهندية المُبَهَّرة، فأمسك كم دراعته الواسعة وغطى به أنفه وهو يسرع ولا يسمع إلا قرع نعليه. رن هاتفه من جديد، وإذا بالشاب يستحثّه:

– الموضوع معقّد، ونحن شباب جهلة ولا نعرف البلد.. أسرع!

وما كاد الشيباني يأخذ الزقاقَ المحاذي للسجد حتى وقعت على وجهه صفعة قوية. وجد نفسه في زقاق ضيق يحيط به أربعة فتيان. كان الزقاق ضيقًا ومفتوحًا من جهة واحدة. أحاطوا به من الجهات الأربع في صمت، وكل منهم واقفٌ وِقفةَ المُسْتَوفِز للضرب.

رفع الشيباني يده ولمس مكان الصفعة التي خيل إليه أنها أحرقت صفحة وجهه. رفع الشاب الواقفُ أمام وجهه مباشرة يده، لكن الضربة أتته هذه المرة من الخلف.

لا يذكر بعد ذلك من ضربه ولا أين أو كيف. كل ما يعرفه أن ألماً حادًّا كان يلسعه في كل ذرة من جسده، من دون أن يجد دمًا على أعضائه أو ملابسه.

وعندما أدبروا عاد أحدهم وقال بلغة تهديدية، وبلكنةِ لصوصِ الحواري في نواكشوط:

– ينسخكْ يا الفريخْ! تتجرّأ على بنت الجنرال؟! إذا تجرأتَ في المرة القادمة، أو أخبرتَ الشرطة بما وقع ستجد رأسك بين كعبيك!

وأدبروا وهو يسمع قرعَ نعالهم، مختلطًا بأصوات أذان الفجر، وبأزيز قوي في أذنيه وصخب حارق في كل ذرة من ذرّات جسده. وخلا الزقاق وهدأت الأصوات، وظل مستلقيًا بمكانه غير قادرٍ على

الحراك.

استطاع بعد جهد الوصول إلى سيارة الأجرة ونزل منها عند منارة فنار قرب سوق واقف. قطع الشارع المؤدّي إلى السوق، والتفت شرقًا فرأى حاجب الشمس يطل من فوق صفحة أمواج الخليج. بدت له الشمس حزينةً، كسيفة، صفراء، ذاويةً تتردّد في الإشراق. كيف تشرق الشمس على عالم كهذا؟! عالم مليء بالغدر والظلم؟

كان وحيدًا يمشي بخطى متثاقلة في أزقة السوق، شاعرًا بالضعف والصغار والضعة.

كيف يقع هذا؟

كيف أنتقم؟ وما الطريقة التي يمكنني بها الانتقام؟

كان السؤال المقلق الذي يدور في ذهنه: هل يتّصل بالشرطة فيخبرها أم إن إخبار الشرطة سيفاقم الأمر. ثم استعاد كلمتين من الجملة التهديدية: «بنت الجنرال».

وشخصت صورتها في خياله.

شخصتْ ذكرى من عالمٍ فردوسيٍّ ضائع، وأملًا ذوى ولمّا ترتسم ملامحُه. واستعاد ابتسامتها التي كان يشبّهها بمطلع القصيدة، وخُيّل إليه أنه شم رائحة الشاي الأخضر بالنعناع في كافيتيريا الجامعة ممزوجًا بإيقاع ضحكتها، وشفتيها الغنجتين، وابتساماتها الموقَّعة بالحياء.

وجد نفسه يلجّ باب مكتبته. ركض بصعوبة فوق الدرج ليدخل غرفته. رمى نفسه فوق السرير. وتقافزت الأسئلة الحارقة في ذهنه. بل خُيِّل إليه أن قرية نمل كاملة تدب فوق قشرة دماغه... شعر بعجز قاتل وضعفٍ مرير.

كيف يكون عالمه هكذا؟ كيف يفقد الإنسان قيمته لمجرّد كونه

قَذْفةً قذفها رجل من عرق معين؟! كيف يصبح مكان الميلاد، أو اسم الأب عائقًا أمامه عن الوصول إلى ما يستطيع الوصول إليه غبيٌّ آخر لمجرّد أنه ابن فلان؟

وانفجر باكيًا كطفل رضيع.

فجأة، جفت الدموع من مآقيه.. وذبل البكاء فوق شفتيه، وخيل إليه أن قُرونًا من الجحيم نبتت له، وأن قلبه تحوّل إلى قطعة من حديد.

مرّت ساعة كاملة مفكِّرًا بعمقٍ في ظلام الغرفة. كان يدرك أنه أمام أحد خيارين: إما أن يتقبّل عجزه ويسلّم به وينسى معنى الحياة التي يصبو إليها، وينسى سلمى. وإما أن يتحمّل الصعاب في سبيل خلاص روحه ولو خسر حياته.

لكنه لو سلّم بعجزه سيخسر روحه ويخسر سلمى. فكر في أنه طالما أن والد سلمى يلاحقه هنا، فذاك يعني أن سلمى لا تزال تحبّه كما يحبّها. وأنها تقاوم ضغوط والدها وجبروته. وأن رسالتها تلك كانت نتيجة ضغوط لم تستطع مقاومتها.

تذكّر أن عليه حمايتها، أو أن يتجلّد ويواجه المصاعب كما تواجهها هي على الأقل. وصرخ بصوت عالٍ:

«لن أرضى الذلَّ والعجز».

سمع محمود الصرخة المدوية فصعد الدرج مسرعًا وقرع الباب.

- اياك لا باس؟

- أنا بخير افتح المكتبة وبعد قليل سأنزل.

***

# 20

بالخُلْـفِ قام عمـودُ الدينِ: طائفةٌ
تبنـي الصُّروحَ... وأخرى تحفرُ القُلُبا!
**المعرِّي**

أخلى الشيباني الجانب الشمالي من المكتبة، واضعًا فيه كراسيَ أنيقةً، وصورًا وخرائط. فعلى الجدار الشمالي بعد الباب المفتوح غربًا، وضع لوحة شيخٍ موريتاني في صحراء مترامية، وبقربها رسم للشيباني يركب جملًا، وبين اللوحتين رسم أخّاذ لمحظرة موريتانية من القرن الثامن عشر الميلادي رسمها رسّام فرنسي مغامر دخل البلاد وطاف بأطرافها.

في الفراغات ما بين اللوحات يغطي سجادٌ أحمر مُنجّدٌ بأناقة كامل الجدار، وفي وسط المكتبة يقف الببغاء الرماديّ الهرم داخل قفصه الحديدي، موزّعًا نظرات الفيلسوف على رفوف الكتب. وتحت نظراته في الزاوية، يقبع صانع الشاي الماهر، وأنامله تلعب بكؤوس الشاي الأخضر.

كان الصباح باكرًا، ورياحُ يناير الباردة تعوي في أطراف السوق. نزل الشيباني إلى مكتبته شاعرًا بانشراح كما هو حاله منذ أن اتّخذ قراره بأن يواجه المصاعب دفاعًا عن كرامته وعن حبيبته التي تمنح حنايا ضلوعه الدفء والشجاعة.

نزل من الدرج الداخلي الذي يقوده إلى المكتبة، ورفع عينيه متطلعًا

لرؤية الببغاء الذي لم يسمع له صوتًا طوال الليل. دار حوله متأمِّلًا. ثم جعل يلقي عليه قصائد من الشعر ليطربه بها. فقد قرأ في إحدى الموسوعات أن هذا النوع الرمادي منها يستطيع حفظ ألف كلمة.

وقف قبالته وقال:

لياليَ بعد الظاعنين شُكُولُ طوالٌ، وليل العاشقين طويلُ!

كان الشيباني واقفًا في قميصه الأزرق بياقته البيضاء، يرفع رأسه ويخفضه مع بداية كل بيت ونهايته، كأنه يهوديّ يتعبّد:

متّعينا من حسن وجهكِ ما دام فحسن الوجوه حالٌ تحولُ!

لكن الببغاء ظل واجمًا صامتًا عكِرَ المزاج. فاقترب منه وأمرَّ يده على ريشه وغنى له غناء بدويًّا شجيًّا. وأثناء لعبه بريشه لاحظ وجود وشْمٍ مطبوع على جناحه، متوارٍ تحت ريشه الكثيف. وشم أخضر يحمل الرقم: (B554 – 33A66G67). كتب الرقم على ورقة وركض إلى غرفته بحماسة قارئ لغاتٍ منقرضة وقع على شفرة لغةٍ ميتة. وضع الرقم بين علامتيْ تنصيص وألقمه لغوغل، وبعد بحث مضنٍ وقف شعره صدمةً.

قاده الغوص في محركات البحث إلى سيرة ذاتية للبغاء، منشورةٍ في مجلة خاصة بأخبار الموتى يصدرها دَيرٌ فرنسي مهملٌ بقرية نائية في كوستاريكا.

جلس يقرأ سيرة الببغاء بعينين متّسعتين، وفم مفتوح، وخيال ملتهب.

كانت السيرة الذاتية منشورة مع صورة للبغاء يبدو فيها أصغر بكثير.

علم أن الببغاء عاش في بيت عجوز كاثوليكية توفّيت منتحرةً أمام عينيه في جادة سان ميشل بباريس. واشتراه تاجر مخدرات مكسيكي،

طالما عايشه رفيقًا في مغامراته التي لا تنقضي.

وعلم من ملاحظ التواريخ أن عمر الببغاء لا يقل عن ثمانين عامًا.

نزل السلّم ركضًا، ووقف أمام الببغاء وِقفةَ درويش بين يدي شيخه. مال عليه محتضنًا ومعزّيًا، ملامسًا ريشه متأملًا عينيْه اللامعتين.

دخل محمود، فتلقّاه مرحّبًا ووجهه يبرق مما أدهش محمودًا، وهو يقول:

- لقد عرفتُ قصّته!

رفع محمود عينيه المندهشتَيْن:

- ومن هو؟

- عمرو بن معدي كرب!

غمغم محمود تأدّبًا، فهو لم يعرف ما الذي يقصد الشيباني ولم يعنِ الاسم الغريب له أي شيء.

مشى مسرعًا ليعتصم بمواعين الشاي وتلميع الكتب من غرائب معلّمه. وعاد الشيباني يفرك يديه تطلّعًا لمن يحدّثه عن الببغاء. فاتصل بصديقه الذي صار الأقرب إليه؛ إذ جمعهما حب الكتب والمعرفة. ولم يطل انتظاره، فقد لبى دفع الله طلبه وجاء مسرعًا. عندما رأى الشيباني العمامة السودانية الضخمة تلوح وراء باب المكتبة قفز من مكانه نحو الباب:

- دفع الله، وخيرتْ ومرحبا!

استخرج كل منهما ترسانة السلام الطويلة من بلاده. وامتلأت جنبات المكتبة بمزيج من لهجتي موريتانيا والسودان:

- كيف حالك يا أخينا، إن شاء الله طيّب، إن شاء الله ما عندكم

عوج؟

لم يكن أي منهما يهمل الآخر ليرد على سلام صاحبه، فكان الشيباني يواصل:

- أيوه أياك لا باسْ؟ أياك الخير، اشحالْ الأهل كاملين؟ إياك مُعافْيينْ؟

وصلا إلى الكراسي وجلسا، وكان دفع الله ينظر في وجه صديقه مستفهمًا عن سبب استدعائه. والشيباني بدوره نافد الصبر ينتظر انتهاء السلام ليخبره:

- هل ترى هذا الببغاء؟

- أيوه.

- هذا طائرٌ حَلَبَ أَشْطُرَ الدهر، وطاف القارات، وشاهد في حياته ما لم يشاهد ابن بطوطة.

- كيف؟

- لقد كنتُ أسميه أبا تمّام، لكنني أشهدك أنه منذ اليوم عمرو بنُ مَعْدي كَرِبَ الزبيديّ.

ضحك دفع الله، فمع أنه جراح أعصاب بمستشفى حمد، فهو أديب بارع، ولغويّ قدير. تململ في مكانه وقال:

- وهل تظن أني كاتب بالعدالة! أو موثّق ولادات، حتى تستدعيني بهذه السرعة؟ ولم اخترت تسمية ببغائك الأثير على اسم ذلك الفارس الشاعر؟

- لأن هذا الببغاء فارس. فلا يصمد بعد كل المآسي التي مرّ بها إلا فارس مغوار. أما الشعر فقد حاولت معه. لكن لم يكن شكله شكل شاعر كما ترى.

وانطلق الشيباني يروي لدفع الله قصة حياة الببغاء، وكيف أنه شهد موت صاحبته الأولى، ثم صاحبه الثاني الذي خاض معه مغامرات مهولة. فعلّق دفع الله:

- تخلص منه إذن، واحمِ نفسك كي لا تكون الثالث، لا قدر الله!

انطلقت ضحكتهما معًا. واقترب محمود حاملًا كأسين من الشاي. وضع دفع الله الكأس بعد رشفة وقال:

- كأنك زدتَ جرعة السكر قليلًا.

برقت عينا الشيباني ومسح دمعه بعد الضحك وقال:

- أنت السوداني الوحيد الذي يستكثر كمية السكر!

مال عليه دفع الله، وشفته السفلى ترتعد:

- أنا سوداني نصْ كُمْ!

ابتسم الشيباني معيدًا الكأس لمحمود:

- يقول كبار السن عندنا: ما شربناه إلا لحلاوته! لُمْرارْ متْفولْ!

وضع دفع الله يده على ركبة الشيباني:

- أحضرتني لتشهدني على نقل ببغائك من خانة الشعراء إلى خانة الفرسان؟ لكني رجل من قوارض الكتب، لا من حملة السيوف. ولذا أود أن تطمئنني، كيف حال سوق الكتب هذه الأيام فمن حالها نستشفّ حال الأمة؟

انفتح الجرح الأبدي، وغامت عيناه، وظلَّلت الحمرة وجنتيه، وتذكّر حلمه الذي يطارده كخيط دخان. رفع عينيه في دفع الله، متأمِّلًا ثوبه الأبيض الواسع، وعمامته الملفوفة بأناقة على هامته. فكّر في صدفة بيع البندورة التي كانت سبب معرفته بهذا الطبيب الجرّاح الذي

يحمل المبضع بيدٍ ليعالج آلام الناس، ويحمل الكتب بالأخرى ساعيًا إلى معالجة أمراض الأمة. رفع عينيه في رفوف الكتب وأجاب:

- والله الأمور طيبة.. والوضع في تحسّن.

اعتدل دفع الله في جلسته:

- يبدو لي أن الناس عمومًا أصبحوا يقرأون جيِّدًا، فمعارض الكتب غدت أشبه بمحلات بيع الهواتف.

وقاطعه الشيباني كأن كهرباء مسّته:

- يا رجل! الناس يقرأون؟ شوف الدراسات، لا أحد يقرأ.... يكفي فقط أن تقارن بين عدد الداخلين على هذه المكتبة والداخلين على مطعم الطاجين المجاور!

ومد يده ملتفتًا إلى محمود:

- كم عدد الحمير التي دخلت إلى ذلك المطعم حتى الساعة؟

كان محمود قد تعوّد على تجهيز إجابة كلما فاجأه الشيباني بهذا السؤال. فقال دون تردّد، وبلهجة الشرق الموريتاني:

- واحدْ وعشرين حْمارْ!

ودوت ضحكة دفع الله، نازعًا نظارتيه:

- لن أدخل ذلك المطعم أبداً، حتى لا أدخل في عداد القوم!

علّق الشيباني والخجل في نبرته:

- لا يا رجل، نحن لا نريدهم أن يأتوا إلينا بدل الذهاب للمطاعم، نريدهم أن يقرأوا ولو....

وفهم دفع الله مرماه، فقاطعه:

- ولو كتب بي. دي. أف!

- نعم!

مال دفع الله بصدره إلى الأمام متفقِّدًا وضع عمامته بيمينه وهو يقول:

- ألم أقل لك؟ إن من يفتح مكتبة اليوم كمن يفتح هاتفًا عموميًّا؟!

امتد الحوار بينهما حول مستوى القراءة، وحول القراءة من البي دي اف، والفارق بين هذه القراءة وقراءة الكتاب الورقي، وكيف أن الكتاب الإلكتروني ينحسر عالميًّا لصالح الكتاب الورقي.

اقترب محمود حاملًا الدفعة الثانية من الشاي. ورشف دفع الله رشفة وقال:

- يا سلام! هذا مضبوط المرّة دي.

جاء صوت الببغاء:

- لياليَ بعد الظاعين شكولُ!

انتفض الشيباني حتى ارتطم بجانب الرف. مشى جهة الببغاء ويدُه تعْرُكُ مكان الضربة على طرف رأسه. وقف إلى جانب الببغاء، ولمس ريشه لمسةَ أمّ تداعب رضيعها.

عاد إلى كرسيه فبادره دفع الله:

- يحفظ شعر المتنبي؟

- حفّظته إياها اليوم، وكنت أظنه نائمًا لكنه حفظها.

- والله إنك فاضي يا زول! بالغتَ لكين!

غامت عينا الشيباني، معاتبًا نفسه كيف يطيب له عيش ما لم يحقّق تلك الأماني المختلجة في صدره. ردّد بصره بين رفوف الكتب ووجه دفع الله، فشعر بعبثية حياته، متخيّلًا نفسه كائنًا ضئيلًا واقفًا على شاطئ

المحيط محاولًا تجفيفه بملعقة صغيرة.

شخص أربعة رجال في زقاق ضيّق في ذهنه، وسمع الضحكة الخَفِرةَ، ولاحت صورة جدّته العجوز غارقة في الظلام.

فردّد بصوتٍ حزين:

رماني الدهرُ بالأرزاء حتى * فؤادي في غشاءٍ مِن نِبالِ!

شعر دفع الله بالحزن الذي اختلج صوت صاحبه فقال:

- خير ما لك يا زول؟

جلس الشيباني ووجهه موزع بين حمرة الخجل وصفرة القهر، مفكِّرًا في صعوبة اتخاذ قرار بشأن ذلك الحب الذي كلما أخفاه عن نفسه وجلسائه اشتدّ ضرامه.

فكّر في إخبار دفع الله عن كل ما مرّ به وصولاً إلى حادثة استدراجه والاعتداء عليه وتهديده. لكنه عاد وأحجم مذكِّراً نفسه بأن هذه مسألة عليه أن يحتفظ بها بين جوانحه حتى يعالجها وحيدًا.

***

كان دفع الله وخميس والشيباني قد اتفقوا على الخروج مساء كل خميس للجلوس بمقهى في سوق واقف.

التقى دفع الله وخميس أمام «مكتبة الشنقيطي» وخرج إليهما الشيباني مرتديًا دراعة بيضاء مزركشة، تعبث الرياح بأطرافها. رفع يديه كطائر قطبيّ ثم أعادهما ليُثبّت أطرافها وهو يقول:

- وخيرتْ ومرحبا!

تعانقوا ومشوا. سلكوا الزقاق الضيّق المارّ وراء المكتبة قاصدين مقهى قرب منطقة بيع الطيور داخل السوق. بدتِ الأزقةُ مكتظّةً ضيقة،

ورؤوس المتسوّقين تعلو وتهبط، والمنقَّباتُ العطِراتُ ذوات العيون الواسعة يفترسن المارّة، والحمالون الإيرانيون ينادون على عرباتهم، والمقاهي غاصةٌ بزبائنها، وبآلاف السياح والمتسكّعين والمتسوّقين والعشاق وربات البيوت. مشوا خطِّيًّا، فالزقاق لا يتسع لثلاثتهم أفقيًا، مما جعل أحاديثهم تتقطع بين الفينة وأختها.

وصلوا إلى المقهى. كان الطقس جميلًا فقرّروا الجلوس في الخارج. غير أن المقهى كان غاصًّا بزبائن من كل الجنسيات، فالجو اللطيف يغري بالخروج. كانت الطاولات كلّها مشغولة مما حتّم عليهم الانتظار حتى تفرغ طاولة. وبعد انتظار ناداهم النادل المصري معلناً وجود طاولة. جلسوا إلى جانب طاولة يجلس إليها رجل مع سيّدة منقّبة تراقب المارّة والجالسين بعينين واستعين هما كل إطلالتها على الدنيا.

قال خميس، وهو ينظّف طرف الطاولة بمنديل:

- هات أطربنا يا شيباني بشيء مما تحفظ من الغزل.

ردّ دفع الله:

- انتظر حتى نرتاح قليلًا ويأتي الشاي يا شيخ خميس. فالشاي يجلو صوت الشيباني ويحفّز ذاكرته.

قال الشيباني:

- أحار في أمرك، عندك أربع نساء. ولا يشغلك شيء بقدر التغزّل.

ضحك خميس:

- اللهم زد علينا من نعمك. وهل أنا أخالف ما أمر الله به.

- الله لم يأمرك يا شيخ خميس، بل أباح لك بشروط.

قالها بينما كان النادل المصري يقف أمامه:

- آمر يا بيه.

- ما يأمر عليك ظالم. برّاد شاي مع ثلاث كُبّايات.

بعد أن جاء الشاي واطمأن المجلس أعاد دفع الله تذكير الشيباني بطلب خميس:

- هات! أتحفنا يا شيباني.

رفع الشيباني صوته مترنّمًا بطريقته البدوية:

عشيَّةَ سعدى لوْ تراءتْ لراهبٍ بمكةَ، تَجْرٌ دونه وحجيجُ

قلى دينَه واهْتاجَ للشوق إنها على الشوق - إخوانَ العزاءِ - هَيُوجُ!

قفز الرجل الجالس مع المرأة المنقّبة وانتزع عقالًا أسود من فوق رأسه وهو يصرخ:

- ما تستحي! ما تستحي على وجهك! والله أذبحك!

جاء صاحب المقهى راكضًا، وتطايرت مقاعد، وسقطت عمامة دفع الله على براد الشاي. وهرع العمال بوجوه متطلّعة مذعورة يصرخون:

- أيش مدير؟

وأفاق الشيباني على نفسه والرجل قابض بيديْه على تلابيبه صارخا في وجهه:

- كيف تعاكس زوجتي؟!

واقترب خميس من الزوج:

- اهدأ يا رجّال. والله ما يقصدها، هو بس أنشد شعراً أنا طلبته منه، وهذا صاحبنا ونعرفه مجنون دائمًا يقرأ الشعر بصوت مسموع.

- هو نطق اسم زوجتي في شعره! كيف عرف اسمها؟!

وقفز دفع الله حاسر الرأس:

- والله بالغتَ يا زول! الزول ده ما يعرف زوجتك يا أخينا وما يعرف اسمها... هذا بس شعر قديم، والزول ده قبل شوي كان يقرأ شعر باسم ليلى وفاطمة ولميس وشرهان! ومبارح كان يقرأ شعر عن سعاد وخديجة!

هدأ الرجل، مرسلًا ملابس الشيباني من بين أصابعه المرتعشة غضبًا.

انصرفت العيون للبحث عن المرأة. فإذا هي مشدوهة جالسة وعيناها الواسعتان ترمشان في اللحظة ألف رمشة... ترقبان المعركة.

كان قلبها ينبض بالحياة، وعيناها طافحتين بالحيوية وهي ترقب معركة خُيّل إليها أنها صراع على محاسنها. نفض الشيباني دراعته وهو ينظر إلى المرأة بحنق مستغربًا لمَ لمْ تتدخّل لتصحيح الأمر لزوجها والاعتراف بأنه لم يرها ولم تره قبل اللحظة.

صاح الشيباني موجّهاً كلامه إلى المرأة:

- لم لا تقولين للرجل أني لا أعرفك؟ ولا أقصدك بهذا الشعر؟

تدخّل الزوج قائلاً:

- يا رجَّال فُكْنا!

أمسك خميس بذراع الشيباني وأجلسه على الكرسي.

بعد دقائق غادر الرجل وخلفه زوجته التي بدا من عيونها أنها كانت مسرورة بما حدث. كانت تمشي بخطًى مفعمة بالحيوية، وقلبٍ نابضٍ بالحياة، ونظرات زائغةٍ صارخةٍ بالاستزادة. فقد نبتت لقلبها أجنحة من ذكريات أيام الخطوبة لشعورها بأن زوجها اكتشف كم هي فاتنة من جديد هذا المساء. حاولت المرأة استحضار الأبيات التي قرأ ذلك الرجل الغريب، مستعيدةً ثوبه المنفوخ المزركش، ورأسه الضخم،

وتلك الكلمات التي كانت بلْسمًا داعب طبلة أذنها مداعبة لذيذةً.

رمق الثلاثة الرجلَ وزوجته يختفيان في زحمة المارّة، وهدأت الأنفس، وبدأ كلٌّ يسترخي في مقعده. ورشف دفع الله رشفة من الشاي مستعيدًا يومًا من أيام عمله الطويلة في مستشفى حمد. وانتابته موجة سعادة وهو يسترخي في مقعده محدِّقًا في الطيور الملوّنة التي تزقزق أمامه. وتحرّكت أنسام مساء نديّ من أماسي الدوحة.

وعندما ابتعد الرجل انفجر خميس ضاحكًا:

- مسكين الشيباني! شوي ويروح فيها على الفاضي!

لم يبتسم الشيباني، وانهمك يلملم أطراف دراعته، والتضايق بادٍ على ملامحه.

شعر ثلاثتهم بخروجهم حالًا من معركة ضروس بين قبيلتين قبل ألفَيْ عامٍ. صمتوا متأمّلين ألوان الطيور المختلفة. طيور بألوان عجيبة، تزقزق، بينما يقترب الباعة منها ليلامسوا ريشها ويلتقطوا الصور بجانبها.

قال الشيباني:

- ما يحزّ في نفسي هو موقف المرأة فقط! الله يخزيها ويقصّر عْمرْها!

ورمقه خميس:

- والزوج اللي كان شوي ويطيّرْ راسك؟!

- الزوج مخدوع مسكين. لكن لمَ لمْ تقلْ هي أنها لم ترني قط؟

كان دفع الله منشغلًا مع النادل المصري، ومع ذلك قال من دون أن يلتفت:

- لا تتوقّع من المرأة أن توضح الأمر يا شنقيطي!

- لماذا؟

- لأنها فرصة لأنْ تسمعَ غزلًا! وتبنيَ مجدًا أمام زوجها. المرأةُ مستعدّة لأن تفعل أي شيء لكي تُظهِر لزوجها أنها مرغوبة. ولا شيء يُطرب أذنها مثل التغزّل بها. ألم ترَ الفرحة في عينيها؟

ثم رفع دفع الله وجهه في النادل المصري:

- غيّر لنا برّاد الشاي يا اسطة!

وواصل حديثه، مُزاوجًا الحكمة بالسخرية:

- إن نافذة الدخول إلى قلب المرأة أذنها. فالمرأة كائن يصعب التحكّم فيه من أي حاسّة عدا حاسّة السمع. والأنثى كائن سمعيٌّ يوجد زمامُه في طبلة أذنه. فمهْما كان منظر الرجل أو منصبه أو تواضعُ حاله يستطيع استدعاء انتباه المرأة إذا أحسن مداخل الكلام ومخارجه؛ فلا سلطة تضاهي سلطان الكلام على قلوب الحسناوات. كأن في قلب المرأة شرايين دقيقة لا تحركها إلا حبيبات اللسان.

وختم متصنّعًا الفصاحة:

- إن أكبر قوة يمكن للرجل استخدامها لغواية المرأة هي لسانه.

ابتسم الشيباني ناظرًا إلى خميس، وهو يغمز بطرف عينه:

- لسانه أم شيء آخر؟

وضحك ثلاثتهم.

صمتوا وسط ضوضاء السوق. كان دفع الله والشنقيطي يجلسان وكتفاهما متقاربتان، بينما كان خميس جالسًا قبالتهما ويده تسافر ما بين غترته وركبته، وعيناه الزئبقيتان تتجوّلان في السوق، ولا تتركان مكمنًا

من مكامن الجمال في كتل اللحم الأبيض إلا وقعت عليها.

كانت عيناه الواسعتان ترتعان في سوق واقف. لا يجلس في هذا المقهى أو في غيره إلا جلسة بانورامية، تمكّنه من رؤية الرائحات الغاديات. اقترب منه النادل وسأل:

- تشرب شيشة؟

فنهره قائلًا:

- لا، الله هداك، الشيشة ما تجوز!

ابتعد النادل المصري، وعاد خميس إلى التحديق. عيناه تتردّدان ما بين النهود الأوروبية الثائرة، والسيقان الفيليبينية الغضّة، والعيون العربيات النُّجُل، والقُدودِ الإفريقية المحكمة.

دخل الشيباني ودفع الله في محادثة جانبية، ذلك أن خميسًا كان منشغلًا بمراقبة فتاة فيليبينية ترتدي عباءة سوداء ونقابًا رآها تمرّ من زقاق في طرف السوق... كان يلاحقها بنظراته حتى تأكّد أنها هي. وقف فجأة، ملتفتًا إلى دفع الله والشيباني قائلًا بنبرة قلقة:

- رايح شوي عندي شغل.

- - لا تتأخّر، لن نبقى هنا لأكثر من نصف ساعة.

لكنّ خميسًا لم يسمع بل اندفع بسرعة وغاب عن أعينهما.

مرّت نادلة أثيوبية تعمل في المقهى، فبادر دفع الله بالحديث معها بلغتها طالباً زجاجتي ماء وقطعتي حلوى. كان الشيباني ينظر إلى صديقه مندهشًا وهو يراه يتكلّم مع الفتاة بطلاقة فبادره:

- - هيا يا زول، أخبرني. هل قادك الولوع بالأثيوبيات لتعلم لغتهن وبهذه الطلاقة؟

- نعم، أنا مولع بشيئين في هذه الحياة: العدالة والأثيوبيات. وهذه حكاية طويلة قد أحكيها لك في مناسبة أخرى. لكن ولعي بهن ليس كما تظنّ. هيا، كل الحلوى لنتحرّك، فالظاهر أن اندفاع خميس كان خلف امرأة، وصاحبنا لا يلتفت وراءه إذا مشى خلف أنثى.

وقف الشيباني بعد أن دس نقودًا تحت كأس الشاي وهو يهز رأسه موافقًا دفعَ الله في حديثه عن خميس. لكنهما لم يتصوّرَا أن هذه ستكون آخر مرة يريانه فيها، وأن قصته ستصبح مجال الحديث في الدوحة طيلة الأسابيع القادمة.

***

# 21

وهــلْ أجــلُّ قتيــلٍ مــن رجالهــمُ

- إذا تُؤُمِّــلَ - إلا ماعــزٌ ذُبِحــا!

المعرِّي

دخل خميس الغرفة صارخًا في وجه الفتاة الفيليبينية:

- لم خرجت؟ لم خرجت؟

كانت الفتاة ترتعد في طرف الغرفة الواسعة، وأجفانها تتراقص فوق حدقتيها الدقيقتين. رمى الغترة جانبًا، وخلع الثوب الواسع بصعوبة. ثم اقترب منها:

- قلت لك ألف مرة ألا تتجاوزي هذه العتبة؟

كانت لا تنبس. جلست مُقْعِيَةً في زاوية الغرفة لائذةً بالصمت والعجز متأملةً عينيه الحمراوين. ولمحت إشهارًا على شاشة التلفزيون يظهر أطفالًا يلعبون على شاطئ أزرق. تضاعفت مشاعرها متمنّية أن تكون طفلة على شاطئ.... في جزيرة بعيدة....هناك بعيدًا عن وحش يصرخ، ويدين مرتجفتين... وتلفزيون معلّق في جانب غرفة مظلمة.

كانت متأكّدة أن يده الخشنة ستقع على هامتها أي لحظة. وتفاجأت به يستلقي على السرير بعنف. مد يده لجهاز التحكّم ليغير القنوات. واستقرّت يده على قناة خاصّة بالرقص. كانت راقصة حسناء تتلوّى على الشاشة.

عرفت من خلال خبرتها ما الذي في رأسه. كان رأسه الأشيب مثقلًا

بتلك الخيالات، ولم يكن في مزاج الضرب هذا المساء رغم ارتكابها لجرم تستحق عليه الضرب المبرّح عنده.

نظر إلى تعرج الفستان على جسدها البض. وتنفّس تنفّسًا عميقًا وهو يتذكّر ما قال لأحد أصدقائه قبل أيام. إن الفيليبينية لم تخلق إلا للفراش. فوزنها محسوب بدقة متناهية ليسهل التصرف فيها... وهي طيّعة لينة، وهي الأنثى الوحيدة التي تعيش وتموت من دون مفاصل، ولا يزداد وزنها وإنْ عاشت على الأرز والمعكرونة عشر سنين.

نظر إليها مرّةً ثانيةً ففهمت. ومرت دقائق. بعد دقائق خرجت من الحمام فاكهةً استوائية دانية للقطف.

جلس مُسْتَوْفَزًا... وهو يحسّ بإشعاع يسري في أنحاء الغرفة.

اقتربت منه، فمد يديْن كأنهما تتوسّلان... فهو عطشان أبدًا... ظمآن لا تُرويه بحار جنوب شرقي آسيا. يختزن عطش رمال جزيرة العرب، وظمأ أجداده للسهول الخضراء والغابات الملتفّة، والعلاقات المفتوحة.

وقفت جنب السرير قريبة من وجهه. رفع نظره فتراءى له نهداها جبليْن أخضرين مليئين بالفواكه اليانعة والأعشاب المميتة والبهارات الحارّة والخِلجان العذبة والحيوانات الأليفة والمفترسة. وانسدل شعرها الفاحم على رأسه الأشيب وهي تنحني باحتراف ماجن...

وتراجعت إلى الوراء صارخة، وخرجت ثلاث فتيات من الغرفة الأخرى في الشقة، حاملات سكاكين حادّة.

وسددت طعنةً بسكين كانت تخفيه في حافة السرير، فاستقرت في قلب خميس.

في هذه اللحظة، مرَّ سربٌ من الغربان ينعق فوق سوق واقف،

وسقطت شجرة ضخمة قرب منزل خالة ماري سيل في ضواحي مانيلا.

انصبغت شراشف السرير بالأحمر. وسال الدم القاني في أطراف الغرفة، لكنه لن يقف وراء جدران هذه الشقة المتوارية هنا. بل سيتحوّل إلى حبر للجرائد أشهرًا، وإلى مادّة تلوكها ألسنة الناس في مجالس الدوحة.

سقط خميس مضرّجًا على سريره تحيط به الدماء القانية... وكانت أول مرة يسيل فيها دم أحمرُ على سريره... من دون أن يشارك في لذته.

***

# 22

يُهِـمُّ الليالي بعض مـا أنا مضمرٌ

ويُثقِـلُ رضوى بعضَ ما أنا حاملُ!

المعرِّي

استيقظ الشيباني فزِعاً وهو يسمع قرعًا قويًّا على باب المكتبة. هرع إلى الثلاجة وتناول قنينة ماء راح يعبّ منها. تواصل صوت قرع الباب، وضع القنينة مذعورًا ونزل الدرج وهو يُزرّر قميصه مرتبكًا، وفتح الباب:

- خير؟!

وجد أمامه ثلاثة شبان في ملابسهم القطرية التقليدية ينتظرون. قال أحدهم:

- نحن من الشرطة... نريدك أن تتفضّل معنا.

- خيراً، ألا تخبرونني بالسبب؟

- ستعرف بعد قليل. بضعة أسئلة وتعود.

عندما رأى سيارة مرسديس سوداء تقف أمام المكتبة على خلاف المعتاد، أدرك أنهم من الشرطة السرّية. إذا لا تدخل سيارات الشرطة العادية إلى السوق غالبًا. جلس مذعورًا في المقاعد الخلفية وانطلقت السيارة. مرّت عدة دقائق، وجد نفسه بعدها داخل مخفر سرّي.

ترجلوا. كان أحدهم يمشي أمامه واثنان خلفه. كانوا يسيرون في ردهة واسعة. خيّل إليه أنه سمع صوت دفع الله في إحدى الغرف.

قادوه إلى غرفة شديدة التكييف، تتوسّطها طاولة وأربعة مقاعد. تركوه وحده وأقفلوا باب الحجرة عليه. كان الشيباني في غاية التوتر والارتباك، فعيناه زائغتان تبحثان عن أي دلالة تفسّر له سبب وجوده مع دفع الله في هذا المكان الغامض.

بعد قليل عاد الشبان الثلاثة وأحاطوا به. تنحنح أكبرهم وهم يعدل وضعية عقاله على رأسه:

- هلا يا شيخ الشيباني.

عقدت الصدمة لسانه فلم يرد. أردف الرجل، ملاحظًا توتّره وخوفه:

- نحن فقط سنسألك بعض الأسئلة عن صديقك خميس.

بدأ الثلاثة يسألون عن كل شيء يتعلّق بخميس. من هو، وكيف تعرّف عليه، وما طبيعة علاقته به، وما الذي أخبره به عن نفسه، وما شبكة علاقاته، وهل يعرف ماذا يعمل؟ وبعد أن أخبرهم أنه تعرّف إليه كزبون في المكتبة راحوا يسألونه عن الكتب التي يقرأها.

استمر التحقيق ساعتين خرج الشيباني بعدها من المخفر بساقين مرتبكتين ورأس ثقيل يكاد ينفجر من الأسئلة. كان وقتًا صعبًا جعله يفكّر في جدوى بقائه في هذه البلاد.

مشى في الشارع العام متخيِّلًا أنه يحمل برميلًا على أكتافه. عاد إلى مكتبته، وصعد إلى غرفته راكضًا. ألقى بنفسه على السرير هاربًا من عشرات الأسئلة المحتشدة التي لا يكاد يفكّر في إجابة لواحد منها إلا ألحَّ عليه آخر. أخذ الهاتف واتّصل بدفع الله:

- كيف حالك يا صديقي؟

- وينك يا شنقيطي؟

- في المكتبة

- جايك هسّه!

بعد دقائق كان دفع الله يمشي في الزقاق الرئيسي لسوق واقف دون عمامته الضخمة. بل يمشي في ثوبه الأبيض الواسع. كان الشيباني ينتظره عند باب المكتبة. لم يجلسا عند النضد، بل دعاه الشيباني إلى غرفته. كانت أنفاسهما متقطّعة، وكل منهما يتصوّر أن ما ينقصه من تفاصيل ما جرى موجودة لدى صديقه.

جلس الشيباني على الأرض، وأخرج عدة الشاي الأخضر، وجلس دفع الله مقابله منحنيًا على وسادة وهما في حالة من التوتّر ظاهرة على وجه كل منهما. بدأ كل منهما يطرح أسئلته على الآخر. لم يكن لدى أيّ منهما ما يكفي لفهم ماذا حصل؟ أمضيا ساعتين في محاولة تركيب قصة منطقية لفهم ما حصل، لكنهما لم يتوصّلا إلى أكثر من أن خميسًا موله بالنساء، وأنه قتل بعد ساعات من فراقهما له في المقهى.

كانت الحادثة محطّة فارقة في حياتهما في الدوحة. فمع أن أيًّا منهما لم يواجه تهمة معيّنة، ولا علاقة له بما جرى لخميس فإن الأسئلة التفصيلية التي فاجأتهم من المحقّقين جعلت كليْهما يدلي بمعلومات عن نفسه كان يكتمها طيلة حياته في الدوحة. كانت المرة الأولى التي يكشف فيها كل منهما عن الجزء الخفي من حياته، والأسباب التي دفعته لترك بلاده والمجيء إلى قطر. فوجئ كل من الصديقين بأن الآخر فرّ بسبب جنرالات بلاده. إذ فرّ الشيباني إلى السنغال، وفرّ دفع الله إلى أثيوبيا. وهناك في أثيوبيا استطاع دفع الله إكمال دراسته والتخرّج طبيبًا، ثم الزواج من إثيوبية أحبها وكتب فيها عشرات القصائد بالعامية.

بعد نقاش طويل في تفاصيل ما جرى، وعن تشعّبات الحياة التي سلكها كل منهما ختم دفع الله:

– ها قد أجبتك عن السؤال الذي طرحته عليّ في المقهى حول الأثيوبيات. ذاك سبب معرفتي بلغتهم وحبي لهم ولبلدهم الذي لجأت إليه؛ فاحتضنني سياسيًّا، وآواني وجدانيًّا؛ بعد عثوري على محبوبتي على أرضه وبين غاباته الجميلة.

ولم يعرف دفع الله وهو يستأذن من صديقه أن اللقاء القادم بينهما سيكون في ظروف لم تخطر لأي منهما على بال.

***

مر أسبوع كامل على مقتل خميس. وضجت الصحف القطرية بتفاصيل المأساة التي تكشّفت رويدًا على صفحات الجرائد المحلية.

وكان أشهر عنوان عنوانَ جريدة العرب الذي خرج غداة الواقعة:

«دمٌ في قلب سوق واقف»

وأصبح الحديث عن الجامي الخليع على كل لسان. وغدت قصة خميس تُحكى في جنبات الدوحة آلاف المرات وبألسنة ورطانات مختلفة. كُررت باللسان الفيليبيني والسيرلانكي والهندي والنيبالي وبعشرات اللهجات والرطانات. وتردّد اسم «خميس» على ألسنة لا تستطيع نطق الخاء، فأصبح أحيانا»هميس» ومرات «كميس»، وأخرى «جميس».

وغدا من دارج الكلام أن يقول نادل مطعم فيليبيني لزميلته محذرًا إياها من صديقها:

– هذا سيمْ سيمْ شيخْ خميسْ...

رُويت قصّة الرجل بصيغ مختلفة وروايات متناقضة، ولاكتْها ألسنة الناس وهم جالسون في ساحة السوق، وفي باحة مسجديْه، وعلى عتبات دكاكينه ومقاهيه، وبجميع اللغات واللهجات.

كان بعض تلك الروايات تجعله رجلًا خليعًا مجرمًا بلا ضمير، مريضًا نفسيًّا يتلذّذ بعذابات الفقيرات المسكينات. وورويت قصته على ألسنة أخرى، كعاشق مدنف يطارد مكامن الجمال في مراتع العيون والخدود والقدود.

واختلقت عنه قصص حوّلته إلى بطل من أبطال الحب. وكتب شاب هندي لخطيبته على خاتم الخطوبة: «خميسُك... إلى الأبد!».

ولخضوع أُناسٍ مختلفين لتحقيق مكثّف، ولانتشار كثير من التفاصيل في الجرائد فقد استطاع المهتمون بقصّة خميس تكوين صورة واضحة عن ذلك الرجل الذي بدأت قصة دخوله للبلاد قبل أشهر عند معبر حدودي.

كان المعبر الحدودي غاصًّا بالسيارات السائرة في الاتجاهين. يصطف طابور من السيارات للدخول إلى قطر. كانت بين الطوابير سيارة مرسديس حمراء فارهة، تجلس فيها أربع نساء بسحنٍ مختلفة، بينما يجلس خميس وراء المقود.

حكّ خميس أسفل لحيته الكثة بيده وهو يقف عند نافذة شرطي المرور. كانت تجلس بجنبه فتاة فيليبينية، أما الفتيات الأخريات الثلاث ففي المقعد الخلفي. كانت عيونهن زائغة تحت النقاب الضيق. مدّ خميس الجوازات للشرطي المكفهرّ الجالس خلف مكتبه فختمها وأرجعها إليه على الفور.

لم يسأل الشرطي عن الفتيات ولا لمح معالم وجوههن المتشاكسة. فقد كانت كل منهن ترتدي نقابًا كثيفًا يحول حتى دون رؤية عينيها... كما كانت اللحية الكثة، والبطن المدور، والغترةُ المرخاةُ على الجبهة أوسمةَ تزكيةٍ تحول دون تطرّق الشبهات إلى خميس.

تعوّد خميس منذ أكثر من عشرين عامًا على هذا السلوك. كان لا يخلو من عدة فتيات منتقيات تحت كفالته باعتبارهن خادمات أو سكرتيرات. إذ يسمح له نظام الكفالة الخليجي باستدعاء من شاء من العمال والتحكّم في خروجهن ودخولهن للبلاد.

كان من هواياته المفضّلة تنويع خلفياتهم. فقد كان لا يستغني عن خادمة سوداء فاحمة تقرّبه من الغابات المبللة وتشفي عطشه للأمطار الموسمية والعشب الكثيف ومعالم بدايات الحياة الأولى... هناك في الأدغال الإفريقية حيث بدأت قصّة كفاح الإنسان.

أما ميله للهند فمن نوع آخر. كان يقول لأصدقائه إن الهند أول أمّة ألّفت كتبًا في ذلك الباب... وأول من فتح أكاديميات لتعليم تلك الأفانين.. وضحك مرة وهو جالس مع أصدقائه قائلًا:

- أنا لا أوافق داروين في نظريته عن التطور والارتقاء إلا في هذا الباب... فالأمم التي تمتلك تاريخًا ممتدًا في هذا الباب تأتي فيه بالعجائب.

وصل خميس إلى الدوحة قبيل الفجر بقليل، وكان قد حجز جناحًا كاملًا في فندق في جانب سوق واقف. ونزل مع فتياته، وهن يحملن حقائبهن الضخمة. غير أن الفتاة الكينية ما كانت تكفّ عن البكاء.

كانت نحيفة طويلة، وكانت تردّد كلمة واحدة لا تفارق شفتيها: «ماما».

فقد حكت لكفيلها أن أمَّها على فراش الموت، وتحتاج لرؤيتها قبل رحيلها. لكنه لم يعبأ بها، واعتذر بأنه سيعطيها جوازها ومأذونية الخروج إذا عاد من هذه الرحلة.

أما الفيليبينية الحسناء فكانت صامتة لا تتكلّم. لم يكن يعرف شيئًا

عن عالمها.

كانت جمجمتها المدوّرة تختنق بآلاف الأفكار والخُطط للتخلّص من هذا الوحش الذي أحال حياتها جحيمًا منذ استقبلها ذات مساء مشؤوم في ذلك المطار الكئيب.

كانت مارسيل مخطوبة لشاب فيليبيني من قريتها. كان يعشقها عشقًا مجنونًا، وسلم لها خاتم خطوبة مكتوبًا عليه:

«مارسيل... روحي التي تعشّش في جسد آخر... لكنه أجمل».

تواعدا على الزواج بعد عامين. وقرّرا أن تذهب هي للعمل في الخليج، ويتفرغ هو للعمل في مانيلا، حتى يكونا جاهزين لبناء بيت يقضيان فيه حياة سعيدة وينجبان ولديْن قررا تسمية أحدهما كارلو والأخرى بيلا.

وبعد تردّد وعذاب أخبرت مارسل خطيبها بقصتها كاملة عبر رسالة خطّية سلّمتها لحارس العمارة الفيليبيني الذي سلمها لخالة خطيبها بمطار مانيلا.

لم يفتح الخطيب الرسالة. بل أخذ سيارة أجرة وذهب إلى ضفة نهر ليستمتع بكل حرف. وقرأ الرسالة.

كان جالسًا على حافة النهر، يقرأ الرسالة الطويلة ورقة ورقة. كانت إنجيلاً من المعاناة وقصيدة من الرثاء، ولحنًا جنائزيًّا موقّعًا على نوتات الألم. كان لا ينهي ورقة إلا انسربت من بين أصابعه دون أن يلاحظ. استيقظ على انتهاء الأوراق وهو يرفع وجهه ليراها طافية على سطح النهر منسربةً بين سرب من الطيور السابحة في النهر.

تساءل كيف يمكن للبشر أن يكونوا قساة لهذه الدرجة؟ وعزم عزمًا أكيدًا أن يذهب إلى الخليج ليعمل هناك... حتى يراها ويخطط

لإنقاذها.

وقبيل وصوله بيوم، خرج خميس بمكفولته إلى قطر.

كانت مارسيل تفور فورانًا في الجناح الفندقي الفخم. كانت لبؤة جريحة، بل كانت موجة تسونامية عاصفة من أمواج جنوب شرقي آسيا.

ولم تجد كبير عناء خلال الأسابيع الماضية في إقناع رفيقاتها بالخطّة.

بعد أن سقط خميس في الدم القاني ميتاً كُنّ قد رتبن للهروب. خلال ساعة واحدة كانت كل واحدة منهن مختبئة يخفق قلبُها وراء أسوار سفارة بلادها في الدوحة.

***

# 23

إلــى العالم العلــويّ تُزمِــعُ رحلةً
نفوسٌ، وتبقى في التراب جُسومُ!
المعرِّي

وصلت سيارة الإسعاف يسبقها زعيقها المنذر بحالة خطرة كانت قد أُبلغت عنها إدارة المستشفى. هرع طاقم مختلط يدفع سرير الإسعاف إلى غرفة العمليات. صرخ ممرض تونسي:

- يِزِّي يزيّ! ثمَّ نزيف برشه! الجمجمة مفتوحة يا وُلْدي!

خلع طبيب الطوارئ الهندي سماعتَه، وهو يقول:

- بهدوء! بهدوء!

وقف الممرضون والأطباء في قمة التوتر، فالمريض يحتاج تدخلًا جراحيًّا دقيقًا لا يحسنه - بكفاءة - إلا أخصائي محترف في جراحة المخ والأعصاب.

في هذه اللحظة، كان دفع الله يغير ملابسه في غرفة الأطباء بعد أن استُدعيَ على عجل. دخل غرفة العمليات فتلقّته ممرّضة فيليبينية انهمكت في مساعدته لغسل يديه بالمطهرات، ثم ربطت له روب غرفة الجراحة الأخضر المعقَّم حتى لا تضيع دقيقة واحدة.

كانت غرفة العمليات قد جُهّزت. الممرضات، طبيب التخدير، الأجهزة التي تقيس عمل الأعضاء الحيوية للمريض. الأوكسيجين... ألقى دفع الله نظرة عجلى لتفقد معدّات أَلِفها طويلًا. وسأل سؤالًا

واحدًا بهدوء:

- تأكدتم أن كل شيء موجود؟

وأجاب الجميع بالتأكيد على سؤال لم يفاجئهم.

كان هدوء دفع الله يزداد في اللحظات الحرجة. فقد علّمته خبرته الطويلة أن الطبيب يحتاج إلى أعصاب جليدية ليحافظ على تركيزه وانتباهه، وأن أي توتر يبدو منه ينتقل للفريق كلّه، وقد يؤدي إلى نتائج كارثية.

عندما تكون الأخطاء داخل دماغ إنسان أو شرايين قلبه... يجب أن تكون نسبة الخطأ صفرية.

مضغ علكة وعيناه تدوران بين كمّامة أنفه وقبعته، ثم أمسك المبضع.

ظلت عيناه تقفزان بين جمجمة المريض، والشاشات المعلّقة النابضة بالأرقام والمنحنيات.

كان المريض ممددًا ومثبّتًا بالأسلاك على سريره، وجمجمته نصف مفتوحة يتأملها الفريق الطبي بوجوم.

كان دفع الله غارقًا في تفاصيل عمله، فهدفه الآن إيقاف النزيف داخل الدماغ، وبذل كل ما بالوسع حتى يستيقظ المريض من العملية دون أن يفقد ذاكرته، أو يصاب بالشلل.

رفع دفع الله عضده ليحك أنفه... فحانت منه التفاتةٌ إلى السوار الطبي في معصم المريض... رأى اسم المريض مكتوبًا عليها.

قفز قلبه من بين أضلاعه. أعاد النظرة مرة أخرى إلى السوار.

رفع عينيه ليتأمّل هل لاحظ الممرضون والأطباء توتّره. لكن أحدًا لم ينتبه فكل واحد من الفريق المساعد يركّز على مهمّته.

نظر إلى السوار مرة أخرى فتأكد من الاسم وقرأه بوضوح: «ولد الشيباني/ الجنسية/ موريتاني».

انفتحت عيناه على اتساعهما، وهو يكاد ينهي عملية جراحية داخل دماغ صديقه من دون أن يدري. تأمّل ملايين الخلايا الدماغية بين يديه مستعيدًا صورة صاحبه وآخر جلسة جمعتهما في غرفته فوق مكتبته بسوق واقف. تذكّر ظرافته، وكمّية القصص والشعر المودع في هذه الخلايا.

ثم خطر له خاطر... هل جاء القدر بهذا الدماغ لينتهي بين يديه بسبب عجزه عن إنقاذه أو بشرطة مبضع خاطئة؟!

أحسّ بأن جسده قد تخدّر من التعب والتوتّر، وأن يده ما عادت تطاوعه.

غشيتْه موجةُ عجزٍ مشوبٍ بخيبة وانزعاج وقلق. لكنه استعاد رباطة جأشه إذْ لم يبق أمامه سوى دقائق وتنتهي العملية. مرّت الدقائق ثقيلة جداً. ثم انتهت العملية بنجاح.

جالت في ذهنه عشرات الأسئلة وهو يرفع يديه من فوق جمجمة صديقه الذي كان يضحك معه قبل أيام: ما الذي سبّب هذا الكسر الفظيع؟ وهل سيستعيد الرجل ذاكرته أم ذهبت نهائيًّا؟ هل سنعرف ماذا حصل لرجلٍ كان في غاية المرح قبل أيام، وها هو الآن بين الحياة والموت؟!

خرج دفع الله مرهقًا من غرفة العمليات راكضًا إلى أحد الأقسام الإدارية ليستطلع الأخبار. وبعد استقصاء من إدارة المستشفى لم يعرف طبيعة ما جرى بالضبط. غير أنه تأكّد أن لا علاقة للأمر بحادث سير، كما علم بوجود أوراق كتبها الشيباني قد تعطي صورة عن ما وقع.

ركض إلى القسم المسؤول عن الأمانات محاولًا الاطلاع على الأوراق التي وُجدت داخل جيب الشيباني لحظة العثور عليه، لكن الإداري رفض التعاون رفضًا باتًّا. أدار دفع الله ظهره للموظّف ومشى مرهق الخطوات في الممرّ الواسع. وكل ما يذكره بعد ذلك أن محقّق الشرطة الذي حضر إلى المستشفى رفع فيه عينين مرهقتين وقال بحزم:

- يا دكتور أتمنّى أن تتفهّم طبيعة عملنا، عليك الانتظار حتى تنتهي التحقيقات، ثم نوافيك بما عندنا. حينها ستفهم حقيقة ما جرى لصديقك الشيباني.

***

بعد عشرين يومًا من ذلك الحادث، ركضت ممرضة قصيرةٌ صارخة بلكنة هندية:

- لقد تكلمْ!

هرع الطاقم الطبّي إلى سرير الشيباني فإذا هو فاتح عينيه يتأمّل السقف. بدا وجهه أصفر مرهقًا، وعيناه زائغتين متطلّعتين. ومع شحوب وجهه وكثرة الكمّامات التي على هامته فإن عينيه كانتا طافحتين بالبريق والحيوية. كانتا تسافران في الوجوه كأنهما تتساءلان، ثم تتدحرجان لتتأمّلا جسمَه الممدّد على السرير.

اقتربت منه الممرضة ولمست وجنته برفق:

- كيفك يا شيباني، هل أنت بخير؟

تحرّكت عيناه بسرعة، وخيل إليها أنه أجاب من دون أن تسمع صوته.

مالت عليه بابتسامة:

- سيأتيك الطبيب بعد قليل، ولا بد أن تتحدّث معه... اتفقنا؟

بعد دقائق دخل دفع الله مع أربعة أطباء آخرين.

اقترب منه قائلًا:

- كيفك يا شنقيطي، أنا دفع الله!

وعادت حركة عينيه إلى التسارع والتطلّع دون نطق. وازدادتْ حركةُ حدقتيه تطلعًا وتساؤلًا. واقترب منه دفع الله ووضع يده على جبهته، وقال باسمًا:

- لازم نمشي للمقهى في سوق واقف يا شنقيطي!

واسَّارعتْ حركة عينيه ثانيةً.... وانساحت دمعةٌ من لِحاظ عينه اليمنى، ثم تدحرجت حتى استقرت على اللحاف الأبيض. غمز الطبيبُ النفسيُّ الواقف عند قدميه زميلَه دفع الله فغيّر نبرته قائلًا:

- الحمد لله أمورك تمام يا زول، أيام بس وتطلع زي حصان شنقيطي أصيل.

شعر الشيباني بحاجة ماسّة إلى النطق، لكنه لم يستطع. كان في كامل وعيه وإدراكه. ألقى نظرة متطلّعة ففهم أنه في مستشفى حمد، عرف ذلك من خلال أزياء الممرضات، ووجود دفع الله. رفع يده فرأى الكتابة التي على السوار الطبي في معصمه:

«مؤسسة حمد الطبية/ الاسم: الداه المختار الشيباني/ الجنسية: موريتاني/ ».

عاد خياله إلى تلك اللحظات الكثيفة التي سبقت ما جرى.

رجعت الدنيا في عينيه عالمًا عبثيًّا سوداويًّا ترقص فيه الذئاب على آلاف الجثث، وسط جوقات التصفيق والصفير. خُيل له أنه لمح ذئبًا بذيلٍ طويلٍ يقفز على آلاف المنابر.

رأى فتاةً حسناء تركض حاسرةً تستغيث، ووراءها آلافُ الرجال

بأيديهم الخناجر والسكاكين. لمحَ ملكًا من ملائكة العذاب يُطلّ على قرية وادعة قابعة بين جبلين. وقف الملك وأمسك الجبلين بيديه وأطبقهما على القرية، وكان آخر الأصوات انكتامًا صوت مؤذّن المسجد.

أفاق من تخيّلاته على صوت إنذار من إحدى الشاشات المربوطة بجسمه المنهك. خيّل إليه أنه إنذار الموت. وتخيّل لحظة دخول الممرضات راكضات بعيد وفاته. رأى كيف يتعاطين مع جسمه كأنه حيوان نفق، أو قطعة زجاج انكسرت.

رأى جسمه ممددًا وفمه مفتوحًا وعينيه شاخصتين، وقدميه صفراوين ذاويتين مربوطتين. ثم رأى شخصًا يغسله متأفّفًا، وهو يشم روائح كريهة منبعثة من جسده. وقفز ذهنه إلى لحظة خروج جثته من الباب الخلفي للمستشفى ليصلّي عليها مئات الشبان الموريتانيين في صمت.

بعد وضعه في عربة الموتى رأى الناس متجمهرين، كل منهم يعيد قصة وفاته، وهم يتصنّعون الخشوع لخبر موته، والدهشة من سببها، متسائلين عن السبب الحقيقي المريع وراء ما جرى له أيامَه الأخيرة في الحياة. وبعد دقائق من الموعظة المتصنّعة يعود كل منهم من حيث أتى... غارقًا في عمله، منشغلا بتفاصيل حياته، مرتميًا بين أحضان حبيبته.

وفي اليوم التالي تشرق الشمس على الدوحة وعلى قريته في موريتانيا.. وكأن شيئا لم يكن! تشرق الشمس في وقتها، ويخرج الأطفال لمدارسهم في الموعد، وتزهر الشجيرات الصحراوية في فصل إزهارها، ويحين موسم التزاوج بين الطيور المهاجرة في بحيرة آركين بالغرب الموريتاني في وقته المعتاد!

هل يمكن أن يكون تافهًا إلى هذه الدرجة؟ وأن تكون الحياة بهذه العبثيّة؟!

هل يمكن أن يكون موت الإنسان حدثًا شخصيًّا لا علاقة للدنيا به إلى هذا الحدّ؟! أيمكن أن يكون الموت مأزقًا شخصيًّا إلى هذه الدرجة؟

أفاق من تأمّلاته على وقع أقدام الفريق الطبي يخرج من الغرفة. جاء رجل أمنٍ يحمل ظرفًا، وقدمه إلى الطبيب النفسي:

- هذه صورة من الأوراق التي وُجدت بحوزته لحظة وقوع ما وقع. وقد سمح القاضي لكم - فقط - بالاطلاع عليها لعل ذلك يساعد في معرفة نفسية المريض.

أخذ الطبيب السوري الطويل الأصلع الظرف، وانحرف إلى غرفة قريبة وجلس. فتح الظرف المكتوب بخط اليد وبدأ يقرأ.

***

تنبيه!

ستجدون هذه الأوراق في جيب رجل ميت، شاخص العينين، ملتويَ الرقبة، فاغرَ الفم. ستجدونها مغموسةً في الدماء، فلا تبخلوا عليه بإيصالها إلى صاحبة العنوان، ولو بواسطة نشرها في جريدة أو كتاب.

إليك،

أتذكرين ذلك اللقاء؟ يوم أنشبتِ أظافرك السامة في روحي لتبقى جراحًا غائرة أحملها كما يحمل الأبطال النياشين والأوسمة؟

يوم أخرجتِ من زوايا روحك كل ما كنت خبأتِ طيلة شهور طويلة.

يوم جلست أمامي تتحدثين بالتفصيل. كنتِ كلما بُحتِ أو ذكرت ذكرى من حبنا كأنما تزيحين جبلًا عن كاهلك، أو تتقيئين مادّة سامة، لكن ذلك الجبل يتدحرج ليرسو على كتفي، وتلك الموادّ السامة تشعّ لتتجمّع في صدري.

لمَ كتبت لي على طرف دفتر مادة «التاريخ» مرة: «أتذكرُ ذلك اليوم الذي التقينا فيه عند الحدود ما بين كلية العلوم وكلية القانون في غفلة من غفلات الزمن ومشهدٍ من مشاهد نواكشوط الخالدة؟ حين وقفتَ على حافة الرصيف، ويدُك اليمنى تمسك كتابًا والأخرى تُسرّح بها شعرك.... كدت أصارحك في تلك اللحظة لكن الحياء عقل لساني».

من يستطيع تحمّل اعترافات فتاة عاشقة؟ فكل جملة قذيفةٌ حارقة يمكن أن تحرق كل غابات الدنيا، وتحوّل السهول الخضراء إلى صحارٍ قاحلة. أليس لسانُ المرأة التي قرّرت إخراج زوابع روحها يشبه موجات تسونامي... قد تقذف أمواجه ذهبا ولآلئ ورسائل عشّاق مكتوبة بلغة ماتت قبل آلاف السنين، وقد تقذف ملايين الجثث المتعفّنة، والأشلاء الآدميّة والصور الشائهة والظنون السفلى.

لقد اكتشفتُ وقوعي في شراك هواك فجأة. لاحظت تغيّر أشكال الفتيات الراكضات في ردهات الجامعة في عيني. تحوّلت الفتيات السمراوات إلى لوحات مخيفة. لاحظت خواتمهنّ الضخمة وملابسهنّ الرثة، حتى شنطهنّ النسائية تخيّلتها شبيهة بأجربة المتسوّلات. أفقتُ على رائحة الأصباغ التي يضعنها على وجوههنّ، وشعرت بمعدتي تتحرّك لأتقيأ. أي جنون! حتى تلك الفتاة المنعمة التي كانت تأتي متساكرةً في مشيتها، فائحةَ العطر فقدت كل جمالها في عينيّ فجأة. بدتْ أمامي قد فقدت كل أسلحة الغواية وجلال الجمال.

رأيتها نحيفة كمريض السعال، ناتئة الوجنتيْن، مفكّكة المشية. رفعتُ وجهي مرة في أوجه الفتيات المتحلّقات حولكِ فبدا لي في كل واحدة منهن عيب مفزع. هذه مُحمرّة العين، وتلك ناتئة الثنايا، وهذه وقْصاءُ وتلك حمْشاءُ الساقين.... أما أنت فكنت عروسًا فاتنة، وجذوةً من نار الجمال الخالد، ونسمةً من أنسام العافية، وقافيةً من روائع الأدب العالمي.

لقد بذلتُ كل ما أستطيع لأترك لك مسارح الحياة مُشرَّعةً دون أن أكون عقبة كؤودًا ترهق حياتك في عالم غير عادل. لقد ركبت البر والبحر، وعاشرت النساك والفتاك، وسكنت مع شيوخ الزنوج في غاباتهم، وعشت بأسماء مستعارة، وامتهنت كل المهن. فكنت مرَّة شيخًا، وأخرى زنديقًا، وأخرى حجابًا نفّاثَ عُقد. فعلت كل ذلك لأهرب من ذلك الحب الذي كنت أكتم حتى عن نفسي، فنبتَ بغتة في غفلة مني بين جوانحها.. وكثيرًا ما يتحوّل برعم الحب إلى أشواك سامّة. وعندما تواصل معي زميل قطري كان يعيش معي في المحظرة لآتي إلى الدوحة وأعمل معه في مكتبة أجبت فورًا لاقتناعي أن الكتب وحدها ربما تستطيع تخفيف ما بي وإخراجي من هذا العالم الغادر المتقلّب إلى عالم أكثر هدوءًا وصدقًا... عالم الموتى الساكنين في مقابر الكتب المغبرة.

كل ذلك لم ينفع.

إن هذه الدنيا البخيلة تتآمر لتقف في طريق لقيانا، فأسباب القرب معدومة لتعلّقها بعقليات لا نملك لها تغييرًا... وما دمتِ غير قادرة على المبادرة، وأنا عاجز عن التصرّف، فلنراهن على عدالة الله... ولنلتق هناك في عرصات القيامة، يوم تنتصف الجمّاءُ من القرناء.

حينها سنعبر إلى الفراديس لنقيم عرسًا فردوسيًّا بمباركة الملائكة.

طلب أخير،

حاولي ألّا تبتسمي حتى نلتقي.

الشيباني

***

# 24

وردتُ إلـى دار المصائـب مُجبراً

وأصبحتُ فيها ليس يعجبني النقلُ!

المعرِّي

بعد أيام معدودات كان الشيباني قد تعافى كلّيًّا إلى درجة أذهلت الأطباء. حتى إن الدكتور النفسي السوري الذي قرأ رسالة الانتحار الموجّهةَ لسلمى وقّع على خروجه من المستشفى دون تردّد. عاد الشيباني لمكتبته كأنّ شيئًا لم يقع، وما كان ثمة أي دليل على أنه حاول الانتحار، أو أن جمجمته كادت تتهشّم، إلا الخدشة الواضحة على طرف جبهته الواسعة.

عاد إلى عمله بهمة متجدّدة، مبالغًا في التكتم على قصة محاولة الانتحار وفترة مقامه في مستشفى حمد.

بعد أسبوع من عودته للعمل كان منهمكًا يفهرس بعض الكتب رفقة محمود، فدخلت إلى المكتبة فتاة متلفّفة في عباءة دون نقاب. راحت تتفحّص أطراف المكتبة وأرفف الكتب، ثم تلقي نظرات متقطّعة جهة الشيباني استرعتْ انتباهه. انتابه إحساس بأنها فتاة موريتانية. بل بدا له وجهها مألوفاً، وخطر له أنها قد تكون جاءت لطلب مساعدة ما. طلب من محمود أن يقدّم لها كأسًا من الشاي ليفسح لها فرصة للحديث علّ ذلك يؤكّد ظنونه.

ما إن غادر محمود حتى اقتربت الفتاة من النضد وهي تتلفّت مترقبةً،

ومدت يدها برسالة دون أن تنبس. ثم غادرت كأنها حلم.

أسقط في يدي الشيباني، حتى إنه غفل عن فتح المغلف الذي في يده لدقائق متسائلًا عن التصرّفات الغريبة لتلك الفتاة. فتح المغلف ومن النظرة الأولى عرف الخط الأزرق المرقوم على الغلاف.

قفز قلبه نابضًا حتى كاد يخرج من صدره.

ركض نحو الدرج صاعدًا إلى غرفته وبدأ يقرأ:

«آه لو تعلم؟

آه لو تعلم يا حبيبي (أقولها صريحة للمرة الأولى)، نعم حبيبي. كم تعذّبت حتى وصلت إلى هذه اللحظة التي أستطيع فيها أن أرسل لك هذه الرسالة. (بالمناسبة، حاملة الرسالة صديقة مقرّبة، ولا أدري إن كنت تذكرها، فقد كانت معنا في الجامعة، وتزوّجت مؤخرًا من مهندس موريتاني يعمل في الدوحة).

آه لو تعلم، كم قاسيت وأنا أكتب لك تلك الرسالة المشؤومة! فقد كان كل من أبي وأخي يقفان ويمليانها علي وأنا أكتبها بعد أن تعرّضت للحجز والإهانة والشتم، إلى أن أدركا أنني لن أتراجع عن حبّك الذي جعل مني إنسانة مختلفة. كان قرارهما صارمًا:

- إما أن تكتبي له الرسالة، أو سنضطر للتخلّص منه.

كنت أعرف أنه يمكنهما ذلك. وأنهما مستعدان لفعله. فقد كررا لي أن الأمر لا يتعلّق بإهانتهما بسبب فوارق النسب فقط، بل يتعدّى لمستقبل عائلتي كلّها وهيبة والدي الذي سيكون له شأن كبير كما يخططان.

لم تكن تهمنّي حكاية النسب ولا مخططات والدي وأخي. كان يهمنّي فقط خوفي عليك... فلو استمريت في العناد سيقتلانك...

آه لو تعلم، كم فكّرت أن أقتل نفسي، وهكذا أريحهم، ولا يبقى هناك داعٍ لإيذائك! لكنني لم أستطع. كنت أجبن من أن أتخلى عن حلمي بأَنٍ أهرب معك ونعيش سوياً زوجين في مكان لا نُعرف فيه، ولا يعرفنا فيه أحد. كان هذا الحلم أقوى مني، فقرّرت أن أكتب تلك الرسالة المشؤومة لأعطي لنفسي أوّلًا فرصة أن أكافح من أجل أن أروي لك ما حصل لي. وأعطيك فرصة استمرار العيش ولو كرهتني.... وهذا ما كان.

آه لو تعلم، أن حبّي لك كان أقوى مني. فأنت ستقرأ في هذه الرسالة ما لم تكن تعرف عني. لم تكن تعرف أني أحبّك إلى هذا الحد، وأنا نفسي، لم أكن أتصوّر ذلك! لم أكن أتصوّر أن الجامعة كلها ستتغير بسبب غيابك عنها وأن حياتي ستنقلب بعد رحيلك. ما كنت أظن أن مشاعري ورغبتي في التمرّد ورفض شجيرات النسب - بل الرغبة في قطعها - ستنتفض وتنمو بين ضلوعي كل يوم بعد غيابك عن ناظريّ.

آه لو تعلم! يمكنني أن أكتب لك عن الألم والعذاب والليالي الطويلة، والصبح الذي لا ينبلج... ولكن!

لكن يكفي هذا! هذه الرسالة أكتبها بدموع الفرح لأول مرة، بعد أن كتبت كثيرًا بدموع الوجع. هذه المرة أكتب لك لأزفّ إليك نجاح آلامنا معًا في الوصول إلى نهاية سعيدة! ومن قال إن طريق الألم ليس أقصر الطرق إلى السعادةالأبدية؟!

هنا أجهش الشيباني باكيًا عاجزًا عن إكمال القراءة. كان بكاؤه نشيجًا مما دفع محمودًا إلى الصعود إليه. دخل مذهولًا:

- ما بك؟ هل أستدعي الدكتور دفع الله؟

لم تتوقّف هستيريا البكاء، وخطر لمحمود أن للأمر علاقة بما سمعه

عن قضية الدماغ والذاكرة والحادث الأخير من دون أن يفهم الأمر بدقّة. قرّر الاتصال بدفع الله الذي جاء مسرعًا مرتديًا زي الجراحين. صعد إلى الغرفة فوجد الشيباني ممدّدًا على حشية ودموعه تنهمر بصمت. كان وجهه محمرًّا وعيناه مترعتان بالدموع، مع انطفاء فيهما ومسحة حزن وعجز.

- ما لك؟ ماذا أصابك يا رجل؟

جلس يمسح عينيه بأصابع مرتعشة، رافعًا عينيه في وجه دفع الله كأنه يستغيث. التفت دفع الله يمنة ويسرة متأمّلًا جدران الغرفة؛ فرأى ملابس مبعثرة على أطراف الدولاب، وتسلّلت إلى أنفه رائحة ملابس متّسخة مشوبةً بغبار الغرفة المكتوم. قال بنبرة مشفقة:

- هات يا شيباني! أخبرني. لقد تركت الدوام في المستشفى وهرعت إليك! قل لي ما الأمر؟

لم يتحوّل الشيباني عن مكانه ولم يفسح لصديقه. واكتفى دفع الله بالجلوس على طرف السرير وقلبه ينبض انتظارًا لما سيسمع. بدأ الشيباني الحديث، وانحلّت عقدة لسانه فجأة وبدأ يقصّ كل شيء. روى حكايته مع سلمى كاملة للمرة الأولى. حتى إنه قصَّ له قضية النسب، وسؤال علاقته بأبيه في مجتمع قبلي... تلك القصة التي لم يثرها أبدًا إلا مع جدّته أو مع المرابط.

كان يقطّع حديثه، ويسحب منديلًا عن يمينه ويُمرّره على أرنبة أنفه سريعًا، ثم يواصل كأن كل جملة يتفوّه بها ترخي أعصابه. حكى له كل شيء، حكاية فراره إلى السنغال، والظروف الصعبة التي عاشها هناك حتى استدعاه جاسم، صديقه من أيام المحظرة. روى له بالتفصيل تعرّضه للضرب المبرح على أيدي مبعوثين من والد سلمى.

وتغيرت نبرة حديثه، ثم قال وهو يغالب الدموع:

- إن سبب بكائي هو الظلم الذي أوقعتُه على تلك الفتاة. فقد وصلتني رسالة مكذوبة على لسانها فأسأت بها الظن. ظننت أنها كانت تتلاعب بي وتكذب علي.

كان دفع الله يستمع بكل حواسه، واضعًا يده تحت ذقنه، وعيناه تدوران بين دموع الشيباني والورقة التي في حجره. وقف الشيباني من مكانه وفتح النافذة، فظهرت الشجّة وبقايا آثار الغرز على جبهته، وبرزت درجة احمرار وجهه بوضوح. ثم جلس وهو يرفع عينيه إلى سقف الغرفة:

- لقد هربت إلى أماكن غريبة عانيتُ فيها حتى تمنيت الموت، بل اندفعت نحو الموت بكل إرادتي هربًا من ذلك الحبّ الذي كان يعشّش في كل خلية من خلايا جسدي. هربت ظنًا مني أنه حب كاذب، وأنها محبوبة مخادعة... واكتشفت الساعة من هذه الرسالة أنها هي الصادقة وأني كاذب... أنا إنسان من الشمع!

ومدّ الرسالة لدفع الله الذي قرأها حتى وصل إلى النهاية التي تقول فيها سلمى إن والدها وأخاها وافقا أخيرًا على زواجها من الشيباني، بعد يقينهما أن الحب لا يصادر بالقرارات العسكرية. ثم ختمت الرسالة طالبة منه أن يأتي سريعًا.

خطف الشيباني الورقة من صديقه وهو يقول:

- ما رأيك؟

خلع دفع الله نظارتيه، ثم مال إلى الوراء قليلًا ليعطي نفسه فرصة المفاضلة بين المشاعر التي تتنازعانه. شعور المحب الواعي بأن الحب يصنع المعجزات، وشعور الناشط السياسي الذي يسيء الظن

بكل عسكري ويرفض المراهنة على الإنسانية المتوارية في قلوب الجنرالات.

- شوف يا شيباني، أنا ما أدري، بس خايف يكون الموضوع فيه كمين... لا أمان للعسكر. لقد علّمتني الحياة..

قاطعه الشيباني باحتجاج:

- بالله خلينا من السياسة... وعلّمتك الحياة.... أقول لك أنا واثق أن هذا خطها وتلك مشاعرها.

وساد صمت كثيف حتى خيل لدفع الله أن الأوكسيجين الموجود في الغرفة لا يكفي لملءِ رئتيْه.

طال النقاش، واستأذن دفع الله بعد يقينه أنّ لا فائدة من نقاش عاشق قرّر المراهنة على نداء تلك الفتاة الموجودة على بعد آلاف الأميال. وخلال أيام، كان الشيباني قد بدأ الترتيب للعودة إلى موريتانيا عبر مطار نواكشوط، متخيّلًا لحظة لقائه بمحبوبته بعد سنوات من المعاناة. سيلقاها بعد سنوات من التواري عن حب اكتشف أخيرًا أنه مثل الليل.. يغطيه بعباءته الواسعة.... أنى كان.

***

## 25

إذا كان رُعْبي يورِثُ الأمنَ فهْوَ لي
أســرُّ من الأمن الذي يُورثُ الرعبا!

المعرِّي

يتعرّق جسمُه النحيف في أجواء التكييف الباردة داخل مطار حمد الدولي. عبَق أنفُه برائحة التكييف المختلطة بالهواء الداخل من سقف المطار، وخليط العطور الشرقية والغربية المشوبة بروائح المساحيق. اعتلى السلم الكهربائيَّ وهو ينظر إلى آلاف المسافرين الآخذين في وجهات مختلفة، وامتلأتْ أذناه بإعلانات مواعيد إقلاع الرحلات الذاهبة إلى فِجاج الأرض.

تأمّل المسافرين حوله. رأى مجموعة شبان من نيبال، يقهقهون وهم في طريقهم إلى بلدهم بعد سنين من الكدح في مناخ جغرافي مختلف، وبيئة ثقافية غريبة، وفتياتٍ فيليبينياتٍ يضحكن أخيرًا ملءِ أشداقهن من دون خوف من أن ينهرهنَّ أحد أو أن يتعرّضن للتعنيف.

انشغل ذهنه بتأمل اختلاف الوجهات والثقافات، وهو يشعر بضيق وتوتّر وخوف وشوق مُضْنٍ. فكر في لحظة وصوله إلى مطار نواكشوط، متسائلًا عن طبيعة ما ينتظره. كانت الأسئلة تتزاحم فلا يستطيع التفكير فيها لأن مشاعره كلّها متركّزة على نقطة واحدة: وجه سلمى وهي تنتظره بشوق.

كان يشدّ بيده على مقبض شنطته - ويتأمل المسافرين مختلفي

الملامح والوجهات والثقافات والأحلام والمقاصد وألوان الحقائب.

يقف في صف انتظار ختم الجوازات للخروج وينظر في الصفوف التي تنتظر. تخيّل الهموم والأشواق والرغبات التي تحرّك كل واحد، وفكّر أن همومه انزاحت وأشجانه تغيّرت وجهتها. تنفّس بعمق وأنشد بصوت مسموع:

تحمَّل أصحابي ولم يجِدوا وجْدي وللناس أشجانٌ، ولي شَجَنٌ وحدي!

رمقه شرطي الجوازات باستغراب. مد له الجواز من دون أن ينظر إليه؛ فقد انشغل بالنظر إلى المسافرة الأوروبية التي إلى جانبه في الطابور الآخر. كانت تحمل قفصًا فيه قط أسود سمين، يلفَحُه بعينين برّاقتين وتداعبه كطفل مدلّل. تبسّم من أحوال البشر وأمزجتهم. وانتبه إلى أن يد الشرطي لا تكاد تمسك الجواز من الضحك... ثم ناوله إياه وهو يقول بأدب:

- لا تستطيع السفر، أنت نسيتَ استخراج إذن الخروج!

غاض الدم من وجهه:

- ماذا؟ نسيتُ ورقة الإذن للعبد بالسفر؟!

والتفتتْ إليه أعناق، ورمقته أعينٌ، وتبسّم الشرطي، وضحكت سيدة مصرية واقفة خلفه في الطابور.

خرج من الطابور راكضًا إلى المقاعد المتناثرة، ورمى جسمه على أحدها وهو يتّصل بصديقه جاسم:

- يا هلا. ما بك هل غيّرت رأيك؟

- يا هلا أيش! وغيرت أيش! نسيتُ ورقة الإذن للعبد بالخروج!

وسمع ضحكة جاسم:

- الله يقطعْ إبليسك! سهلة يا خويْ! سهلة يخويْ! لحظة أدخل النت وأطلع لك إياها.

- أسرع يا صديقي. ليش هي موجودة أصلًا؟ هذه من آخر ما بقي من الاستعباد!

- يا رجّال هذي أمور الحكومة.

وصل الإذن، فعاد إلى الشرطي، وختم له الخروج. ابتلعه السلَّمُ الكهربائي وهو يفتّش اللوحات باحثًا عن بوابة الطائرة المتوجّهة إلى الدار البيضاء ومن هناك إلى نواكشوط.

كانت طائرة الخطوط الجوية القطرية الضخمة ما تزال رابضة على أرضية المطار، والمضيفة تعلن اكتمال صعود الركاب، مذكرةً بفترة الرحلة ورقمها ووجهتها ودرجات الحرارة.

كان الشيباني سعيدًا متحمّسًا، يشعر بأن الكون كلّه سعيد ومتفائل. فتح نافذة كرسيّه فلمح الغيوم تزحف في الأفق راضية، وسربًا من الحمام يحلّق فخيّل إليه أنه في طريقه إلى وليمة كبرى. أما شمس الضحى فبدت في عينيه بشيرًا بشفاء مريض، أو هديةً من عاشق لعشيقته.

التفت عن يمينه - وهو يربط حزام الأمان - فلمح سيدة جالسة في المقعد المقابل. خيل إليه أنها ذاهبة لحضور عرس. التفت يسارًا فرأى خمسينيًا منهمكًا في تأمّل هاتفه، فخطر له أنه يستقبل رسالة واتسآبيةً تشعره بنجاح ابنته في السنة الأخيرة من كلّية الطب.

بدا له كل شيء ضاحكًا، مُضمَّخًا بعبير الحب. فأدنى درجات الحب إما أنْ تفتح للقلب نافذة على أبواب فردوسية من السعادة، أو أخرى مشرّعة على أعتاب الجحيم. كان الشيباني يستقبل روْح الجنان

وهو يتخيّل لحظات لقياه بمحبوبته.

فتح حقيبته الصغيرة وأخرج كتاب العقاد عن ابن الرومي. بدأ قراءة المقدمة، وتأمّل في حديث العقاد عن تشاؤم ابن الرومي، وشؤم ديوانه، حيث لم يكتب عنه أحد في التاريخ إلا أصيب بمرض أو سجن أو نفي. ضم الكتاب متشائمًا.

انقضت أربع عشرة ساعة كالبرق، كانت كلّها أحلاماً تكرّر صورة لم يملّ منها طوال الساعات الأربع عشرة: سلمى بكل جلالها واقفة تنتظره.

لمحها بكل عنفوانها وأنوثتها تلوح له لحظة خروجه من المطار؛ حاملة باقة من الزهور. كانت في ملحفة تُشبه تلك التي كانت ترتديها عندما قابلها آخر مرة. نظر إلى عينيها المترعتين بالشوق، وملامح وجهها المرهق من الانتظار، لمح خطوطًا دقيقة في وجنتيها تخيّلها دروباً من السفر النفسي وأودية من المعاناة سافرتها بحثًا عنه في ليالي نواكشوط وغابات السنغال وصحارى الخليج العربي.

وقفا. متران فقط يفصلان بينهما.

هل وصلتُ أخيرًا إلى شواطئ الأوطان المغدورة بعد اغترابي عنها سنوات وسنوات؟ هل يمكن لهذه الدنيا المجنونة أخيرًا أن تسمح لي بالاقتراب من دفء الوطن ودفء المحبوبة ودفء النظرات الكسلى، وأنصاف الابتسامات المسروقة؟

نظرتْ يمنةً ويسرةً. نظر إلى الأوجه المتطلّعة، والرجل الواقف وراءها فلم يشك أنه والدها الجنرال، بشاربه الكث وجبهته المتجهّمة ونظراته الصارمة. لكن نظراته هذه المرة كانت تشبه نظرة الأب المتسلّط في لحظات انشراحه.

سقطت باقة الزهور على الأرض، وارتمت سلمى بين ذراعيه. ما أجمل المدن عندما تستقبلك بأجمل ما فيها! ما أعذب الوطن عندما ينحني على ركبتيه ليمنحك أغلى لؤلؤة متوارية بين أضلاعه!

رفعت رأسها مائلةً قليلًا إلى الوراء لترى ملامح وجهه المرهق بعد سنوات ممتدّة من الفراق المُضني، والسفر العبثي. وسمعته يهمس: هل تعرفين ما معنى أن يضطر الإنسان للسفر دون هدف؟ يسافر لمجرّد السفر فيدخل المدن الشاحبة التي تستقبله بأقبح ما فيها؟ تستقبله بأوجه ضباط الهجرة، ودوريات الشرطة، والشوارع الصاخبة التي لا يشاطرها أي ذكرى، ولا تحتفظ مراياها بأي صورة لطفولته، ولا يميز هواؤها نفَسًا من أنفاسه.

خيّل إليه أنها رأت في تلك اللحظة كل الفيافي والبحار التي قطعها ليصل إلى هذه اللحظة. رأته في يوميات محظرة عيون الخيل، يتحوّل إلى مجذوب منشغل بتشقيقات الفقه المالكي، وتفريعات اللغة. رأته يبيع الأغنام في أسواق السنغال، ويتسمّى بالأسماء الغريبة. كان مرة «جلو» وأخرى «دغانا». رأته مختبئًا في جنبات سوق واقف، هاربًا مندسًّا في مكتبة... ليعيش بين مقابر الكتب.

أفاق على نشيجها الصامت، فتحوّلت الدنيا في عينيه إلى أنفاس متقطّعة، ونشيج مكتوم، وزهور منثورة تحت قدميه. خرجا من المطار. بعد ساعات كان أخوها يأخذه إلى مجلس واسع وسط حي تفرّق زينة.

كان المجلس مكتظًا بعشرات اللحى والعمائم، يتوسّطها والدها الجنرال، بشاربه الكث الأشيب. وقع كل شيء سريعًا. جلس شيخ معمّم في دراعة زرقاء مزركشة وقال، وهو يُمشط لحيته بأصابعه:

– ماذا ننتظر؟ علينا العقد حالًا!

حرك الجنرال رأسه موافقًا، بينما كان ابنه يجلس وراءه مبتسمًا.

حرّك الشيخ فكّه الأسفل الأدرد، ثم قال بعد صمت ملتفتًا إلى الشيباني:

- أنت يا بويَ ولد من؟

انكتمت الأنفاس، وتسارعت حركات جفنيْ الشيباني، وهو ينظر إلى قسمات وجه الجنرال.

- أنت من أي الناس؟

وقبل أن يتكلم الشيباني واصل الشيخ:

- لا بد أني أعرف أهلك يا ولدي... فأنا عليم بالأنساب.

هدأ كل شيء بغتة. أصبح الشيباني لا يسمع إلا قلبه يقفز كأنه سيخرج من أذنيه. حتى الهواء الرطبُ الداخلُ من نوافذ المجلس ذي الألوان الخضراء انكتم بغتة.

حرّك الجنرال يده قائلًا بصرامة عسكرية:

- هذا ابن عمنا يا شيخ. اعقد الزواج حالًا!

ما يذكره الشيباني بعد ذلك أن الدنيا تركت كل عاداتها القديمة. فالساعات كفّت عن الدوران، والشمس والقمر غيرا دوراتهما الأبدية. حتى نواكشوط التي لا تتغيّر بدّلت كل عاداتها. فلم يبق فيها باب مغلق، ولا جدار عازل. ارتفعت العداوات من الصدور، وماتت الإحن والثارات بين القبائل. غدتْ صباحاتُ نواكشوط صباحات وردية بلا معاناة. فقد قذف المحيط الأطلسي كل الكنوز التي كانت مطمورة في أحشائه، وشوهدت الحملان والذئاب ترعى معًا قرب قصر المؤتمرات. شوهد المهدي المنتظر يتجوّل على شاطئ المحيط يمضغ آيس كريم، ويصطاد السمك مع البحارة، ونزل المسيح ابن

مريم على جناحيْ ملك قرب المطار.

أفاق من حلمه على صوت المضيفة تطلب من الركاب وضع حزام الأمان استعدادًا للهبوط بمطار أم التونسي الدولي.

كان متكوّمًا قرب النافذة يرقب نواكشوط من فوق. رأى أحياء الصفيح المتناثرة، والصحراء الشاحبة، والأضواء الخافتة. خُيل إليه أن المدينة كلّها مُنارة بالشموع، لا بالطاقة الكهربائية.

لم تتّسع نياط قلبه للخواطر المتشاكسة التي تعتلج في قلبه. فهذه أرض نبت فيها وليدًا، ودرج فيها يافعًا. هنا كان يلعب بين الكثبان ويطارد الطيور المهاجرة، ويأكل من ثمار الشجر الصحراوي. هذه صحراء تختزن رمالُها مشيمتَه، وتلك وديانٌ لا تزال تحتفظ بصدى أولى الكلمات التي نطق. هنا تعلم الكلمات الأخطر في الحياة؛ الحب والبغض، والإيمان والكفر، والصداقة والعداوة، والوفاء والغدر.

هذه أرض يحبّها بقدر ما تطرده، يتشبّث بأثوابها كما يتشبّث الغريق بقضيب حديدي ساخن! يدير علاقته بها كما يدير الطفل علاقته بأبٍ عطوفٍ متسلطٍ.

تذكّر دفع الله وهو يقول له مرة: إن علاقتنا بأوطاننا تشبه علاقة المدمن بالكوكايين. فهو لا يجني منه إلا الأمراض والنكبات، لكنه ارتبط به ارتباطًا قدريًّا فلا يستطيع منه فكاكًا. يحنّ إليه، يتشبّث به، يدفع من ماله وصحته من أجله دون أدنى فائدة. وتذكّر كيف مال دفع الله إلى الخلف لينهي تعليقه ساخرًا:

- يمكنك تسمية دولنا بـ«أوطان الكوكايين».

أطل إطلالة أخرى من النافذة فتراءى له المحيط الأطلسي غافيًا، ونواكشوط عجوزًا هرمة مستلقية على شاطئه أبدًا. فكّر في المحادثات

الجارية الآن داخل تلك الأكواخ والصالونات والمحاظر والأسواق ومحلات تجميل النساء. ثم تخيّل نواكشوط عجوزًا شائهة طويلة الأطراف، ثائرة الشعر مصابة بمرض عصبي، مهووسة بأكل أولادها والبكاء عليهم.

لامست الطائرة أرضية المطار فوقف صارخًا:

- وصلنا!

حدّجته المضيفة قائلة بنبرة حاسمة:

- لا تتحرّك لطفًا، فلم تتوقّف الطائرة بعد.

رمى جسمه المنهك على مقعده، وسرح بصره من نافذة الطائرة.

استيقظ الشيباني من أحلام اليقظة وتوجّه ليقف في طابور ختم الجوازات. اقترب منه شاب أسمر نحيف حاد القسمات غائر العينين. رمى عقب سيجارة على أرضية المطار، وأطفأها برجله متمتمًا:

- أنت الداه ولد الشيباني؟

- نعم

- تعال معي... أنا ضابط أمن.

***

# 26

والمـرءُ كالبـدر بيْنـا لاحَ كاملـةً
أنـوارُه عـاد للنقصـان فامتقعا!
المعرِّي

مشيا في ممرات المطار. لم يقلق الشيباني ولم يُعِر الموضوع اهتمامًا. ها قد عاد الى حيث تسكن الأحلام. يريد إنهاء تلك العذابات، وخنقِ تلك الأسئلة الأبدية؛ سواء كان دفع الله محقًّا في مجيئه إلى حتفه برجليه، أو كان هو على حق في أن سلمى تنتظره! كان يريد أن ينتهي. وصل صحبة ضابط الأمن إلى ركن قصيٍّ في المطار فانفتح باب صغير. دخلا إلى غرفة مظلمة يجلس فيها رجلان بملابس رمادية اللون. خرج الضابط قائلًا إنه سيعود بعد قليل، ووقف الرجلان وطلبا من الشيباني مرافقتهما، فقال وهو يحكّ أرنبة أنفه:

- ألا تنتظرانه؟ قال إنه سيعود بعد قليل.

لم يجيباه. بل أشار أحدهما له ليلحق بزميله. نزلوا عبر سلم ضيّق ملتوٍ فوجدوا سيارة صغيرة مظلّلة الجوانب تنتظر. قبيل الصعود إلى السيارة صاح الشيباني وهو يتذكّر الهدية التي اشتراها لسلمى من سوق واقف:

- لكن قبل أن نذهب عليَّ أن آخذ شنطتي. فيها أشياء أخاف عليها أن تضيع!

ترامق المخبران ولم ينبسا. أجلساه بينهما، بينما انطلقت السيارة

خارجة من باب خلفي للمطار. جلس بينهما، لكنه لم يكن خائفًا على الإطلاق. انطلقت السيارة مسرعة تلتهم الطريق ما بين المطار ووسط المدينة. يجلس وراء المقود رجل ضخم الجثة له شارب مفتول، أمضى الطريق بين التدخين الشره، والسرعة الجنونية، والاستماع لموسيقى أجنبية صاخبة.

سحب أحد الرجلين خرقة من جيبه وطلب من الشيباني أن يحني رأسه. وأُحكمت الخرقة على عينيه إحكامًا.

كانت لحظة فارقة!

شعر لحظة وضع الخرقة على عينيه أنه اعتُقل فعلًا، وهو يصارع أسئلة من قبيل: هل أوقعت به؟ وهل هي ضحية؟

كان السؤال حارقًا. كان أصعب من كل الآلام التي مرّت والتي ستقع مهما كانت فظاعتها. كان يحاول أن يعرف كيف سيتألّم، بل كيف سيموت: حزنًا من الغدر؟ أم سعادة لأنها كانت صادقة؟

أزعجته الخرقة الملفوفة على عينيه. كان يريد أن يرى وجوه سجّانيه، أن يرى عيونهم حين يتكلّمون أو يضحكون أو يتصرّفون. فالعيون هي النافذة الخلفية المفتوحة على أسرار الإنسان.

شعر بأنه مُنع نعمة التأويل لأول مرة، مفكرًا في أن البشر لا يستطيعون العيش دون تأويل. فالحبّ عبارة عن تأويل لتصرّفات الآخرين، والإيمان تأويل لتجلّي الطبيعة المنظورة... والكفر ليس إلا تأويلًا مغلوطًا لتمظهرات الطبيعة.

حاول فتح عينيه تحت الخرقة دون فائدة، حرّك منكبه فنهره أحدهما. وسمع الشيباني صلصلة القيود.

ها هو ذا، يداه مقيدتان بقيد حديدي ضاغط، وعيناه ملفوفتان بخرقة

مشدودة عليهما. تحوّلت حركة رصد العالم من عينيه إلى أذنيه. غدت أذناه نافذتيْه على العالم في لحظة واحدة!

يبذل كل جهد لتأويل الحركات والسكنات والأصوات والروائح والضحكات بواسطة السماع فقط. صار لكل كحّة شاردة من فم مخبر، ولكل خشخشة معنى في مهجته. بعد نصف ساعة شعر بالسيارة تسلك منحدرًا... وسمع تمتمات الحراس، ثم توقفت.

أنزله حارسان ممسكين بذراعه، فصاح فيهما:

- إلى أين تأخذانني؟ أنا لا علاقة لي بالسياسة!

لم يكن المخبرون يردّون عليه رغم توسلاته، ولا استطاع فهم أي معلومة منهم. وتذكّر كلمات دفع الله عن أن أجهزة القمع هي الأجهزة الوحيدة التي تعمل بكفاءة في الدول الاستبدادية، لأنها الوحيدة التي يجني منها المستبدُ نتيجة احترافها وكفاءتها.

شعر بأبواب، تُفتح، وأصوات مزاليج تتحرّك، وسمع صرخة آمرة:

- قف!

اخترقت الصرخة طبلة أذنه بعنف. فلعل هذه أقوى صيغة يوجه له بها الأمر منذ ولد. جرّه الحارس من رقبته وهو يضغط عليها ليحني رأسه. وقبل أن ينقله إلى حيث لن يرى النور أعاد وضع عصبة سوداء على عينيه. وسحبه خلفه ليرميه في سيارة اعتقد أنها سيارة سجن.

عندما وصل رفعوا العصابة عن عينيه فلمح جدران السجون لأول مرة. أحاط به اثنان من الحرّاس. جعلوه يخلع دراعته، ويسلم كل ما كان معه: ساعة يدوية، وعشرين ألف ريال قطري، وحذاء.

لاحت ابتسامة ظفرٍ على وجه الحارس وهو يقول:

- ستأخذ أغراضك عندما تخرج من السجن. ثم ضحك وهو

يضيف: هذا إن خرجت حيًّا.

وسلّمه ثياب السجن من دون حذاء، فقال:

- أخذت حذائي ولم تعطني بديلًا عنه!

فرد الحارس:

- يمنع انتعال هذا الضرب من الأحذية هنا. يُسمح بحذاء من القماش فقط. سأضع اسمك على الجدول، عندما يخرج سجين، ويأتي دورك، نعطيك حذاءه.

ونادى أحد الحراس:

- ها هي المفاتيح! خذه.

انفتح باب صرّ صريرًا حادًّا، ثم دفعته يد إلى الداخل، وصُكّ بقوة! سمع صوت إغلاقه من الخارج! وقف في الظلام وحيدًا، خائفًا يرتعد. بعد دقائق تذكّر أنه يستطيع الآن انتزاع الخرقة.

رفع يديه المقيدتين ونزع الخرقة عن عينيه، فشعر شعور من خرج من السجن... فلا سجن أقوى من سجن العمى لمن جرّب الإبصار. وفكّر في جدّته في تلك اللحظة.

ردّد بصره في أطراف الزنزانة المعتمة. جرّب أن يجمع الأوساخ في زاوية ليستطيع إراحة جسده قليلًا. كانت الزنزانة لا تزيد على مترين في مترين، خالية من أي شيء، لا كرسي ولا فراش... أرضيةٌ إسمنتية، بقايا فضلات بشرية قديمة، مع مزيج قوي من رائحة المجاري والعرق وبقايا الطعام المتعفّن.

وقف - لا إراديًّا - على أطراف أصابعه - محاولًا تجنّب الأوساخ التي تغطي الأرضية. شعر بألم قوي في مقدمة قدميه وبعبثية توقي الأوساخ التي تملأ أرضية الزنزانة فأنزل رجليه.

نام كما لم ينم من قبل، وحلم في أثناء نومه ذلك كما لم يحلم من قبل.

رأى نفسه أعرابيا في وفدٍ من وفود العرب عند كسرى. كان كسرى جالسًا على كرسيه وبين يديه أعوانه ووزراؤه وحاشيته، يلبس ثوبًا أحمر مطرّزًا بالذهب. نزل عن كرسيه، ومد خيزرانة في يده جهة الشيباني وقال:

– النعمان!... كيف ترفض أن تزوجني بنتك؟

حاول الشيباني الصراخ:

– أنا لستُ النعمان!

لكن كسرى كان قد التفت إلى الزبانية، فجاءوا يركضون. أخذوه من تلابيبه، وذهبوا به إلى وادٍ مليء بالفيلة، ورموه تحت أقدامها لتطأه وطئًا... حاول الصراخ وأرجل الفيلة تتقاذفه. لكن صوته كان ضعيفًا. ثم صرخ صرخة مدوّية، وجلس!

استيقظ من الحلم المريع على الزنزانة تفتح، والمخبر يصرخ:

– قف!

وقف وجلًا خائفًا، يحك عينيه. يتأمل الزنزانة النتنة العارية، الباردة! والسقف الرمادي. ثم مد يده لتحّسس كتفه اليمنى التي خيّل إليه أنها مشلولة. فبعد ساعات من الاستلقاء على البلاط البارد فَقَدَ كل إحساس في منكبه.

استعاد وعيه كاملًا، وهو يسمع صراخ الحارس:

– أنت شاك أنك عريسْ؟

فتح فمه بصعوبة محاولًا تحريك لسان تحوّل إلى قطعة خشبية من الخوف والعطش:

- أريد أن أشرب، وأصلّي!

قالها متوسلًا، وهو ينظر إلى الحارس الطويل. كان طويلًا أسمر السحنة يرتدي ملابس عسكرية، حاسر الرأس، ينتعل حذاءً مفتوحًا. نظر إلى الشيباني وقال:

- صلاة آش؟ أنت منافق، لو كنت مصلّيًا لما كنتَ هنا!

انتهز الشيباني فرصة وجود من يناقش معه أي شيء له علاقة باعتقاله، فقال:

- أنا مظلوم، لا أدري لماذا أتوْا بي إلى هنا!

وضحك الشرطي ضحكة مجلجلة وقال:

- لم يدخل هنا أحد قط إلا قال مثل ما قلت. ولم يقف مذنب قط أمام قاض إلا قال إنه بريء، ولا توجد مومس في الدنيا إلا ولديها حكاية عن كيف أُجبرت.

فرح الشيباني بالعسكري الذي يتحدّث حديثًا منطقيًا، فقال، وهو يحاول النظر من باب الزنزانة إلى الممرّات:

- هل تعرف لماذا اعتقلوني؟

رجع الشرطي إلى الوراء قليلًا، وركل الباب برجله بقوة، فدوى ارتطامه في كل أطراف العنبر.

وصرخ:

- جهّز نفسك! وسأعود بعد دقائق....، بُلْ حيث أنت؟!

ومع الوقت أدرك الشيباني أن زنزانته هي حمّامه.

***

# 27

يبغـون مِنّيَ مَيْنًا لسـتُ أحسـنه
فإن صدقتُ، عَرَتْهـمْ أوجُهٌ عُبُسُ!
المعرِّي

سمع وقع الأقدام العنيفة للحارس وأصواتَ احتكاك مفاتيح الزنزانات في يديه. تساءل في نفسه: لم يحرصون على أن يكون فتح باب الزنزانة وإغلاقها عملية تعذيب كل مرة؟!

رفع الحارس عينين مرهقتين حمراوين لم ينم صاحبهما منذ يومين، وقال:

- تعالْ!

خيّل للشيباني أن في عيني الحارس دموعًا، أو أنه لمح فيهما قبسًا من الرحمة والتعاطف. ثم خطر له أن الرحمة لا تتسلّل إلى قلوب زبانية السجون. فهؤلاء يُختارون غلاظًا بلا رحمة.. فهذا هو الطريق اللازم للترقية في أقبية السجون.

عاوده ذلك الخاطر بعدما قال له الحارس هامسًا، وهو يلتفت يمنة ويسرة مخافة أن يسمعه أحد:

- لا تخفْ! وتأكد دائمًا أن قصتك واحدة، ولا تتراجع عن أقوالك مهما كانت!

رفع الشيباني عينين مليئتين بالاستغاثة من دون أن يتكلّم... هل يمكن أن تنطوي هذه الأقبية على قلوب تنبض بالرحمة؟! هل يحسّ

زبانية السجون في أعماق قلوبهم ذلك الوخز الإنساني وذلك الصراع بين الخير والشر؟ هل تصل أنسام الفطرة إلى قلوب السجّانين وهم عاكفون على أعتاب الزنزانات المتوارية في الزوايا المعتمة من المدن؟

كانا يمشيان في الممر المظلم المؤدّي إلى غرفة التحقيق. وقفا في الممر. أخرج الحارس خرقة من سترته ولفها على عيني الشيباني وهو صامت. ثم أمسكه من يديه:

- تحرّك!

وهمس الشيباني متوسلًا:

- ماذا يريدون مني؟ ما تهمتي؟

تظاهر الحارس بأنه لم يسمع. وامتلأ أنف الشيباني بروائح مختلفة. رائحة الدخان والشاي الأخضر والأوساخ المتراكمة وبقايا الطعام.

بعد خمس دقائق من المشي، أحس بأنه دخل مكانًا مغلقًا. أجلسه الحارس على كرسي بلاستيكي ثم غادر، وسمع انغلاق الباب خلفه.

جلس وحيدًا في ظلام كثيف، على كرسي بلاستيكي داخل غرفة التحقيق. حاول أن يعرف كل شيء عن الغرفة من خلال أنفه. ماذا فيها من أدوات التعذيب التي سمع عنها؟

لقد سمع دفع الله يتحدّث عن تلك الأدوات في عالم السجون. سمعه يتحدّث عن أدوات التعذيب في عالم السجون؛ كأسلاك الصعق بالكهرباء! وأسياخ الحديد المحمّاة، والوحوشِ البشرية المستعدّة للانقضاض على الضحية العزلاء.

استنفر حاسّتَيّ الشم والسمع، فتسلّلت إلى أنفه رائحة الشاي والقهوة ممزوجةً برائحة السجائر. شعر بسعادة غامرة لرائحة الشاي، فهي دليل على أن المكان فيه حياة طبيعية، فلا يمكن أن يكون من

يمارس التعذيب يجلس ليشرب الشاي!

عزّى نفسه بذلك وهو يحاول رفع يده إلى الخرقة المعصوبة على عينيه متظاهرًا بأنه يحك موضعًا في جبهته. ما إن وصلت يده إلى جبهته حتى جاءه صوت:

- لا تتحرّك!

طار قلبه، وتراجعت أعضاؤه منكمشة، وتعرّق جسمه دفعة واحدة، وتحوّل حلقه إلى قطعة جلد يابسة.

وسمع أقدامًا تقترب، ووقعت يد عنيفة على رقبته:

- هل تفكّر في نزع العصابة عن عينيك؟

بقي صامتًا.

أحسّ بجلوس صاحب الصوت قبالته:

- ما اسمك؟

- الداه ولد الشيباني

من زاوية صغيرة جدا في العصابة لمح الشيباني المحقق فرآه أربعينيًّا، أسمر السحنة، ضخم الشارب، ذا عينين غائرتين، وشفتين رقيقتين، وأنفٍ حادٍّ. لكن أكثر ما يميزه عيناه الغائرتان العميقتان المتواريتان. عينان تذكران بعيني غازٍ من غزاة النهب في الصحراء قبل مئات السنين.

مدّ المحقّق يده إلى مطفأة عتيقة ودسَّ فيها عقب السيجارة وهو يضم كُمَّ دراعته ويقول:

- شوف! أنت من سيحدّد مسار التحقيق!

وسكت حتى يشعل سجارة جديدة، أو ربما ليترك كلماته تأخذ

وقعها على نفس السجين المغمَض المقيَّد الجالس بين يديه. وبعد دقيقة أردف:

- أنت من يحدّد... فماذا ترى؟

قالها وهو يتأمّل الشيباني يقف أمامه نحيف الجسم، أشعث الرأس، متسخ الثياب، ترتعش أطرافه ارتعاشًا.

ساد صمت. ثم عاد المحقّق:

- تكلّم!

لم يعرف الشيباني ماذا يقول، وعمَّ يتكلم؟ لقد قرأ آلاف الكتب وناقش آلاف الساعات مع الناس، لكنه لم يقرأ قط صفحة تجهّزه لمثل هذه اللحظة.. ولم يكن يتخيّل أن يأتي يوم يحتاج فيه إلى معرفة نفسيات المحقّقين وأساليب التحقيق. وجاءه الصوت الخشن مجلجلًا هذه المرة:

- تكلم! هل أنت أخرس؟

- ماذا أقول؟

ما كان ينهي الحرف الأخير حتى ضرب المحقّق يده على الطاولة ضربة قوية هدّت آخر ما تبقى من تركيزه. فانتفض الشيباني:

- أنا لا أدري، ماذا تريدني أن أقول!

وقف المحقق وبدأ يتجوّل في الغرفة وهو يقول بطريقة تحاكي لغة أبطال المسلسلات التاريخية:

- كل من يدخل إلى هذا المكان هو مَنْ يقرّر اختصار الطريق أو تطويله. فإن كان من عشّاق الطرق الطويلة فأمامه سياحة ممتدة، سيعتلي جبالًا... ويخوض أنهارًا، ويكابد السير في صحاري، ويتوغّل في غابات.

سكت قليلًا، عندما وصل إلى النافذة. نظر منها فتراءى له العلم الموريتاني يخفق على طرف المبنى، ومجموعة من الرجال في الأفق البعيد تحاول انتشال سيارة منغرسة في الرمل.

رجع أدراجه وقال وهو ينظر إلى السقف:

- الخيار الآخر لدى السجين أن ينتشل نفسه من الأوحال، ويختصرَ الطريق ويجيب على الأسئلة بطريقة صادقة لا مواربة فيها، وحينها لن يطول التحقيق.

رد الشيباني على الفور:

- أنا جاهز لقول الحقيقة.

- تفضّل، قل لي لم اعتُقلت!

ردّ الشيباني بانكسار:

- اعتقلوني لسبب لا أعرفه.

ضحك المحقّق ضحكة مجلجلة مفاجئة، مستعيدًا في ذهنه صورة ضابط الاستخبارات الأردني الذي درّبه على التحقيق وعلى هذه الضحكة الساخرة بالذات قبل شهر. ثم صمت. واقترب من الشيباني حتى كاد فمه يلامس أذنه وصرخ:

- كذبت! إننا نعرف عنك كل شيء! ألا تعلم أن التعاون الأمني بين الدول العربية لم ينخرم يومًا رغم الحروب والنزاعات؟

وتذكّر الشيباني ما سيتذكّره مرات. تذكّر كلام صديقه دفع الله عن تجاربه مع المحقّقين، وسافر خياله مُستعيدًا صورة خميس العبد الله، بلحيته الكثة وبطنه المدور وعينيه المفتوحتين المتيقظتين أبدًا. وتذكّر حديث دفع الله عنه، وكيف كان يجزم - هامسًا - أنه ضابط مخابرات محترف، وأن جلباب الدين الذي يلتحف إنما هو مصيدة استخبارات.

تعالت دقات قلبه، وشعر بجسده يتعرّق، ويديه ترتجفان. ثم سمع المحقق يقول:

- وماذا عن أزواد؟ ألم تر كثبان مالي وصحراءها؟ ألم تصطد الظباء في شمال البلاد؟ اسمع! لقد مرّ على هذا المقعد زعيمكم، ومر عليه مسؤول التنظيم، ورئيس مجلس الشورى.... كلهم حاولوا ما تحاول، وكلّ واحد منهم فشل في ما تحاول.

وسكت قليلًا، ثم أردف بلهجة هادئة ضاغطًا على كل حرف:

- هل تذكر مكتبتك بسوق واقف؟ لقد كانت عيوننا هناك!

شعر الشيباني بأنه ممثل فكاهي في مسرحية هزلية. كان هو والممثّلون يمثّلون وحدهم على الخشبة دون جمهور أو إضاءة أو حتى أدوات تسجيل. وعليه فلا يهم ماذا يفعلون، أو ما يقولون، فلا قيمة لكل ذلك.

وقف المحقِّق، ورمى رزمة من الأوراق بين يدي الشيباني وقال:

- هذه صور من الصفحات الداخلية لجوازك. هنا دخولك المتكرّر إلى مالي، وهنا خروجك منها. لدينا كل الأدلة وكل الصور... ولدينا اعترافات أصحابك.

- ثم توجّه إلى أحد أعوانه وأمره بأن ينزع العصابة عن عيني الشيباني ليرى تاريخه مدوّنًا عندهم. وسكت المحقّق قليلًا، وهو يشعل سيجارة، ثم أردف:

- هل تذكر جينيت؟

وتردّد السؤال في أرجاء الغرفة المتوتّرة.

- تكلّم! هل تذكر تلك الفتاة الفرنسية التي اختطفتها جماعتك الإرهابية.... وأنت كنت من حراسها؟ هل تعرف أنها وصفت

معاملتك لها؟ يا لها من ليلة ليلاء... ليلتك تلك مع جينيتْ المسكينة. هل تذكرها؟

كان الوقت منتصف الليل، في وسط الصحراء المالية بمثلث الرعب. حيث الصحراء القاحلة التي تشبه أمواج المحيطات... هناك حيث لا يتحرك إلا طائرات التجسس الأميركية والذئاب الضارية والنعام الشارد والإرهابيون. كانت جينيت سجينة داخل غرفتين مبنيتين تحت كثيب رملي. وكان أربعة إرهابيين يحرسونوها طوال الوقت.

كانت تلك الفرنسية التي تعمل ممرضة في مستشفى (Saint – Joseph) بباريس قد بدأت تفقد تركيزها بعد اختطافها من الحدود النيجيرية. خرجت من الغرفة التي تُحتجز فيها وطلبت ماءً لتستحم. أعطاها الإرهابي الأسمر ذو الجثة الضخمة حاجتها من الماء فاغتسلت وخرجت.

خرجت من الحمام وهي تظن أن المعاملة ستختلف، ولا بد أن السماح لها بالاستحمام هو تمهيد لإطلاق سراحها. لم تفكر لحظة بما كان ينتظرها. كانت فتاة فرنسية نحيفة الخصر، ثائرة الثديين، مكتنزة الردفين، وردية الخدين... كأنها زهرة من أزهار الجنوب الفرنسي. وقف الشبان الثلاثة الذين يحرسونها، وتحدّثوا بصوت خافت. ثم جاءها أحدهم وطلب منها أن تصعد. أزال البرميل الذي يسد باب المخبأ الواقع تحت الأرض، وصعدت الفتاة وصعد الشبان الثلاثة.

خرجوا من القبو إلى رأس الكثيب الرملي الذهبي. كانت الصحراء ممتدة شاسعة، وكان القمر الفضي يلقي بأشعة فاتنة على المكان الهادئ.

بدت السماء قريبة من الأرض، وكانت الحواس البشرية حادة وقوية

في مثل تلك الساعة وفي تلك البيئة. فكل تنفّس مهما بَعُد يُسمع، وكل حركة مهما دقّت تلتقطها الآذان، وكل رائحة مهما خفتت تفترسها الأنوف.

كان اتفاقًا قد وُقّع بين السلطات الفرنسية والإرهابيين على الإفراج عن الفتاة. كلف الإرهابيون الشبانَ الثلاثة بإيصال الفتاة إلى وسيط سيلتقونه عند نهر النيجر وكنت أحد أولئك الحراس. لقد روت الفتاة ما فعلتم بها.

سكت المحقّق، ورمى الورقة إلى الشيباني للتوقيع عليها.

ثم واصل:

- أخبرني الحارس أنك طلبت إذنًا للصلاة! هل هذه أفعال المسلمين؟ فكيف بمن يدّعي الدفاع عن الإسلام والمسلمين؟ كيف رضيتَ بهذا؟ لقد كتبت الفتاة مذكرات وصفت فيها كل شيء وذكرتك بالاسم... ألم تكن كنيتك أبو عبادة المهاجر؟ هل تظن أن اختفاءك في السنغال، أو مالي، أو في مكتبة في قطر، سيمحو كل تاريخك وتراثك؟ هل تظنّ الناس حمقى لهذه الدرجة؟

مشى المحقّق مسرعًا، وفتح درجًا وأخرج منه صورة رماها للشيباني.

رفع الشيباني الصورة فإذا هي صورته مع جاسم داخل مخفر الشرطة.. يوم اعتُقل جاسم خطأ وهو عريس.

اختطف المحقّق الصورة وقال:

- هذا هو الجزائري الذي جنّدك للذهاب إلى مالي.. هل تظنّ أننا غافلون؟!

أخذ الإرهاق كل مأخذ من الشيباني. كَلّ ذهنُه من تتبّع هذه الصورة

الخيالية التي تُلصق به. كان خياله قد سافر بعيدًا إلى تلك الصحاري الممتدة التي وصفها المحقق. وتخيّل نفسه هناك وحيدًا على قمة كثيب متنكبًا بندقية... ولا سلطان لأحد عليه.

فقال:

– حضرة المحقق، ما من شيء مما تقوله صحيح. كل ما قدّموه لك مفبرك لأسباب لا علاقة لها بالسياسة.

انتفض المحقّق صارخًا في وجهه:

– ماذا تقول؟ هل أنا أكذب وأزوّر كل هذه الوقائع؟ هل تظن بأن حديثك عن براءتك سيخدعني؟ أم تخالك خادعًا الناس، بقراءة الشعر، والتظاهر بالبراءة.... هل تظن أنه يمكن محو الماضي بهذه السهولة؟

وسكت قليلًا كأنه يفكّر في أمر تذكّره له فجأة، ثم صرخ:

– وقِّع على المحضر.

ووجد الشيباني نفسه يصرخ:

– أنت تتحدّث عن شخصٍ آخر! أنا لم أزر مالي قط، ولم أتدخّل في السياسة أبدًا! اسألوا عني!

قهقه المحقّق، وهو يقف من مكانه ليدور وراء الشيباني. أمسك رقبته كأنه يدلّكها وقال:

– لقد بحثنا، وهذه خلاصة البحث... ودقّقنا وهذه خلاصة التدقيق. يبدو أنك من النوع الذي يفضّل الطريق الطويل.

وصفّق، فانفتح الباب.

دخل رجل ضخم القامة، قوي البنية يلبس بنطالًا مُخرّمَ الأطراف. وقف مباشرة عند ظهر الشيباني كأنه عمود حديد. وساد صمت لم

يقطعه إلا صوت مروحية من بعيد. بعد ثوان مثقلة بالصمت، قال المحقّق وهو يكح كحّة خفيفة:

- هذا ضيف من ضيوفك! اعتنِ به جيدًا.

وانقطع نفس المحقّق وهو يقطّع كحته بلعن السجائر، ثم قال:

- يبدو أنه من عشاق الجولات الطويلة... خذه إلى البحار والصحاري..... لم لا؟ فهو ليس غريباً على الصحراء!

***

## 28

فما رضيتْ بالموت كُدْرٌ مســيرُها

إلى الماء خِمْسٌ.. ثم يشــربن منْ أجْنِ

**المعرِّي**

كانت أنوار الفجر تتسلّل إلى الزنزانة. سمع ضجة في الممرات... ثم أزعجه ضرب قوي على الباب.

- انقلاب! انقلاب!

بجهدٍ جهيد استطاع الوقوف. مشى مرتبك الخطى مُشوَّش التفكير. تلمَّس الجدارَ إلى أن وصل إلى الباب. وضع عينه مرتعشًا على ثقب الباب فرأى السجناء يمرون بفوضوية أمام الزنزانة وسط أصوات الحمد والتكبير.

بعد قليل جاء حارس يركض، وفتح له الباب بسرعة وصرخ:

- اخرج هيا. اهرب.

لكن إلى أين يهرب؟

وقف ينظر إلى السجناء يخرجون من زنازينهم، كل منهم تنشقّ عنه مشيمته فيخرج ضاحكًا فرِحًا يريد أن يفرَّ بعيدًا. واكتشف للمرة الأولى أن أتعس لحظات الإنسان ألّا يجد ما يهرب إليه، أو لا يجد في نفسه الدوافع الكافية لاندفاع الهارب. فالاندفاع إلى الهرب دافعه الأمل والحرية؟ الهارب يسرع بكل حواسّه للوصول إلى نقطة أفضل مما هو فيه، نقطة يشعر فيها بأمان ما. أما هو فإلى أين يهرب.

ظلّ يتأمّل ذاهلًا عن ما يجري بين جدران السجن الكالحة حتى فرغت كل الزنزانات من سكانها الذين كانت تضج بهم قبل ساعات.

كان يسائل نفسه: ماذا يفعل؟ لا مجال للعودة إلى الدوحة! وهل يعود إلى السنغال؟ إلى ذلك العالم البائس، وسلمى!؟ وجدته، عليه أن يذهب لرؤية جدّته... لا، عليه التوجه لرؤية سلمى أولًا؛ فهذه فرصته في غفلة من غفلات المدن الكبرى وانشغال أهلها بحدث خطير. للكن ماذا عن الجنرال! ربما يكون أحد قادة الانقلاب، فيسير برجليه مرة أخرى إلى الهلاك. لكن، هل ما قالته سلمى في رسالتها وكلماتها هو حقيقة مشاعرها؟ هل يُعقل أن تكون كتبت تلك الرسالة وهي تضحك مع والدها على ذلك العاشق الأبله؟ وانطفأت ابتسامة ظلّلت شفتيه المرهقتين المفتوحتين كشفاه المجانين.

يجب أن يذهب إلى جدّته، فهي صاحبة الفضل الأول عليه! لكن لمَ يذهب؟ وما الذي يستطيع أن يقول لها وبأي وجه يقابلها؟ ماذا يستطيع أن يقدّم لتلك الجدة التي يُفترض أن يكون جالسًا إلى جانبها منذ زمن وهي تتعثّر وحيدةً في أرذل العمر بعينين منطفئتين؟ ماذا يستطيع أن يقدّم لها.

وفي غمرة أفكاره تذكّر المال الذي أُخذ منه يوم دخوله السجن. ركض إلى غرفة الأمانات. وجد مجموعة من السجناء يحاولون كسر قفل الغرفة المليئة بالأمانات. كانوا يعبثون بالقفل أمام أعين الحراس المرعوبين خوفا من الانتقام. كسر قائمة كرسيّ وراح يساعد في كسر القفل.

ما إن انكسر حتى اندفع المساجين كل يبحث عن أشيائه. لمحوا صناديق مصفوفة يحمل كل منها رقم سجين. اندفع إلى الصندوق رقم 847 الذي كان رقمه كسجين، وفوجئ بأن نقوده وساعته ودراعته في

الصندوق.

ارتدى دراعته بسرعة، ودس المال في جيبه، ونسي الساعة والحذاء، وركض خارج أسوار السجن. رأى أعدادًا هائلة من الناس متجمعين أمام بوابة السجن المفتوحة وسط فوضى عارمة. بكاء وضحك وعناق، أمهاتٌ أتين على عجل لمقابلة أبنائهن لحظة خروجهم، ومتسوّلون وفضوليون.

وسط الفوضى لمح رجلًا مستندًا إلى سيارة متهالكة غارقًا في التدخين، فاقترب منه:

- عمن تبحث؟

رمى الرجل السيجارة وقال:

- أبحث عن أخي، كنت في السوق فسمعت أن السجناء يفرّون بعد هروب الحراس.

وخطر للشيباني خاطر غريب، فقال:

- ما اسم أخيك؟

- ناصر ولد أحمد.

- أوه، أعرفه جيّدًا. كان من أول من غادر.. لا شك أنه قريب من بيتكم الآن.

وسكت قليلًا ليرى وقع القصة التي اختلق على الرجل. وعندما رآه يهم بركوب سيارته قال:

- خذني معك إلى محطة السيارات المتّجهة إلى روصو، وسأعطيك عشرة آلاف أوقية.

فتح السائق باب سيارته مرحّبًا بالشيباني الذي عرض عليه مبلغًا

كبيرًا، وهو يقول:

- كيف؟ بل أحملك مجانًا.

انطلقت السيارة في الطرق المتداخلة في الجهة الشمالية من نواكشوط. ما إن اقتربا من ملتقى مدريد حتى لمح الشيباني نقطة تفتيش عسكرية. تسارعت دقات قلبه. لكن العسكري أشار للسيارة بمواصلة السير. تجاوزا ملتقى مدريد، ولمح الشيباني الباصات المهترئة الذاهبة شرقًا جهة منطقة ملّح حيث تسكن جدته. ولم يسمح لنفسه بالاسترسال وراء التفكير فيها، فقال للسائق:

- أتمنى أن تقف قليلًا حتى أشتري حذاءً.

وقبل نزوله تذكّر أنه لا يملك عملة محلية. التفت إلى السائق بلهجة توسلية:

- أنا أملك عملة أجنبية، وأحتاج لشراء الأوقية.

لم يتلكم السائق، بل أدار سيارته فورًا جهة «سوق كبتال».

بعد ساعة نزل الشيباني وسط محطة السيارات المتّجهة إلى روصو. كان معتدل المزاج، منتفخ الجيب بالعملة المحلية. لقد خطط كل شيء ولم يبق أمامه إلا أن يحجز في سيارة متّجهة إلى مدينة روصو الحدودية، ليبدأ ذلك المشوار الذي كان واضحًا في ذهنه وهو يقف جنب بائع التذاكر، فقد سار في تلك الرحلة من قبل.

- أريد تذكرة لروصو!

وهو يُدخل يده في جيبه لإخراج سعر التذكرة لمح عجوزا جالسة تحت خباءٍ تبيع البصل والطماطم والمساويك. شخصت في ذهنه صورة جدّته.

شخصتْ في ذهنه الأوقات الصعبة التي أمضتها في احتضانه وتربيته

وتعليمه رغم العوز المدقع، ونكبات الدهر الحَرُون. واستيقظت داخل نفسه مشاعر من الحسرة والألم والندامة. هل يمكن أن أكون تافهًا إلى هذا الحد؟ كيف أدير ظهري هاربًا من هذه المدينة التي تنطوي أحشاؤها على جدتي وحبيبتي؟ هل هناك عاقل يهرب من مدينة يحمل هواؤها أنفاس حبيبتِيْه: تلك التي منحته الحياة، وتلك التي من أجلها عاد مواجهًا كل المخاطر؟!

استلّ يده من جيبه دون إخراج سعر التذكرة. وقف مرهقًا، ذابلًا، مهمومًا، كارهًا نفسه وهو يتأمل صخب المحطة المكتظة، والسيارات الغادية الرائحة.

بعد ربع ساعة أخذ سيارة أجرة وتوجه إلى ملّح حيث تسكن جدته. ما إنْ دخل الزقاق المؤدّي إلى بيت جدته حتى جاءته الأخبار التي زادت من عذابه. جاءته صغرى بنات «أهل سيد أحمد» راكضة لاهثة حين رأته ينزل من السيارة. وبين أنفاسها المتقطعة ونظراتها المستطلعة روتْ له أن جدّته توفيت قبل أيام.

غرق الشيباني في حالة من الحزن. بكى كثيرًا، بكى على خسارة تلك المرأة التي عاشت لأجله وهو كان يفكر أن يسافر من دون أن يزورها، لكنه بقدر ما كان يشعر بتأنيب الضمير كان مرتاحًا لموتها إذ هو لن يستطيع أن يكون إلى جانبها. كان في حالة صراع بين ضميره وعقله، وهو ما سبب له التعاسة.

وقد زاد في تعاسته أن يهرب إلى الخارج من دون أن يعرف حقيقة مشاعر سلمى نحوه. كان ذلك السؤال يؤرقه: هل استدعته سلمى بالاتفاق مع والدها، أم أن رسالتها كانت صادقة؟ هل تستحقّ أن يبقى هنا ولو دفع حياته ثمن حبّه، أم أنها ليست سوى أداة بيد والدها؟

كانت دموعه على وجنتيه عندما دخلت خديجة كبرى بنات أهل سيد أحمد تطمئن عليه، وتحمل له بعض الطعام. فكر في هؤلاء الناس الذين على الرغم من فقرهم، لا يتأخرون في تقديم المساعدة، والوقوف إلى جانبه، وها هم يحملون له الطعام الذي بالكاد يحصلون عليه.

كان موضوع التأكد من حقيقة مشاعر سلمى يضغط عليه. فنظر إلى خديجة بنت أولاد أحمد وقرر أن يطلب مساعدتها. وحكى لها عما أصابه وعن حبه لسلمى التي يعتقد أنها تخضع للرقابة من والدها، الجنرال، وأنها لا بدّ سجينة البيت. وحكى لها عما تعرّض له بسبب هذا الحب من أهوال، ثم أخبرها أنه يطلب مساعدتها للتواصل معها ومعرفة حقيقة الوضع الذي تعيشه، فوافقت بحفاوة وطيبة مع أنه أوضح لها أنه عمل فيه خطورة.

استطاعت خديحة الوصول إلى سلمى في بيتها. ساعد في ذلك الجو الأمني المنهار، وانشغالُ أبيها وأخيها خارج المنزل، مما خفّف الرقابة المفروضة عليها.

جلست الفتاة في غرفة سلمى وحكت لها كل ما أخبرها به الشيباني. كانت سلمى تسمع من خديجة وتبكي. ومن جهتها، سلمى، أخبرتها بكل ما تعرضت له من قهر وحجز، وكيف أُجبرت على كتابة ما كتبته للشيباني، وكيف جاءها والدها ومعه أخوها يبتسمان ويؤكدان لها أنهما استعلما عن الشيباني وأنه رجل محترم، وأنهما يوافقان على زواجهما، فكتبت له تلك الرسالة تدعوه للعودة، لتعرف لاحقًا أنه تم اعتقاله، ولكنها لم تعرف شيئًا عنه بعد ذلك. فقد كانت تعتقد أن حبيبها قُتل يوم قال لها والدها:

- اعتبري ذلك الفَرْخَ الوضيع في عداد الموتى.

كانت بنت أهل سيد أحمد مدهوشة تتأمّل البيت الفخم وما فيه من تحف تراها أول مرة، ثم تتأمّل الدموع السائلة من عيني سلمى المنهمكة في كتابة رد للشيباني. وعندما انتهت من الكتابة سلمتها الورقة وقالت:

- أرجوك قولي له إن كان يحبني، ويحرص على عدم تعذيبي، أن يعمل بما كتبت له في هذه الرسالة.

وسلمتها الرسالة ودموعها تنهمر، وتحمّلها عبارات الشكر لها وعبارات الحب للشيباني.

استطاعت خديجة أن تنقل للشيباني حقيقة شعور سلمى بطريقة جعلته يلتزم بما جاء في رسالة حبيبته، على أمل أن يحصل ما يسمح لهما باللقاء من جديد. فقد أخبرته في الرسالة أنه ومنذ وقوع الانقلاب ووالدي غائب لا نعرف عنه أي شيء. وأنه علينا أن نتابع الأخبار، لأننا حتى في البيت لا نعرف شيئًا عنه أو عن أخي. لكن ما يهمّني الآن أن تفرّ خارج البلاد فورًا بأي طريقة، وإذا كنت حريصًا على عدم تعذيبي لا تنتظر ولا لحظة. وبعد أن تنجلي الأمور سنجد طريقة لنتواصل.

بعد يومين، وعلى تمام الساعة الخامسة مساءً كان التلفزيون الرسمي يبث خطابا للرئيس المنقلَبِ عليه يُبشر باستعادة السيطرة التامة على الأوضاع في البلاد. وفي نهاية الخطاب قدَّم الرئيس جنرالًا واقفا عن يساره باعتباره بطل مواجهة الإنقلابيين والمدافع عن الشرعية. ولم يكن ذلك الجنرال غير والد سلمى. كان يقف واثقًا رافعًا رأسه، بشاربه الكث ونظراته الصارمة. تحدّث الرئيس عن بطولات الجنرال، وعن بلائه في كشف المؤامرة والدور البطولي الذي لعبه في إفشال الانقلاب الغادر.

تابع الشيباني خطاب الرئيس من تلفزيون مثبتٍ على جدار في شقة

مفروشة بمنطقة عرفات. رأى كيف أن الرئيس وقف وقطع خطابه ليصفّق بحرارة وهو ينظر إلى الجنرال الذي أفشل الانقلاب.

وقف الشيباني وهو يشعر برعدة في ساقيه. أطفأ التلفاز، وكانت الأفكار التي تتصارع في دماغه أعلى صخبًا من الاحتفالات التي انطلقت في الشارع.

***

# 29

وشــبيهٌ صــوتُ النَّعــيِ إذا قِيــــ
ـــسَ بصوت البشــير في كل نادِ!
المعرِّي

- خذني إلى محطة السيارات المتّجهة إلى روصو!

فتح سائق الأجرة النحيلُ الباب، وجلس الشيباني إلى جانبه وذهنُه مشغول باستعادة رحلته إلى السنغال قبل سنين طويلة. بدتْ في عينيه تلك السنين عمرًا قلقًا طافحًا بالآلام.

اندست السيارة المهترئة في زحمة نواكشوط قبيل الغروب، والتفت السائق إلى الشيباني:

- ذاهب إلى روصو؟

شعر بضيق وتوتر، وخُيّل إليه أن السائق عميل استخبارات. وتذكّر قاعدة دفع الله أن سائق التكسي في دول الاستبداد ضابط بأربعة نجوم. تجاهل السؤالَ متأمّلًا السيارات المتزاحمة، وعربات الحمير، وزكمت أنفه رائحة تبغ رديءٍ منبعثة من أنفاس السائق.

نزل من السيارة وتوجه إلى محطة الباصات، فوجد باصًا جاهزًا للانطلاق. جلس في كرسيه وهو يتأمّل السيناريوات التي تنتظره لحظة وصوله إلى روصو حيث سيعبر إلى السنغال فورًا. بعد أربع ساعات ظهرت ضواحي مدينة روصو الحدودية. شعر الشيباني بنشاط وهو يسمع صوتًا إذاعيًا يصدح من راديو الباص:

«هنا نواكشوط، إذاعة الجمهورية الإسلامية الموريتانية».

وجاء صوت الفنانة بنت الميداح: «حبيي حبيتو، وابغاني وابغيتو». وتحوّلت الكلمات في ذهنه إلى أنشودة عبثية، أو رُقية من رقى المشعوذين وهو يتأمل قدرَه، مردِّدًا بصره بين الركاب الصامتين المرهقين.

فجأة، اندفعت سيارة شرطة محاولة تجاوز الباص. أخرج منها شرطي يده مؤشرًا إلى السائق بالتوقف إلى جانب الطريق.

تجمّد الدم في عروق الشيباني. أدخل الشرطي رأسه من نافذة الباص:

- بطاقاتكم التعريفية!

بعد ذلك المساء بسبعة أيام سلّم والدُ سلمى ظرفًا مختومًا لأخلص مساعديه ليسلّمه للمحقّق العسكري المشرف على التحقيق مع الانقلابيين. تضمن الظرف قائمة بأسماء سبعين شخصا شكّلوا «النواة الصلبة للانقلاب».

بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة فقط كان الشيباني جالسًا بين يدي المحقّق ليوقع على آخر ورقة من محضر يعترف فيه بالمشاركة في الانقلاب الذي كاد يُسقط السلطة الشرعية الحاكمة في البلاد منذ العام 1978م.

في اليوم التالي خرجت الصحف الموريتانية بعناوين مختلفة. كتبت صحيفة «شنقيط اليوم»:

«اعتقال قائد الجناح المدني للانقلاب على حدود السنغال»

وكتبت جريدة ولاتة:

«السلطات تعتقل لغزًا من ألغاز الانقلاب الفاشل، كان يعيش في

دولة خليجية».

وتحت العنوان الأخير صورة شمسية للشيباني بعينين غائرتين وابتسامة بلهاء وعلى صدره الرقم: 4451.

في فجر اليوم التالي كان عسكريان يقودان الشيباني في صمتٍ إلى منصة الإعدام في أحد السجون السرية. ما كاد يضع قدمَه اليمنى على خشبة الإعدام، حتى شخص في ذهنه يوم مولده. تذكّر القصة التي سمعها آلاف المرات من جدته وخالاته، وذلك البِشْر الذي انتشر في زوايا الحي الصغير بقدومه إلى هذا العالم. تذكّر كل الأوجه التي كانت تروي قصصه وهو صغير وتختنقُ عيونها بالدموع ضحكًا من شيطناته اللطيفة، تذكر طيبة أولاد أحمد، ومحمود، ورفاقه في المحضرة،.

ها هي تلك الحياة التي أشاعت البشر في حنايا قلوبٍ، وحملت أحلامًا بقدر الكتب التي قرأتها وأشاعتها بين الناس، تُعدَم إعدامًا عبثيًا بأيدي زبانية لا يعرفون صاحبها، ولا يعرفون لماذا يُعدَم، ولا يتخيّلون أنهم يعدمون رجلًا كل ذنبه أنه أحبّ، وأنه تمسك بالحب. رجلٌ لا تربطهم به إلا الطاعة العسكرية العمياء.

تأمل الخط الوهمي بين أفراح ميلاده وأتراح إعدامه. شخصتْ في عينه صورةُ جدّته، فشعر بارتياح لأنها لن تستقبل خبر إعدامه وهي جالسة في الظلام عاجزة عن الحركة. شخصت في ذهنه ملايين الصور كأنها فيلم عبثي يشاهده في حفلة عشاء أخير... شخص أمامه كل عمل خاطئ أو صالح قام به طيلة حياته. وبين تلك الصور كانت صورة سلمى حاضرة بنصف ابتسامة خجولة.

ثم سمع أطيط خشبة الإعدام تحت قدميه. سمع وقع أقدام جندي يتقدّم جهتَه. تذكّر صديقه دفع الله، في ثوبه الأبيض وأكمامه الواسعة

مؤشّرًا بسبابته وهو يقول له:

- اهرب من السياسة ما شئت، لكنها ستطوّقك أنّى حللتَ!

بعد ذلك بعشرين يومًا كان والد سلمى غارقا في دخان سجائره وهو يجلس في مكتبه الفخم في قيادة الأركان. كتفاه تنوءان بالنياشين والأوسمة في بلد لم يخض حربًا منذ دخوله الخدمة العسكرية. طلب من الضابط الذي يخدمه أن يقفل الستائر. أخرج قرصًا صغيرًا دسه في طرف كومبيوتر محمول. أدار القرص الذي أُرسل له ليتأكد أن كلّ شيء تمّ بحسب أوامره.

رأى شابًا أصفر الوجه، أشعث الشعر، ضخم الجمجمة، يتحدّث على خشبة كأنه يهذي.

أنا فارسٌ سقط في ساحة الوغى بسهم أطلقتْه يد جبانة مرتعشة! لا، بل أنا قصيدة حزينة كتبها شاعر ولم تخرج من فمه قط، أنا سمفونيةٌ شجيةٌ عزفها فنان أصمٌّ لم يسمعها قط! لا، بل أنا ومَنْ مثلي أملكم بالخلاص... أيها الجنود الأغبياء!

انفتح باب مكتب الجنرال ودخل أحد مساعديه مرتبكًا ليسلّمه هاتفه. وضع الهاتف على أذنه وقال بلغة فرنسية صقيلة:

- آلو وِي! ابنتي؟! ماذا تقول؟

ثم سقط الهاتف من يد الجنرال.

النهاية

***

# عرفان

مرّ هذا النص قبل وصوله إليك - عزيزي القارئ - تحت أيدي أحبة شذّبوه بملاحظاتهم، وقوّموه بتصويباتهم، فلهم وافر الشكر والامتنان. أشكر أصدقائي: الروائي البديع حجي جابر، والبحاثة إبراهيم الدويري، والناقد محمد عبد الله لحبيب، والقارئ الذواقة رياض المسيببلي، وصديقي الكاتب الموهوب أحمد ولد إسلم.

# الشّيباني

## أحمد فال ولد الدين

بين موريتانيا والدوحة يتكشّف العالم الغريب لهذه الرواية. يفرّ الشيباني هاربًا من بطش جنرال يريد التخلص منه بسبب قصة حب بينه وبين ابنته سلمى. في مسار حياته، كما في طريق فراره، نرى صورة عن موريتانيا بغرائبها وتناقضاتها... ذلك البلد الذي لا نعرف عنه إلّا القليل.

وفي الدوحة نرى كيف تسير حياة أناسٍ جاؤوا من أصقاع الأرض بحثًا عن لقمة عيشهم؛ وكيف أنشأوا عالما تتجاور فيه الألسنة دون أن تتحاور، وتلتقي فيه الدماء والأعراق دون أن تتمازج.

«قال مرّة لصديقه إنها إذا ابتسمت ابتسامةَ مطلع القصيدة يشعر بالسدود تنهدم، وبالحدود تنمحي.... ويخيّل إليه أن العالم استغنى عن الأوراق الثبوتية، وأن الخرائط أعيد رسمها من جديد... فكيف يظلّ كلّ شيء كما هو بعد تلك الابتسامة؟

وقفا هناك، يظلّلهما حبّ مجنون كما لم يقع لحبيبين قبلهما. حب مجنون طليق، انطلق من شرق موريتانيا إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها يسرق أشجار الأنساب، ويصالح بين القبائل، ويقنع شيوخ النسّابين في المساجد بمحكية مغايرة لما يعرفون عن أصول القبائل وأسمائها وألقابها ومياسيمها. حبٌ لا يعترف بنقاء النسب ولا بكُدُورته... سيل جارف، يجرف الطبقات الاجتماعية والعقليات المستقرّة، والصفات الوراثية البائدة والسائدة، ويقطع أشجار الأنساب.... ويعيد تعريف النطف في مستقر الأرحام».



ISBN 978-9983-941-28-9







تصميم الغلاف نجاح طاهر